مغارة الهول

رواية

منصور سمار الجابري

العبيكان
Obeikan

ح منصور سمار اسيمر الجابري، 1439هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجابري، منصور سمار

مغارة الهول./ منصور سمار الجابري.-

الرياض 1439 هـ

ص 328؛ 14 × 21 سم

ردمك: 978-603-02-7021-7

1- القصص العربية - السعودية

أ. العنوان

ديوي 813,039531 1439/6479

الطبعة الأولى

1439هـ/ 2018 م

نشر وتوزيع العبيكان

المملكة العربية السعودية - الرياض

طريق الملك فهد - مقابل برج المملكة

هاتف: 4808654 11 966+ فاكس: 4808095 11 966+

ص.ب: 67622 الريا ض 11517

www.obeikanretail.com

العبيكان للنشر
Obeikan Publishing
obeikanpub obeikan.reader

للحصول على كتبنا الورقية
وادي wadi
سوق إحدى شركات amazon

للحصول على كتبنا الصوتية
دار ضاد للنشر الإلكتروني WWW.DHAD.SA
Kitab Sawti www.kitabsawti.com

للحصول على كتبنا الإلكترونية
Google Play
أجهزة amazon kindle

جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من المؤلف.

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء:

إلى كل حالم امتطى زورق الأمنيات في بحر الواقع المتلاطم، فطوّحت به الأمواج العاتية بعيدًا عن جزيرة أحلامه، ليجد نفسه في أرضٍ غريبة لا يعرفها ولا تعرفه، ولكنه مرغمٌ على العيش فيها، على أي حال.

المحتويات

إهـــداء 5

الفصل الأول: داء التأمل 11

الفصل الثاني: الحمامة البيضاء 59

الفصل الثالث: العنكبوت 109

الفصل الرابع: الإياب 155

الفصل الخامس: ملك الجن 189

الفصل السادس: الأوهام المتحاربة 237

الفصل السابع: الغربان 291

مأرب - خريف عام 512 م

الفصل الأول

داء التأمل

1

لاذ بزاوية البيت، وقد أخذ منه الرعب كل مأخذ، تمنى لو ينشق الجدار الحجري لينسل إلى الباحة الخلفية، ثم يمضي مُصعِدًا في عرض الجبل، حتى لو بات تلك الليلة في مغارة الهول.

كل شيء يهون مع زمجرة والده وصوته المتهدج، الذي ينذر بالويل والثبور، ويوشك أن يتحول إلى وابلٍ غزير من الكلمات المتلاحقة والصفعات المتوالية على وجهه الشاحب وجسمه النحيل.

وضاح! لماذا أضعت الغنم، وهي مصدر قوتنا الوحيد؟

وكيف تضيعها وإنما هي سبع شويهات، قد أضناها الهزال، وأضعفتها سنون المَحْل[1] وأعوام الجدب؟

ولم تركتها نهبًا لسباع الجبل، وطعمًا لذئاب الوادي؟

أتدري ماذا سيحل بنا إن هلكت أغنامنا؟ بل أتدري ماذا سيحيق بك أنت بالذات إن قطعت رزقنا وأهلكت ضرعنا؟

انكمش وضاح على نفسه، وازداد التصاقًا بزاوية الحجرة، وقد وضع يديه أمام وجهه، وكأنه ينتظر الصفعة الأولى، بينما انهال عليه والده بالأسئلة، التي تتفجر غضبًا، وتفيض حسرةً وألمًا.

---

(1) انقطاع المطر.

لم يجب وضاح على أيٍّ من هذه الأسئلة، وكيف له أن يجيب، وقد جف الدم في عروقه، ويبس حلقه، واغرورقت عيناه.

توقف والده عن الصراخ، وأطلق زفرةً مكتومة أحس وضاح بحرارتها في وجهه وظاهر كفيه، ولا يدري ألقرب والده منه، أم لشدة حرارتها وقوة نفثها؟

قطّب والده حاجبيه، وزمّ أنفه، ثم قال بلهجة حازمة: الويل لك إن أكلتها السباع، لأجعلنّك عبرةً لكل معتبر. ثم خرج بالسرعة نفسها التي دخل بها، وأخذ يصيح بأولاده الآخرين.

أسند وضاح ظهره إلى الجدار، ووضع وجهه بين كفيه، وهدأت نفسه قليلًا، فأخذ يتأمل حمرة الشفق الداكنة، التي تتسلل من الباب الخشبي، وهو يسترجع بحسرة: كيف أضاع الغنم؟ وهو الذي طلب بنفسه أن يتولى رعيها وسقايتها.

وضاح هو الولد الأوسط لوالده صخر، الذي يعمل حجارًا، يقطع الصخور من الجبل المطل على وادي مأرب، ويحملها إلى أسفل الوادي، حيث يتلقفها من أراد بناء بيته، أو ترميم ما تهدم منه.

قضى صخر زهرة شبابه يقاسي هذه المهنة الشاقة، التي تجود بمال ضئيل، بالكاد يسد رمق أسرته، المكونة من زوجته سلمى وأبنائه الثلاثة، واستطاع بفضل خبرته في نحت الصخور أن يبني لهم بيتًا صغيرًا في سفح الجبل المطل على وادي مأرب.

تقدم به العمر قليلًا ، فازدادت آلام مفاصله وأوجاع ظهره، وأصبح لزامًا عليه أن يغير هذه المهنة المضنية، لا سيما وقد بدأ الضجر يتسلل إلى نفوس الأولاد حين جربوا هذا العمل الشاق.

أخذ في جمع ما توفر لديه من قروش، وقتّر على أهله عامين كاملين، حتى توفر لديه قيمة سبع شياه.

تحسن وضع العائلة قليلًا ، ودخل الزبد في مائدتهم لأول مرة منذ سنين، أما اللبن فقد أصبح طبقًا ثابتًا في الصباح والمساء، بعد أن كان مرة أو مرتين كل أسبوع، وما أشد بِشرهم حين ولدت إحدى الشياه حملين صغيرين.

نسج الأمل خيوطه في نفس صخر، وتخيل الشياه وقد أصبحت قطيعًا ، والقطيع قد أصبح قطعانًا تملأ جنبات الوادي.

آه ما أجمل أن تتحول مشاعر الشفقة والاحتقار إلى نظرة غبطة، وربما حسد حين يصبح ثريًّا يقصده الناس، فيعطي من يشاء ويمنع من يشاء.

ومع كل هذه الأماني والأحلام، إلا أن عمله في قطع الحجارة علّمه أن يكون واقعيًّا إلى أبعد حد، فالأمنية لا تقطع صخرةً، ولا ترفع فأسًا ، والحلم لا يحملها من أعلى الجبل إلى أسفل الوادي.

لم يتخل عن مهنته الشاقة، بل أصر أن يصحبه أولاده الثلاثة جميعًا، بينما تتولى زوجته رعي الغنم، فالوقت لم يحن بعد للتخلي عن مهنة حفظت له كرامته، وأغنته عن إراقة ماء محياه.

◈◈◈◈

وعلى الرغم من أن الأولاد الثلاثة إخوةٌ أشقاء، تربوا تحت سقفٍ واحد، إلا أن وضاحًا يختلف عنهم في كل شيء تقريبًا، فبينما يتمتع أخواه بجسد قوي وبنية ضخمة، تشبه تمامًا بنية والدهما الحجّار، يملك وضاح جسدًا نحيلًا، لا يكاد يمسك الإزار، بينما ينحسر رداؤه عن نتوء غائر، يكاد يصل صدره بفقار ظهره، وتتصل بجسده الهزيل أطرافٌ دقيقة، تشبه أطراف السرعوف[1] في دقتها وطولها.

ولطالما كان مثارًا لسخرية أخوته، خصوصًا عندما يجتهد في حمل صخرة ثقيلة، فيسقط إزاره وتبدو عظامه البارزة.

كل هذا لم يشفع له أمام والده، لكي يعفيه من العمل في تقطيع الصخور، فقد كان والده على قناعة تامة أن العمل ليس مرادفًا لكسب الرزق فحسب، بل هو مرادف للكرامة والحرية وعزة النفس، ولئن بدا قاسيًا عليه، فالحياة- في نظرة والده- أشد قسوةً وصرامة.

لكن الفرق الجوهري بين وضاح وإخوته هو استغراقه في

(1) حشرة كبيرة نسبيًّا، تتميز بدقة جسمها وطول أطرافها، وتسمى «فرس النبي» أيضًا.

التأمل والتفكير وميله إلى العزلة، فبينما يستغل إخوته أوقات الراحة من العمل في النوم أو في اللعب مع أقرانهم، يبدو هو شارد الذهن، طويل الصمت، قليل الكلام.

كثيرًا ما تمنى لو كلفه والده برعي الغنم، ليتخلص من هذا العمل البدني الشاق، ويتفرغ لتأمله وتفكيره، ولكن هيهات، فهذا من سابع المستحيلات!

إن الغنم هي مصدر قوت الأسرة، وأثمن ما تملكه، وهي حلم الغنى الذي يداعب خيال والده، ويدغدغ مشاعره، وهو لا يثق سوى بزوجته التي شاركته شظف العيش، وصبرت على مِنّة جاراتها، يوم أن كانت تسأل اللبن لرضيعها الجائع، والآن وبعد أن استغنت بلبنها، وذاقت طعم زبدتها، أصبحت أكثر حرصًا عليها، وأشد رعايةً لها.

◈◈◈◈

اجتمعت الأسرة على العشاء ذات مساء، فاستغل وضاح كثرة شكوى أمه، وتذمرها من قلة المرعى في سفح الجبل وشعابه القريبة، فتشجع وقال بحماس بالغ:

ولِمَ لا نأخذها إلى أسفل الوادي، حيث يكثر الكلأ ويتوفر الماء.. إننا بهذه الطريقة نكون قد كفينا أنفسنا مؤونة سقيها، وضمنا لها جودة المرعى في الوقت ذاته.

ولبرهة قصيرة ساد الصمت الوجِل أرجاء المائدة، وبينما

أطرق أخوه الأكبر، وأخذ يحرك موقد النار بعود في يده، نظرت الأم إلى وضاح نظرة خاطفة، تنم عن غضب خافت، ثم قالت بسخرية: أتريدني أن أذهب بها إلى ذلك المكان النائي قبل طلوع الفجر لأعود بعد غياب الشمس؟

أطرق وضاح خجلًا من اعتراض أمه، وابتلع ريقه استعدادًا لسخرية إخوته أو توبيخ والده... ولكنّ شيئًا من هذا لم يحدث، فخيم الصمت مرة أخرى.

رفع وضاح رأسه، ونظر إلى والده نظرة خجولة، وكأنه يلتمس منه صفحًا، أو يستدر عطفًا.. بينما أخذ والده يمسح على شاربه وأطراف ذقنه بإبهامه وسبابته اليمنى.

أدرك وضاح أن والده يستحثه على إكمال فكرته، التي بدأها دون الالتفات إلى اعتراض أمه الساخر، فقال بصوت هادئ، ينم عن ثقة حذرة: وأنا على استعداد أن أقوم بهذه المهمة على أكمل وجه، بينما تتفرغ أمي لشؤون البيت.

هدأت ثائرة أمه قليلًا، فالتفتت إليه وقالت- وهي تحاول إخفاء سرورها بهذا العرض السخي: الأمر عائد إلى أبيك، فهو من يبتُّ في هذا الأمر.

هز الأب رأسه، وقال:سأنظر في هذا الأمر لاحقًا.

انفض المجلس على مشاعر مختلفة وآراء متضاربة.

وضاح في غاية السرور، فهو -على الأقل- قد تجاوز الصدمة الأولى، واستغل الفرصة السانحة أيما استغلال، واستطاع أن يقنع والده بضرورة التفكير في وجهة نظره، ريثما تتمكن والدته من التأثير على قراره بعد أن قدّم لها عرضًا مغريًا، يريحها من شقاءٍ لازمها طويلاً.

أما أخواه فقد كانا ممتعضين إلى أبعد حد من هذه الحيلة الماكرة، التي قام بها وضاح، ليتخلص من عناء تقطيع الصخور، وحملها إلى سوق المدينة، فحتمًا سيضاعف هذا الأمر من الجهد عليهما، لا سيما وقد بدا أثر الإجهاد على جسد والدهما، بينما بقي عزمه وإصراره على مواصلة العمل كما كان.

مضى الأب إلى فراشه صامتًا، واتكأ على وسادته البالية المحشوة بصوف الغنم، وشخص ببصره إلى الأعلى، وكأنه يتفقد شيئًا في سقف الحجرة، بينما انشغلت زوجته سلمى بترتيب الحجرة الصغيرة، وهي تعلم علم اليقين ما يختلج في ضميره، وما يجول في خاطره، ولكنها لم ترد أن تشعره باهتمامها بالأمر.

تظاهرت بالتعب والإرهاق، وهي تزيح الصندوق الخشبي العتيق عن مكان نومها.

سلمى! ما رأيك بما سمعت من وضاح. قالها باهتمام بالغ، وقد التفت إليها، واضعًا رأسه على راحة يده.

اقتربت منه، وقالت: الأهم هو رأيك أنت.

تنهد بعمق، ثم قال: إنني في غاية التردد والحيرة، فتارة أقول: هو أنسب إخوته لرعي الغنم، نظرًا لضعف بنيته ونحول جسمه، ثم أتذكر شرود ذهنه وغفلته، فأخاف أن يضيعها، وعلى كل حال فأنا لا أستطيع الاستغناء عن أخويه في تقطيع الحجارة وحملها.

أجابت بهدوء: لنعطه الفرصة، ونجربه في الرعي، وأصحبه أنا أول الأمر، ليطمئن قلبك.

سلمى! إن هذه الشويهات هي كل ما جنيته طوال ثلاثين عامًا من العمل المضني، إنها عرقي وجهدي..وجراح يدي وأوجاع ظهري.. وهي كل ما أدخره لكم في قادم الأيام.

استرسل في الحديث، وقد بدا الحزن على وجهه المتجعد: لم يعد بمقدوري مواصلة العمل كما كنت أفعل سابقًا لولا مساعدة الأبناء، مع أني أدرك جيدا أنهم لا يحبون هذه الصنعة وإنما يعملون معي طاعةً لأمري وهذا أول نذر الكساد والإفلاس يا سلمى، وإني لأرجو أن نستغني عنها بعد عام أو عامين. أما الغنم فسأوكل أمرها لكما جميعًا فأنا لا أثق فيه حتى تكوني أنتِ معه.

على بركة الله إذًا. قالتها بشيء من الثقة، وهي تحاول أن تخفي سرورها بهذا الأمر.

◊◊◊◊

الصباح الباكر.. وقد أرسل الجبل نسيمه الندي مع نفحة

من الضباب الرقيق الذي ينساب بلطف من قمة الجبل وتنسدل أطرافه على السفوح الحالمة..

استيقظ وضاح مبكرًا على غير عادته وجلس على صخرة ملساء بجوار البيت وأقام يرقب الشروق.

خرج قرص الشمس تعلوه حمرةٌ جميلة تبث معاني الحياة في أرجاء المكان.

لم يجد وضاح تفسيرًا لهذه الحمرة الرائعة على وجه الشمس سوى أنها خجل الاعتذار عن إزاحة منظر الصباح الحالم حينما أرسلت خيوطها الذهبية لتشذيب أطراف الضباب المنسدل الذي أخذ في الانحسار برفق وتدرج.

لكن مهلًا! فهذه ليست المرة الأولى التي يراقب فيها شروق الشمس وهو ثاوٍ على صخرته الملساء التي شذب فأس والده أطرافها منذ زمن بعيد، ثم تركها قرب البيت وكأنها جملٌ ضخم قد لازم مكانه ملازمة دائمة لا يبرحه ولا يزول عنه.

لقد كان وضاح يرى الشمس كل يوم وهي ترسل خيوطها كما يرى الأسير المعذب حبال القيد الخشنة وقد أقبل بها السجان الغليظ.

لم يكن للشروق سوى معنى الاستعداد ليوم شاق يمتزج فيه ألم تقطيع الصخور وحملها مع كلمات والده الصارمة وسخرية إخوته اللاذعة.

فما الذي تغير هذا الصباح حتى يراه وضاح بكل هذه الروعة والجمال؟

إن الشروق هو نفسه كل يوم لكن الذي اختلف هذه المرة هو وضاح نفسه. لقد تبدلت نفسيته فتبدل تبعا لها منظر الشروق.

ابتسم وضاح حين تذكر حكمة والدته التي تكررها في كل مناسبة «إذا فرحت تفرح الدنيا كلها معك، وإذا حزنت -يا مسكين- حزنت لوحدك» فعلى ما يبدو أن أمثال العجائز قد تخفي وراءها معاني عميقة بالرغم من أنها كثيرا ما تبدو بديهية.

◈◈◈◈

خرج والده من البيت مسرعًا وقد حزم ظهره بحبل دقيق ووضع الفأس الثقيل على متنه، وهو يصيح بأولاده ويستحثهم على النهوض ويعيب عليهم محبة النوم.

لكنه لم يناد وضاح هذه المرة بل تجاوزه ولم يلتفت إليه واكتفى بمناداة أخويه الذين نهضا يجران الخطى ببطءٍ وتثاقل.

اقتربت منه أمه ونظرت إليه نظرة تشفُ عمّا يعتمل في صدرها من هواجس القلق والشك في مدى قدرته على تحمل المسؤولية.

أدرك وضاح من تصرف والده أنه قد أوكل المهمة برمتها إلى والدته وحملها مسؤولية الأمر كاملاً.

وبالفعل لم يخب ظن وضاح إذ سرعان ما ابتدأت والدته بسرد طويل تشرح فيه كيف كانت حياتهم قبل الغنم وكيف تغيرت بعدها، ثم انبرت تبين له مدى حبها للغنم وتعلقها بها.

أرادت أن تسترسل في الحديث أكثر وتحدثه عن مزايا كل واحدةٍ من الغنم فقاطعها قائلا:

لا تقلقي يا أمَّاه، فرعي الغنم هو أمنيتي التي خططت لتحقيقها منذ أن جلبها والدي أول مرة، ولو فكرتِ قليلا لفهمتِ أنني أنا الذي جعلك تتذمرين من قلة المرعى جوار البيت حين حدثتك عن كثرة الكلأ الذي رأيته أسفل الوادي، وأشفقتُ عليك وأنت تجلبين لها الماء من البئر البعيدة، بينما ينساب الماء ينبوعًا أسفل الوادي.

وضعت أمه يدها على خدها، وأمالت رأسها بطريقة تنم عن دهشتها واستنكارها، وقالت بسخرية: ثم ماذا يا وضاح الداهية؟

نزل عن صخرته واستوى قائمًا، ثم قال: لو تعلمين يا أماه كم أحب الرعي لعذرتني، ولما غضبتِ مني، لقد أخذ هذا الكلام يتردد في حلقي ثلاثة أشهر، وكلما أردت أن أحدث والدي به تبعثرت الكلمات وطارت الحروف بمجرد رؤيتي لوجهه المهيب، أو سماعي لصوته الحاد، حتى حانت اللحظة التي استطعت فيها أن أضرب هيبة أبي ووقاره بتعجل أمي واندفاعها، وأن أرمي مخاوفه بآمالها، فنجحت أيما نجاح.

فتحت الأم فاها وابتلعت ريقها، وهي تحاول أن تفهم هذا الكلام العميق، ثم قالت بحنان:

يا بني، أعي جيدًا ما تقول، ولكنني لا أستطيع أن أفهم سبب محبتك للرعي وإصرارك عليه، بينما يأنف إخوتك منه، ويستنكفون عنه.

أجاب وصاح بانفعال ظاهر، بدا على تقاسيم وجهه، وفي نبرة صوته: ألم يأنِ لكم أن تدركوا الفرق بيني وبين أخوتي؟ لماذا يصر أبي على المساواة بيننا، وقد فرقت الحياة بين قدرات أجسادنا وعقولنا؟

رفعت الأم رأسها، وقالت بذهول: لم أفهم ما تقول.

أجاب: أمّاه حين أعطاك أبي قطعة من القماش، كي تخيطيها أثوابًا لي ولإخوتي، هل قسمتِها بالتساوي؟

ردت: لا، فصلتها حسب أجسامكم، فأخذ كل واحد منكم ما يناسبه.

هز يده وقبض أصابعه بحماس قائلًا: هذا هو العدل الذي أنشده! ولو ساويتِ بيننا لظلمتِ إخوتي الآخرين، نظرًا لضخامة أجسامهم مقارنة بجسدي النحيل.

لم ينتظر وضاح جواب والدته، بل انطلق بخفةٍ إلى حظيرة الغنم، وأزاح أغصان الطلح اليابسة عن مدخلها، بينما أقبلت أمه تتهادى ببطء على صوت ثغاء الغنم المتواصل.

اقتربت من باب الحظيرة، ثم قالت: على رسلك يا بني، فأمامك يوم طويل وشاق، فاذهب الآن إلى البيت، وتناول فطورك، ريثما أحلبها وأصلح من شأنها.

2

ساق وضاح ووالدته غنمهما عبر الجادة المنحدرة، التي تقع أسفل البيت مباشرة، ولا يفصلها عنه سوى جرف صخري صغير، شقته سيول الجبل، ومهدته أرجل المارة عبر الزمن.

يستقيم الطريق أحيانًا فتمضي الغنم أمامهما بانسيابيةٍ متناغمة، ثم ما يلبث أن يتعرج بشدة، فتتلكأ الغنم وترتفع أصواتها، وكأنها تعترض على هذا المسلك الوعر الذي لم تتعود عليه.

يدفعها بيده، ويهش عليها بعصاه، وربما اضطر إلى حمل بعضها بين يديه عند النزول من العقبات الشديدة.

وبينما تتبرم والدته أحيانًا، وتبدي ضجرها من وعورة الطريق، يبدو وضاح في غاية السعادة والسرور، فربما وثب من صخرةٍ إلى أخرى، ووقف مستقبلًا للوادي، مادًّا يديه للريح، وكأنه يستنشق هواء الحرية المنعش لأول مرة، وربما استخفه المرح، فحمل أحد الخراف الصغيرة بين يديه أو على ظهره.

اقتربا من الوادي، فاستقام الطريق وتمهدت مسالكه، لولا بعض الأخاديد العميقة، التي شقتها السيول في وجه الطريق الأثرية العتيقة. أحس وضاح بشيء من الانقباض، وهو يرى معول الزمن وقد رمى بحجارة الطريق المرصوفة إلى أسفل الوادي، واستبدل بها صخورًا متراكمة تحيط بها أشواك الصبار المؤذية، وتعلوها الحشائش اليابسة.

لقد كان هذا الطريق يومًا ما -في الماضي الجميل- رمزًا للعظمة والجمال في مدينة مأرب، يربط بينها وبين سدها العظيم، لدرجة أن الناس كانوا يزعمون أن الجن قد بنته لبلقيس، فأحكمت بناءه، وشدت من أزره، وأقامت عليه الجسور التي تحميه من السيول المتدفقة من أعلى الجبل.

يسلكه المتنزهون صباحًا، فيداعب وجوههم نسيم الجبل الندي، الذي تتساقط قطراته الباردة على الأوراق الخضراء الناعمة، التي نبتت عن يمين الطريق ويساره، بينما يحجب الضباب الرقيق بساتين الكروم المتلاصقة وجنان النخيل الباسقة.

أما في المساء -حال عودتهم- فيعلو النسيم بشذى الورود الزاكي، وعبق الجنان المنعش، وينشره على شعاب الجبل الخضراء، وعلى قمته الباذخة، وكأنما بساتين الوادي في المساء ترد للجبل هديته في الصباح، والنسيم العليل رسولٌ يتردد بينهما، وما أكرمه من رسول! يكون هو ظرف الرسالة، وهو حاملها في الوقت ذاته.

أما اليوم فقد بقيت معالمه أطلالاً، تشهد على حضارة بادت، ورسومًا تدل على آثار عظمةٍ ولت إلى غير رجعة!

لقد تبدلت كل تلك الجنان الوارفة بمزارع ضئيلة متناثرة، يحميها أصحابها من الرعاة، كما تحمى الأسود فرائسها.

وضاح. وضاح! أين ذهب فكرك؟ الحق تلك الشاة البلهاء، فقد كادت أن تدخل المزرعة. صاحت به أمه صيحةً حادة، قطعت عليه حبل أفكاره الحزينة، فانطلق مسرعًا وردها، ثم أقبل خَجِلًا يعتذر عما بدر منه، بينما طَفِقت أمه تلومه على غفلته وسرحانه، ثم شرعت تبين له العداوة الأزلية بين أهل الزرع وأهل الغنم.

◈◈◈◈

آذنت الشمس بالمغيب، فاستعد وضاح وأمه للرواح بعد يوم جميل حافل بالمرح، قضاه وضاح في مداعبة خرافه الصغيرة البيضاء، التي ألفت ظله، فأصبحت تتبعه أينما توجه، بينما قضت أمه سحابة نهارها تحت شجرة سدرٍ مائلة، قد حفر السيل عن عروقها المتشعبة التي تطفلت على ضفاف الوادي.

سلك وضاح وأمه ذات الطريق التي قدموا منها، ومضوا مصعدين معها تسبقهم أغنامهم، وكأنما زاد الشبع والري من نشاطها وحيويتها، وصلوا إلى البيت، وقد اختفى قرص الشمس خلف ذروة الجبل، وبقي شعاعها يضئ طرف الوادي البعيد، وسفوح الجبل المقابلة.

انهمكت سلمى في إعداد طعام العشاء، بينما رمى وضاح بنفسه على الفراش، وهو يتظاهر بالتعب والإعياء، خشية أن يستثير غيرة أخويه الذين جلسا يرقبانه بصمت، وقد أخذ منهما الإرهاق كل مأخذ. وسرعان ما تبدلت هذه المشاعر إلى شفقة وعطف، عندما جلست أمهم وأمسكت بركبتيها، وتأوهت من الألم، ثم أخذت تشتكي من وعورة الطريق وبعد المسافة، إلا أنها سرعان ما استدركت قائلةً: ومع ذلك فالمرعى الخصب يستحق كل هذا العناء، وقد رأيت أثره على حليب الغنم.

مضت الليلة الأولى بهدوء وتناول الجميع طعام العشاء، ثم خلدوا إلى النوم استعدادًا ليومٍ طويل آخر مليء بالمشقة والكدح، الذي لا ينتهي.

◈◈◈◈

وعلى هذا المنوال مضت الأيام رتيبة متطاولة، استطاع وضاح في أثنائها أن يكسب ثقة أمه، التي بدأت تدريجيًّا بالتخلي عن مرافقته للمرعى.

أما والده فقد رضي بالأمر الواقع، واستجاب لثناء زوجته المتكرر على مهارة وضاح في الرعي، وقدرته على اختيار المراعي الحسنة للغنم، وكيف أثّر هذا على جودة حليبها وأصوافها.

ومع هذا، فقد كانت هواجسه المقلقة تعتاده بين حين وآخر، فتسعى زوجته لطمأنته بمرافقة وضاح ساعةً أو ساعتين ثم تعود أدراجها إلى البيت.

انفرد وضاح بنفسه في المرعى، وأصبح أكثر استقلالاً في اختيار مكان الرعي وزمانه. والأهم من ذلك كله أنه تفرغ للتأمل، واستجاب لداعي العزلة.

لم يكن يحبذ مخالطة الرعاة، حيث الصخب المستمر على مورد الماء، والشكوى الدائمة من جور الزمان وقسوة أصحاب القطعان، لا يرِد الماء إلا وقت العشي حين يصدر الرِّعاء عن المنهل. أما في المرعى فيرتفع بغنمه قليلًا في سفح الجبل المقابل، لئلا تختلط بغنم الرعاة التي تملأ جنبات الوادي.

تجنبه الرعاة الآخرون، ولم يأبهوا به، فهو في نظرهم ثقيل الظل بارد المشاعر، لا يشاركهم لحظات المرح، ولا يقاسمهم ساعات الألم.

زيد كان استثناءً من بين جميع الرعاة، لأنه الوحيد الذي يحنو على وضاح، ويتعاهده بالزيارة بين الفينة والأخرى، وكان وضاح يأنس به، ويحب مجالسته، فبينهما قرابة من ناحية الأم، والأهم من ذلك أن زيدًا يعمل راعيًا عند أحد الوجهاء في مأرب، وربما شهد بعض المجالس التي يحضرها علية القوم، فنقل إليه شيئًا

مما يدور فيها. كان وضاح يصغي لهذه الأحاديث بكل جوارحه، ويقضي وقته متأملًا فيها.

قدم زيد ذات يوم وقد بدا الاهتمام على وجهه، فقال لوضاح: لقد حضرت صباح اليوم قداس الشروق، الذي أقامه سيدنا الكاهن الأكبر كنانة بن عوف، فحدثنا عن مغارة الهول، وحذرنا من الاقتراب منها، فخشيت عليك، لأني لم أكن قد نهيتك عنها من قبل.

دنا وضاح منه، ثم قال بخشوع: أخبرني ماذا حدثكم سيدنا عن مغارة الهول.

أجاب زيد: أخبرنا أن جدتنا العظيمة بلقيس حين فرغت من بناء حضارتنا الخالدة، أمرت بمردة الجن فصفدت، ثم حبست في صناديق من النحاس الأصفر، ودفنت في مغارة الهول.

وحدثنا عن سيل العرم، وكيف دمر مأرب، وفرق أهلها، وترك بيوتها خرائب، لا يسكنها إلّا الجن، ولا يعْمُرها سوى الأشباح.

ثم قال لنا: بقيت مأرب على هذا الحال زمنًا طويلاً، حتى قررنا أن نعود لها، فوجدناها كما وصفت لكم آنفا، فلم أزل أنفث على البيوت وأرقيها بيتًا بيتًا، حتى خرجت الأشباح والعفاريت منها، وحلت في مغارة الهول، فأنا أحذركم من هذه المغارة المسكونة، فإن مس جِنها لا شفاء منه إلّا بالموت.

تأثـر وضـاح، وتغـيرت ملامـح وجهـه، ثـم سـأل زيـدًا: وهـل تعـرف أيـن مكانهـا؟

أجـاب زيـد: لا أعرفـه بالتحديـد، ولكنهـا في أحـد هـذه الجبـال التي تقع غرب الوادي، وأذكر قبل عدة سنين: أن أحد الرعاة تجرأ ودخل المغارة، وبات فيها ليلة كاملة، فأصبح مخنوقًا، قد تدحرجت جثته من أعلى الجبل إلى أسفله.

انصـرف زيـد وفي نفسـه شـيء مـن الزهـو، بينمـا بقـي وضـاح مـع غنمـه يتفكـر فيمـا سـمع، وينتظـر حلـول المسـاء ليبلـغ والـده بهـذا النبـأ العجيب.

◈◈◈◈

الله.. مـا أجمـل هـذه الكائنـات الأليفـة التـي تنشـغل بمرعاهـا طوال النهـار، ولا تبرح مكانهـا سـاعاتٍ متواصلة، حيث يقتصـر عمله على المراقبة الصـامتة، تحت شجرة خضـراء، أو على صـخرة ملسـاء.

لا يقطـع الصـمت سـوى بعـض صيحاتـه العاليـة، التـي يطلقهـا بـين الفينـة والأخـرى، عنـد تفـرق القطيـع أو شـرود إحـدى الغنـم، ينتشـر الصـوت في أرجـاء الجبـل، فيجيبـه الصـدى الـذي يبعـث في نفسه شعورًا خافتًا بالغربة عن هذا الواقع، أما الغنم فتجتمع سويةً بمجـرد سـماع الصـوت، وكأن الأصـداء المتتابعـة ذئـابٌ جائعـة علـى وشـك الهجـوم عليهـا.

ينظر إليها وهي تلتصق ببعضها خوفًا من القادم المجهول، فتتحرك كوامن الرحمة في قلبه لهذه الحيوانات الضعيفة، التي تدرك معنى الجماعة بالفطرة والغريزة، وسرعان ما تعود إلى ما كانت عليه من التفرق والمشاكسة فيما بينها، بمجرد أن تنتهي هذه الأصداء المتناوحة.

ما أروع الهدوء في هذا المكان الخالي، حيث الصمت المطبق، الذي يتحول إلى طنينٍ متواصل في أذنيه، حاول أن يتخلص منه بادي الأمر فلم يستطع ذلك، ثم لم يلبث أن تعود عليه، بل أصبح هذا الطنين محببًا لديه قريبًا من قلبه، وكأنما أحس أنه ينقل لروحه شيئًا من أسرار الكون، التي غابت عن عالمه المحسوس.

إنها فرصته السانحة للتأمل في ملكوت الكون الغامض، الذي لا يبوح بأسراره لأي أحد، بل يتطلب رياضةً روحية شاقة، هي بالتأكيد أصعب من رياضة الجسد على تحمل العمل المضني.

إنها خلوته المحببة لمناجاة الوجود، ومناغاة الطبيعة، التي تتجلى فيها آيات الحكمة وأسرار الخلق.

وشيئًا فشيئًا بدأت روحه تتحرر من أسر جسده، وتتسامى عن عالم الحس، فأصبح تأمله أكثر عمقًا، وأشد تركيزًا، وربما استغرق سحابة نهاره، متأملًا في سرٍّ من أسرار الطبيعة الساحرة، أو خلجةٍ من خلجات روحه الشفافة.

لكن! ومع تنامي قدرته على التأمل ازداد ذهولاً عن واقعه، وتضاعفت غفلته عن غنمه، التي يرعاها حتى أصبح خطر الضياع شبحًا يتهددها في كل وقت. كان مدركًا لهذا الخطر بداية الأمر، لكنه ما لبث أن عزى نفسه عندما رأى الغنم تسبقه في طريقها إلى منهل الماء، حتى إذا شربت سبقته إلى طريق البيت، فعلى الأقل لو ضاعت إحداهن فستكون إما على مورد الماء، أو سيجدها حتمًا في طريق العودة إلى البيت.

استمر في تأمله الحالم، الذي يمسك بتلابيب روحه، ويستولي على فؤاده، ويشغله عمّا سوى ذلك، حتى حدثت الكارثة التي غيرت مسار حياته وحياة عائلته إلى الأبد!

◈◈◈◈

مالت شمس العصر إلى الغروب فحجبت قرصها سحابةٌ صغيرة ألقت بظلالها على سفوح الجبل، وأخذت تنتشر ببطء على جنبات الوادي.

نظر وضاح إلى السحابة وقد اكتست رداءً فضيًّا داكنًا، بينما صبغت الشمس أطرافها المستديرة بلونها الذهبي، الذي تشوبه حمرة الغروب.

آه! ما أجمل هذا الدرهم المذهب، الذي لا يقدر الأغنياء أن يستأثروا به عن الفقراء، ولو استطاعوا أن يختطفوه من جو السماء

لوضعوه في صناديقهم المغلقة، أو ابتنوا به حدائق غناء، لا يدخلها إلا أمثالهم من الأثرياء، وعلى المساكين أن يجدوا شيئًا يتسلون به، شريطة ألا يكون جميلًا في أعين الأغنياء.

ولكن هيهات..فهذه زينة السماء، وهذا رونقها الذي تهبه لكل من يقدر روعتها ويأسره جمالها، ولا تبالي بأي مقياسٍ آخر سوى ذكاء البصيرة، وشفافية الروح، والإحساس المرهف بالجمال.

استغرق وضاح في هذا الخيال اللذيذ استغراقاً كاملًا، وكأنه يتشفى به من هؤلاء الجشعين، الذين استأثروا بكل شيء، وتركوا والده يقاسي أهوال الحياة من أجل لقمة عيشٍ يابسة، يسد بها رمقه ورمق صبيته الجوعى.

غابت الشمس وأفاق من فكرته، فنظر إلى غنمه التي عَهِدَها راتعة بجواره فلم يرها، انقبض قلبه فجأة، وتسارعت نبضاته، فقفز من صخرته العالية، ودار حولها بسرعة، وهو يلتفت يمنة ويسرة، فلم يجد منها شيئًا، بحث في الجوار، ونظر في الآثار، فلم يقف لها على عين، ولم ير لها أي أثر.

ارتفع قليلًا في الجبل، وصاح صيحاته المعهودة قبل ورود الماء، فلم يجبه سوى الصدى.

اجتاحت قلبه موجة رعب كاسحة، وجد مرارتها في حلقه، وراوده يأسٌ مؤلم من العثور عليها، فانطلق مسرعًا نحو منهل الماء،

ولا يزال في فؤاده خيط رجاءٍ دقيق في أن يعثر عليها عند الماء، قبل أن يطبق الظلام. وما أشد حسرته حين وصل المنهل، فلم يجد عليه سوى بعض الكلاب الضالة، التي اعتادت أن ترد الماء في مثل هذا الوقت كل يوم، لتشرب ما بقي في الأحواض.

دار حول الماء، وركض في أعلى الوادي وأسفله، ثم دخل بعض المزارع القريبة، وسأل بعض المارة، فلم يجد ما يشفي غليله.

أراد أن يعود أدراجه، ليبحث عنها في الجبل، فخطر له أنها قد سلكت طريق البيت، الذي اعتادت أن تسير معه كل مساء، فانطلق مسرعًا لا يلوي على شيء، وهو يمني نفسه أن يجدها، قبل أن تكون غنيمةً باردة للسباع الضواري.

مضى وضاح مسرعًا مع الطريق، وقد أطبق الليل بظلامه، فعثرت قدمه في بعض أحجار الطريق، فسقط على وجهه، وسالت ركبتاه دمًا، وانتزعت الصخرة طرفًا من أظفار قدمه اليسرى.

استند على يديه، ثم نهض بسرعة، وهو يضرب صدره بقبضة يده حسرةً وألمًا. أكمل طريقه، وهو يلتفت يمينًا وشمالاً، يصيح تارةً، وينصت تارةً أخرى. وكلما اقترب من البيت تضاعفت حسرته، وتزايد رعبه، واجتاح قلبه ألمٌ عميق، يكاد يثنيه عن مواصلة السير، لولا ما يتشبث به من أملٍ ضعيف في أن تكون الغنم قد سبقته إلى البيت.

◇◇◇◇

يقوى الأمل في نفسه أحيانًا، وتنسج الأمنيات خيوطًا رفيعة ما تلبث أن تذروها رياح الألم وعواصف اليأس. انهارت آماله تمامًا عندما استقبلته والدته عند نهاية الطريق، وفي يدها الإناء الذي اعتادت أن تحلب فيه الغنم كل عشية.

ارتاعت لرؤيته وحده دون غنمه، وسقط الإناء الفارغ من يدها، وقام يتدحرج إلى أسفل المنحدر. وضعت يدها على فمها، ثم صرخت صرخةً مكتومة: الويل لك! أين الغنم؟

تسمّر وضاح في مكانه، ووقف مبهوتًا لا يحير جوابًا، فهجمت عليه وهزت منكبه بشدة، وهي تصرخ: أين الغنم؟ ماذا حل بك وبها؟

تلعثم كثيرًا، ثم قال بصوت خافت، وقد انتابته رعدةٌ شديدة: أضعتها في المرعى، وظننت أنها سبقتني إلى الماء، فلم أجدها هناك، ثم خطر لي أنها قد راحت إلى البيت، فتبعتها إلى هنا.

لكن! أين هي الآن؟ صرخت في وجهه، وهي تغالب دمعتها.

أجاب: عهدي بها قبل مغيب الشمس في الجانب الغربي من الجبل المقابل لمنهل الماء، ولا أدري أين هي الآن.

هوت إلى الأرض، وجعلت رأسها بين يديها، وأخذت تولول وتندب حظها العاثر.

سكتت فجأة، ثم قالت: هذا أوان وصول أبيك وإخوتك، فلا تقف في وجوههم أول الأمر، فإني أخشى عليك ثائرة أبيك، عندما يقف على جلية الخبر الفاجع، ولكن ادخل الى البيت، وسأتلطف في إخباره.

دخل وضاح إلى البيت على صوت ولولة أمه الحزينة: يا ويلي على غنمي.. ويا ويلي على ولدي.

جلس على الحصير الملقى بزاوية الغرفة، وجعل وجهه قِبَل الباب، وأخذ يراقب الأحداث بكل جوارحه. قفز فجأة عندما سمع صوت الفأس حين ألقاه والده من على عاتقه، بدأت الأصوات بالارتفاع في الخارج، وعم الصراخ أرجاء المكان، ثم تحول إلى ما يشبه الزئير، وعندها أيقن أن الأمر قادمٌ إليه لا محالة، فلم يدرِ ما يصنع، وأخذ يتراجع إلى الوراء، حتى اصطدم بالجدار الخلفي للغرفة.

3

حملت سلمى مشعلها، وأخذت تدور في الغرفة المظلمة، وهي تئن أنينًا متقطعًا، استدارت إلى زاوية الغرفة، فإذا عينان تبرقان على ضوء المشعل الخافت.

ارتاع قلبها، وتوقفت عن الحركة، ثم انحنت قليلًا، لتتحقق من الأمر.

صاحت بصوت حاد: وضـــــــاح! ويحك! ألا تزال هنا، وقد خرج الجميع بحثًا عن الغنم التي أضعتها، ألا تخجل من قعودك، وقد ذهب حتى الجيران. اخرج وابحث عنها، لا بارك الله في ساعةٍ سمحت فيها لك بالرعي وحدك.

قفز من مكانه كالملدوغ، وبادر للخروج دون أن ينبس ببنت شفه، فاعترضت أمه طريقه، وأمسكت بأذنه، ثم قالت: خذ هذا المشعل، وشد عليك خنجرك، ثم ابحث عنها في مظانّـها، فإن لم تجدها فلا تعودنّ إلى البيت إلّا مساء الغد.

مضى وضاح عجلًا يحاذر أن يعود أبوه، فيعلم بقعوده وتخليه عن البحث. سلك الطريق المنحدرة، وقد احترق فؤاده بنار اللوم الذي تحول إلى ما يشبه الاكتئاب العميق، لا يدري أيلوم نفسه على غفلته عن الغنم، أم يلومها على استسلامها لفكرته الملحة، التي سيطرت عليه بعد خروج والده، وأذهلته عن الواقع المرير، الذي تسبب فيه بنفسه.

مضى هائمًا على وجهه، حتى إذا وصل منتصف الطريق، رفع رأسه ونظر إلى الجبل المقابل، فإذا المشاعل كأنها نجوم سيارة تذرع الجبل المظلم جيئةً وذهابًا، بحثًا عن غنم والده.

قرر أن يغير مساره، وأن يبحث في الجانب الآخر من الجبل، فلربما أن الغنم قد استدارت حول القمة، وباتت في الجهة المقابلة.

نـزل بخفـة مـع أسـفل الـوادي الأقصـى، وقـد أخفـى مشـعله وراءه، لئـلا يفطـن لـه أحـد، ثـم اسـتدار حـول الجبـل، وانطلـق إلى الأعلـى يثـب وثبـًا، كأنـه نمـر خائـف.

بحـث يمينـًا وشـمالاً، وارتفـع إلى القمـة، ثـم نـزل إلى السـفح فلـم يجـد شـيئًا، ولـم يسـمع سـوى ضبـاح الثعالـب، وعواءهـا المبتـور الـذي يشـبه النبـاح.

داخلـه اليأس والقنـوط، فقـرر المبيـت واختـار صخـرةً مـدورة في وسـط الجبـل، لا تؤتـى إلا مـن جهـةٍ واحـدة، أسـند ظهـره عليهـا، وأمسـك بمقبـض الخنجـر، وركـز المشـعل أمـام ناظريـه، بـدأت نـاره بالخفـوت تدريجيًّـا، حتـى تحولـت إلى جمـرةٍ حمـراء في رأس العـود.

لم يدخـل النـوم إلى عينيـه سـوى غفـواتٍ يسـيرة، يسـتيقظ منهـا كلمـا أحـس حركـة بجـواره، أو أوجـس شـيئًا بالقـرب منـه.

◈◈◈◈

مـا أطـول الليـل ومـا أبطـأ النجـوم! لـمَ لا تسـير كعادتهـا؟ ولـمَ لا تمضـي سِـراعًا كدأبهـا كل ليلة؟

أهـذا هـو الليـل الـذي لا يسـتغرق سـوى ومضـاتٍ حلـم عابـرة، يسـتيقظ المـرء منهـا، وقـد نسـي أغلبهـا؟

حقًّا إن الزمـان هـو مـا نُحِسُّ بـه، لا مـا نحسِـبه.

انبلج الفجر أخيرًا، وبانت معالم الجبل، فقام وضاح ينفض عن جنبه الشوك، ثم قرر أن يَعُسَّ المكان الذي لم ينقطع من جهته ضباح الثعالب طوال الليل، فهي أفطن السباع، وأقدرها على اكتشاف الفرائس، حتى وإن خانتها القوة، فلن تعدمها الحيلة، وهذا هو مصدر خوف وضاح، وسبب اطمئنانه في الوقت ذاته.

تحرك بسرعة، آملًا أن يجد غنمه قبل أن تعثر عليها السباع إن كانت قد بقيت على قيد الحياة في ليل الجبل الطويل، الذي يمور بالوحوش الضارية.

سار في ارتفاع متدرج، حتى هوى على شعب صغير، ينحدر من القمة العالية.

توقف فجأةً حين لاح له بياضٌ يتخلل حجارة الجبل السوداء، دقق النظر، ثم شهق شهقةً عالية. يا للهول.. واحدة..اثنتان.. ثلاث.. أربع.... سبع. رائحة الموت تفوح في أرجاء المكان.

بطون مبقورة، وأمعاء مندلقة[1]، ورقاب مكسورة...

يا للحسرة.. لقد أكل الذئب واحدة ونصف أخرى، ثم قام يعبث بباقي الغنم، وقتلهن جميعًا، ولم يأكل منهن شيئًا. حتى الثعالب إنما أكلت من سؤر الذئب[2]، ولم تتعرض للغنم الأخريات.

---

(1) متدلية.

(2) السؤر: ما تبقى من الطعام بعد الأكل.

انخـرط في بـكاء مريـر، وأخـذ يلـوم نفسـه لومًـا عنيفًـا، وهـو يتخيـل منظـر أسـرته، وقـد اسـتولى عليهـم القنـوط، واسـتبد بهـم اليأس، تخيل والده، وقد وقف على هذا المنظر الحزين، الذي يقطر حسرة وألمًـا.

يـا للّه.. مـا أصعـب أن يمـوت حلـم الحيـاة في خريـف العمـر، حيث لا وقت للتعويض، ولا همة للنهوض مرة أخرى، ولا يبقى سوى مرارة يأس قاتلة، يسميها النـاس قنـاعة.

يـا ويـح ذلـك الذئـب، أي مصيبـة أهداهـا لهـذه الأسـرة المنكوبة؟ لقـد هـوى عليهـم كالصـاعقـة المحـرقـة، حين بـدأت أزاهير الحيـاة الكريمـة تتفتـح في وجوههـم.

ألم تكفه واحدة أو اثنتـان؟ ليتـه أكل أحـد الحملين أو كليهمـا، لا ضير، المهـم أن يترك رأس المـال، الـذي كدحـت الأسـرة مـن أجله سنين عديدة.

ولكـن لـــمَ كل هـذا العبـث؟ أهـو رغبـة الانتقـام مـن هـذه الكائنـات، التـي كانـت يومًـا مـا- في الزمـن السـحيق- تشـاركه التوحش، وتتقاسـم معـه حلـو الطبيعـة ومرهـا، حتـى إذا التجأت إلى البشر، ورضيت بالتدجين، صنعت منه عدوًّا لدودًا للإنسان أشرس المخلوقـات علـى الإطـلاق.

أم هو ألم الخيانة المرير، الذي تسبب فيه الكلب حين قبل بالرشوة التي قدمها له الرعاة، فانقلب على ابن عمه، وأصبح حاميًا لا يغفل وحارسًا لا ينام، حتى جعل من حياة الذئب مخاطرة دائمة.

وعلى كل حال فقد عاقبت الحياة كل من خالف نواميسها، وجبن عن مواجهة تحدياتها، فأضعفت من قدرات الغنم وسرعتها، وألحقت بالكلب وصمة عار، لا يغسلها ماء المزن، جعلته مضربًا للمثل في الخسة والحقارة. بينما بقي الذئب مثلًا على القوة، ورمزًا للبطولة في كل مكان وزمان.

◈◈◈◈

قفز من مكانه حين هوى حجر كبير بين قدميه، رفع رأسه فلمح أحد جيرانه، الذي خرجوا يبحثون عن الغنم.

صاح الرجل في وجهه: وضاح! أيها الولد العاق، لم تركتنا نبحث طوال الليل، وأنت تعلم مكانها، أيها الخائن كيف تركت غنم أبيك طعمًا للذئاب، ونهبًا للسباع بعد أن جعلها أمانةً في عنقك؟

مضى الرجل في أسئلته المتواصلة التي تقيح سخريةً، وتفيض شتمًا وسبابًا، ولم يمهل وضاح لكي يرد عن نفسه.

تلعثم وضاح، وجعل يتمتم بكلمات متقطعة، ويحرك يديه حركات عشوائية، بينما انتظر الرجل حتى وصل جاره الآخر-الذي صحبه طوال الليل- ثم أضاف إلى كلماته اللاذعة حجارةً متتابعة، قام يرجم بها الفتى المسكين.

لم يدر وضاح ما يصنع، أيرد على السباب أم يتقي الحجارة، فقرر الهرب جهة القمة.

لحقه الرجلان، وهما يصيحان عليه، ويغريان الناس به. تداعى الناس عليه، وظلوا يلاحقونه، ويرمونه بالحجارة، وبعضهم لا يدري ما ذنبه أصلًا ، حتى إن من لم يره منهم كان يظن أنهم يطاردون الذئب المفترس!

انطلق هائمًا على وجهه، حتى وصل القمة، ودخل في غار متسع، توقف عن الركض، وانحنى قليلًا واضعًا يده اليمنى على صدره، وأخذ يتابع أنفاسه المتلاحقة، ثم أدار وجهه جهة باب الغار.

فجأة! توقف الناس عن المطاردة، وتفرقوا مذعورين، وسط دهشة وضاح وانبهاره وعجزه عن تفسير ما يحدث.

تنفس الصعداء، وهو يلعن هؤلاء الجيران الذين يُمِدون نار المصائب بوقود الشماتة والسخرية، وإلا فما معنى أن يطارده أولئك الأوباش، ويدمون قدمه بالحجارة في وقت هو أحوج ما يكون فيه للعزاء وجبر الخاطر؟

ولكن! لـمَ هرب هؤلاء الجبناء، وقد أوشكوا على حصاره في المغارة؟ تقدم قليلًا نحو باب الغار، ووقف على رؤوس أقدامه، يتأمل منظر الهروب، الذي يبعث في نفسه شيئًا من السخرية والتشفي.

أحدهـم كان منظـره مضحـكًا للغايـة حين انحـل إزاره، وكاد أن يسقط، فأمسكه بكلتا يديه، وهو يشتد هاربًا، ويصيح بصوت عالٍ: خطفته الجاااان، أخذته العفارررريت.

ضحك وضاح من المنظر، ولم يعبأ بما سمع.

◈◈◈◈

هـدأت نفسـه قليـلًا، فجلس متربعًـا عنـد بـاب الغـار المتسـع، هجـم عليـه الجـوع فزحـف إلى شـجرة الصبـار الكبيـرة، التـي نبتـت في الجانـب الغربـي مـن مدخـل الغار، ونمت ألواحهـا العريضة، حتى كادت أن تسـده.

التقط خنجـره، ثـم اخترط ثمرة خضراء لم تنضـج بعد، أزال عنها الشوك، ثم التهمها بسرعة، وعينه على ثمرة أخرى.

لم يكن الطعـم مستسـاغًا، لكـن اتِّقـاد حـرارة الجـوع في بطنـه أنسـاه مرارة الطعم في لسانه.

نـزع رداءه، ووضعـه تحت رأسـه، ثم استلقى ونـام ملء جفنيه. استغرق في النوم قليلًا، ثم ما لبث أن هجمت عليه الكوابيس المخيفة والأحلام المزعجة.

قـزم صغيـر أسـود اللـون ثائـر الرأس يجثـم علـى صـدره، ويحبـس أنفاسـه، ويـكاد يسـحق عظـام كتفـه!!

يستيقظ مرعوبًا، وهو يتألم من منكبه ألمًا شديدًا، يلتفت جهة الغار، فلا يرى شيئًا، ثم ينظر إلى مرقده، فيكتشف أنه نائم على حجارة مدببة.

طار النوم من عينيه، فقرر أن يكتشف مغارته الكبيرة، التي تتربع على أعلى القمة الشاهقة.

مشى في نزول متدرج على صوت رجع الصدى، وهديل الحمام الذي ينبعث من هنا وهناك. سار بهدوء وهو يشعر أنه مسافر لعالم مختلف تمامًا عمًّا عهده في حياته كلها، عالم تمتزج فيه رهبة المجهول مع دهشة المعرفة، التي تطل بوجهها الآسر مع كل لوحة رسمتها الطبيعة على الجدران، ومع كل عمود نحت منه الزمن تمثالًا ساحرًا يتدلى من سقف المغارة.

وقف عند لوحة ساطعة من البلور المتكلس، قد سطع عليها ضوء النهار، فأحالها مرآة صافية، تشع نورًا وبهاءً، ينعكس على زوايا السقف المتداخلة في بعضها، تأملها من بعيد، فرآها في غاية الانسجام والتناسق، ثم اقترب منها، فأدرك أنها متنافرة الأجزاء، مختلفة الأشكال، لكنها تتكامل فيما بينها لأداء مهمتها.

مكث عندها طويلاً، وهو يتأمل كيف تشرح الطبيعة البكر مفهوم الحياة في أبسط تجلياتها.

هبت عليه نفحة هواء باردة، من تلقاء جوف المغارة، وكأنها تستحثه أن يكمل رحلته الصامتة في هذا الملكوت العجيب.

توغل برفق وسط العتمة المتزايدة، التي بدأت تلف جدران المغارة بوشاح أسود، يخفي معالمها، ويزيدها رهبةً وغموضًا.

استوقفته الأشكال المذهلة للنوازل المتدلية من السقف، التي تكاد تلامس أرض المغارة، فهذا العمود كأنه رأس نسر، وذاك كأنه ذيل أفعى، وهذا المتدلي كأنه أم تحنو على رضيعها.

إبداعٌ أخّاذ يحار العقل فيه، ولا يدري أهو سحرٌ جسَّد الأرواح، أم هي يد حنطت الأجساد؟ أم أنها أرواحٌ لطيفة، أسرها الجمال الصامت، فرغبت عن عالمها النوراني، وسكبت نفسها شموعًا صلبة، ما لبثت أن سكنت سكون التاريخ، وصمتت صمت الماضي، بينما بقي إشعاعها يفيض على الحس أمواجًا من روعة الجمال، وهيبة الصمت، وقداسة الخلود.

أجال النظر فيها مرة أخرى، فخيل إليه أن هيئتها قد تبدلت، وأن أشكالها قد تغيرت!! فما عَهِده أُمًّا تحنو على رضيعها، أصبح يراه ذيلًا لحورية البحر الفاتنة، ورأس النسر أصبح وجه سنورٍ[1] غاضب.

احتار في أمره، فلا يدري أهو خياله الخصب الذي يمور بالأفكار والخيالات، أم أنها قد غيرت أشكالها فعلًا؟

انتابه شيء من الرهبة، وازداد وجيب قلبه، فأكمل خطاه نحو جوف المغارة، حيث يبدو أن النور يتزايد شيئًا فشيئًا.

---

(1) السنور: القط البري.

ضاقت المغارة قليلًا، حتى أصبحت الجدران تحاصر كتفيه، ثم ما لبثت أن توسعت، وأفضى إلى بهو مستطيل، يأتيه الضوء من جهتين مختلفتين.

اقترب قليلًا، ثم تبين له أن المغارة قد انشقت إلى نصفين، وكأنها لسان أفعى. لم يتردد كثيرًا، بل قرر بسرعة أن يسلك الشق الأيسر، حيث يتزايد الضوء القادم من أقصى المغارة.

سار على وتيرةٍ غير منتظمة، حيث يتعرج الغار، ويقترب السقف، حتى يكون في متناول يده. خفق قلبه حين رأى عظامًا بيضاء، تلوح في أحد الصدوع القريبة.

وصل إلى نهاية الغار، فلم يجد بابًا مشرعًا، إنما وجد عدة شقوق صغيرة، تتناوح معها الرياح. حاول أن ينظر من خلالها إلى الخارج، فلم يرَ شيئًا، فاستدار ليعود أدراجه، وقد زاد هبوب الريح، وارتفعت أصواتها، حتى غدت زجلًا[1]، يتردد صداه في أرجاء المغارة.

وقعت عيناه على آثار أقدام قد انطبعت على الرملة الناعمة، التي ركنتها الرياح في إحدى جنبات الغار، انحنى قليلًا، وأخذ يتفحصها ببصره، فأدرك أن إنسانًا ما قد مرّ من هنا قبل وقت ليس بالبعيد.

---

(1) الزجل: الصوت مع جلبة وضوضاء.

التفت إلى الجهة المقابلة، فرأى صخرةً كبيرة، قد سدت أحد الصدوع العميقة. تأملها قليلًا، ثم أدرك بخبرة الحجّار أنها ليست من جنس الحجارة المعهودة في الغار، حاول دفعها بيديه فلم تتزحزح، فأسند ظهره إلى جدار الغار، ودفعها بقدميه.

تحركت الصخرة بصعوبة بالغة، وهي تصدر صوتًا غريبًا، ثم تدحرجت بسرعة بعد ذلك، كان واضحًا من نمط حركتها وصوتها، أنها تخفي شيئًا ما تحتها، كف رجليه ونهض لينظر إلى مكانها، وقد داخلته رهبة شديدة، ثم حدثت المفاجأة المرعبة!

صندوق عتيق من النحاس الأصفر، الذي تلمع جوانبه، وكأنه شرر يتطاير من عيون العفاريت!!

يا إلهي! إنها مغارة الهول!! تلك المغارة المسكونة بمردة الجن والشياطين، أيّ مصيرٍ مشؤوم جلبه له حظه العاثر، فلم يسبق أن دخلها أحد، فخرج حيًّا، كما يقول الكاهن الأكبر.

يا لها من مفاجأة، كادت أن تذهب بعقله، وتُطير لُبَّه.. تراجع للوراء بسرعة، حتى اصطدم رأسه بجدار الكهف، وضع يده على فمه، وصرخ صرخة مكتومة...نهض ليقوم، فلم تحمله ركبتاه، وأخذ يزحف على مؤخرته، حتى وصل إلى البهو المستطيل. استدار جهة الباب، ثم بكى من الرعب.

تبًّا لهذه المغارة! كيف تحول سقفها إلى أفاعي جائعة، تستعد لالتهامه، وكيف امتلأت الجدران عيونًا تراقبه، خفض بصره إلى الأرض، ثم انطلق مسرعًا نحو الباب، وقد أوشك على الانهيار.

صرخ صرخة مدوية حين خرج من باب المغارة، واستمر في ركضه الشديد، ولم يلتفت إلى الوراء، حتى جاوز موضع المغارة.

توقف لكي يلتقط أنفاسه، ثم التفت خلفه، فلم ير شيئًا، ارتاحت نفسه قليلًا، لكنه آثر الابتعاد أكثر، فمشى حتى وجد مسيلًا ناعم الحصباء، فرمى بنفسه على الأرض، وهو يتأوه بشدة.

يا ربَّـــــاه.. كيف دخلت إلى مغارة الهول دون أن أشعر؟ بل كيف خرجت منها سالمًا؟

لكن! هل سلمت منها أم ما تزال تسكنني؟ كيف غاب عني سبب هروب الناس المفاجئ، وقد كادوا أن يمسكوا بي عند باب المغارة؟

ماذا حدث لعقلي؟ ألهذه الدرجة بلغت بي الغفلة والسذاجة؟

تساؤلات ملحة أخذت تتوارد على ذهن وضاح، وهو مستلقٍ على الأرض، وقد بردت دموعه على صدغيه.

لم يشأ أن يسترسل مع هذه الخيالات المرعبة، فنهض وأكمل طريقه باتجاه القمة الأخرى، التي تطل على مدينة مأرب.

لم يدر لـــمَ سار بهذا الاتجاه، ولـــمَ اختار هذه القمة بالذات، وربما كانت رغبة خفية تسوقه لإلقاء نظرة الوادع الأخير على مرابع الصبا ومعاهد الطفولة.

صعد إلى القمة وأحداث اليوم الرهيب تتراءى أمام مخيلته، وكأنها أحداث سنةٍ كاملة. واعجبًا للمصائب، كيف ينسي بعضها بعضًا! لقد نسي مصيبته بفقدان الغنم في غمرة ما حدث له بعد ذلك.

4

قمة الجبل.. حيث تبدو البيوت في مأرب، وكأنها أعواد ثقاب مرصوصة على جنبات الوادي المتعرج، الذي تتخلله أشجار الأثل المتناثرة هنا وهناك، وتكتنفه بعض المزارع الخضراء.

ليس فيها ما يدل على العظمة سوى آثارها الخالدة، حيث ينتصب عرش بلقيس[1] بأعمدته الضخمة، ويقف معبد آوام[2] شامخًا بسوره الدائري المهيب.

مأرب تلك المدينة الناشئة التي تحن إلى ماضيها التليد، وتتطلع إلى مجدها الغابر بعد أن سكنتها قبيلة وضاح، بزعامة سيدها القوي رياح ابن قيس، الذي استطاع بحنكته ودهائه أن يقنع

---

(1) موقع أثري يتميز بأعمدته الضخمة يقع على بعد 1400 متر إلى الشرق من وادي مأرب.

(2) معبد أثري مقدس عند أهل سبأ، وهو دائري الشكل بمحيط يبلغ 300 متر تقريبًا، ويقع قريبًا من عرش بلقيس، يسمى أيضًا بمحرم بلقيس.

القبيلة البدوية بالتخلي عن حياة الحل والترحال، وأن تستوطن هذه المدينة الأثرية.

لم يكن هذا الأمر هينًا، لاسيما وقد تواتر لدى البادية أن بيوتها مسكونة بالجن والعفاريت، بعد ما دمرها سيل العرم، فأقفرت من أهلها عقودًا من الزمن، ولولا مساعدة الكاهن الأكبر كنانة بن عوف وجهوده في إقناع الناس، وتسكين مخاوفهم لما تم هذا الأمر أبدًا.

يتمتع كنانة بشخصية فريدة لها تأثير السحر في أتباعه، الذين يؤمنون بقدراته الخارقة، ويحفظون كلماته الملهمة عن ظهر قلب.

سخر وقته وجهده لإحياء دين جدته العظيمة بلقيس في نفوس أهل مأرب، وأمضى شطرًا من عمره يتتبع النقوش الأثرية والمخطوطات القديمة، حتى تشرّب ذلك الدين، وأحاط علمًا بجميع جوانبه، ثم ما فتئ يبشر به، ويدعو إليه، حتى تبعه كل سكان المدينة تقريبًا.

استطاع بقوة تأثيره أن يجعل دين بلقيس حيًّا في نفوس أتباعه، وأن يوحي لهم أن نهضة مأرب وتقدمها في مدارج الحضارة ومراقي المجد مرهون بمدى تمسكها بديانتها، ومحافظتها على القيم، التي غرست نواتها ملكة مأرب العظيمة.

ومع هذا كله فقد كان يدين بالولاء التام والطاعة المطلقة لزعيم القبيلة القوي رياح بن قيس، الذي كان بدوره لا يقطع أمرًا

حتى يشهده الملأ في مأرب، وعلى رأسهم الكاهن الأكبر، ولم يكن يبت في معضلة، أو يصدر قرارًا حتى يستفتيهم، ويأخذ بمشورتهم، ويرى أن هذه الشورى دينٌ ورثه عن جدته العظيمة بلقيس، فهو لا يحيد عنها، ولا يتنكب طريقها.

◈◈◈◈

استمر هذا التحالف بين الزعيم المطلق والكاهن الأكبر قويًّا لا تشوبه شائبة، ولا يكدر صفوه مكدر سوى بعض المشاغبات اليسيرة، التي يقوم بها بعض أتباع الكاهن من الشباب، الذين تشتعل جذوة الإيمان في قلوبهم، ويتقدون حماسًا لدين أسلافهم العظماء، حيث يرى كثير منهم: أن الزعيم لا يقوم بما يكفي من أجل تمكين الدين في نفوس الأهالي، فضلًا عن دعوة القبائل الأخرى إليه، وأنه يتراخى في تطبيق تعاليم الديانة الصارمة على أهل بيته وخاصته.

لم يكن الزعيم رياح يتعامل مع هؤلاء الشباب المتحمسين بلين ورفق، بل كان حازمًا وقاسيًا في أحيان كثيرة.

أما الكاهن الأكبر فكثيرًا ما كان حلقة وصل بينهم وبين الزعيم، فتارة يسعى لإقناعهم بالحجة والبرهان، وتارة يسفه أحلامهم، ويوبخهم على الطيش والتعجل، وربما شفع في أحدهم إذا قسى عليه الزعيم وتوعده.

لم تشكل هذه المشاغبات هاجسًا كبيرًا للزعيم أو الكاهن، إذ سرعان ما تضمحل ويزول أثرها، كما ينقشع سحاب الصيف إذا استدبرته الريح، ينشغل الناس بعدها بتدبر أمور عيشهم، ومغالبة ظروف حياتهم الصعبة.

لكن! ثمة هاجس مقلق بدأ يتسلل إلى نفس الكاهن، ويقض مضجعه في الآونة الأخيرة، وهو ما آنسه من عَدي بن عمرو -ابن أخي رياح- من ميل عن دين القبيلة، وانصراف عنه إلى بعض العلوم، التي بدأت بالتوافد على المدينة مؤخرًا مع التجار القادمين من الأقاليم الأخرى.

لم يكن للزعيم رياح ولد يرث الحكم من بعده، سوى ابن أخيه عدي، الذي ربّاه صغيرًا منذ أن مات والده، وهو في المهد صبيًّا.

أحس الكاهن بالخطر الذي بدأت نذره تلوح في الأفق، لما يعلمه من شكيمة عدي وشجاعته وبلاغة حجته، إضافة إلى التفاف أبناء الملأ المترفين حوله، وتشبههم بسمته وهيئته.

لم يترك الكاهن هذه الهواجس في نفسه، بل أفصح عنها لزعيم القبيلة رياح الذي بادر لإزالة مخاوفه، وتطييب خاطره، وألزم ابن أخيه عدي بحضور قداس الشروق الذي يقيمه الكاهن في المعبد، كلما أشرقت الشمس.

واظب عدي على الحضور كل يوم، امتثالاً لأمر عمه، يصحبه لفيف من أتباعه المقربين، وإن كان في نفس الكاهن ما فيها من شك وريبة في نوايا عدي ودوافعه الخفية.

ساورته الظنون، وتزايدت مخاوفه عندما علم أن رياح يعد ابن أخيه للوفادة على ملك غسان في دمشق، يرافقه جمع من علية القوم وتجار المدينة.

وعلى الرغم من تأكيد زعيم القبيلة: أن طابع الوفادة سياسي بحت يقوم على أساس فتح طريق التجارة والتحالف مع أقوى دول العرب في الشام، إلا أن الكاهن لم يعبأ بشيء من هذه التبريرات، فهاجس الخوف على الدين الذي أحياه في نفوس الناس قد غلب على تفكيره، وسيطر على كل مشاعره، لا سيما أن دولة الغساسنة[1] تدين بدين النصرانية، الذي بدأ ينتشر في أرجاء المعمورة بعد أن اعتنقه قيصر الروم أقوى ملوك الأرض.

لم يُبدِ الكاهن معارضته خوفًا من تفاقم الخلاف وظهوره للعلن، ولِما يرى من شدة تطلع عدي لهذا السفر وكثرة حديثه عنه لهفةً واشتياقًا، وحِرصِ عمه رياح على اكتمال التجهيز وحسن الإعداد لهذه الوفادة المهمة. اكتفى بإسداء بعض النصائح، ووعد بمباركة القافلة عند خروجها.

◈◈◈◈

(1) دولة عربية حكمت الشام، وكانت موالية للروم.

دُقت الطبول الكبيرة إيذانًا بخروج القافلة، وانتشر صوتها المدوي في أرجاء الوادي، وعمت أصداؤه الجبال القريبة، انتفض وضاح حين سمع الصوت، واقشعرَّ جلده، وكأنما قد وخزه دوي الطبل في جرحه الذي لم يندمل بعد.

رفع بصره قليلًا ، فوقعت عيناه على بيت والده، الذي يقف وحيدًا في سفح الجبل المقابل، حيث تفصل جادة الطريق البيضاء بينه وبين البيوت الأخرى، التي تقع أسفل منه.

يا لها من صورة معبرة ترسم الواقع الحزين، وكأنما جادة الطريق هي خط الفقر والبؤس والشقاء، الذي خطه القدر لهذه الأسرة المنكوبة.

ولكن.. مهلًا! ألم يكن هذا البؤس كله ناتجًا عن قرار مشؤوم اتخذه جد وضاح منذ زمن بعيد، حين أصر على حياة البدو، وأبى أن يستوطن في مأرب مع القبيلة، التي امتثلت أمر زعيمها، ولبت نداء كاهنها؟

كان الجد معتدًّا بنفسه، مُدِلًّا[1] بكثرة ماشيته، فخالف القبيلة، وتابعه على ذلك شرذمة قليلة من بني عمه وأقاربه.

لكن سنين القحط المتتابعة في الصحراء لم تدع لهم ضرعًا يحلب ولا ظهرًا يركب، فتخلوا عنه واحدًا تلو الآخر، ولحقوا ببني جلدتهم، حتى بقي وحيدًا ليس معه سوى زوجه وأبنائه.

---

(1) فخورًا متباهيًا.

ساء وضع الجد، ورقّت حاله، فرجاه ابنه صخر أن يقبل بالأمر الواقع، ويلتحق ببني عمه، لكنه رفض بشده، واعتبرها مسألة كرامة، لا تنازل عنها، بل تحول الأمر لديه إلى ما يشبه العناد، فجعل يهجو بني عمه الذين تخلوا عنه، ويكيل لهم السباب والشتائم، وبقي على هذه الحال حتى أدركته المنية.

احتمل صخر والدته الكبيرة، وارتحل إلى مأرب، والأمل يحدوه في حياة كريمة، تعيد له شيئًا من كبريائه، الذي سلبته أعوام الجفاف المتواصلة.

ولكنه سرعان ما اكتشف أنه قد وصل بعد فوات الأوان، فالمزارع قد امتلكت، والأراضي قد اقتطعت وسورت، والمصالح القليلة قد أصبحت نهبًا في أيدي الناس.

وكان أكثر ما يثير استغرابه، وربما غيظه وحنقه، هو أن أغلب الأثرياء الذين يملكون الأراضي الشاسعة والمتاجر الكبيرة، كانوا يومًا ما رعاةً عند والده أو أحد أقاربه، ولكنهم بادروا إلى اللحاق بركب الحياة الجديدة، بينما قعد به رهان والده الخاسر على نمط حياته القديم.

ذهب صخر إلى بعض الرجال الذين كان والده يتفضل عليهم، ويمنحهم المنيحة[1] تلو المنيحة، فسألهم مزرعةً أو دارًا فردوه ردًّا عنيفًا، وسخروا منه سخريةً مُرّة.

---

(1) الشاة أو الناقة تهدى للجار، لينتفع بحليبها، ثم يردها.

اشتد عليه الأمر، فأخذ يبحث عن أي عملٍ كريم، يقتات منه، ولكنه لم يجد شيئًا ذا بال، فلا هو يحسن الزراعة، ولا يجيد التجارة، ولا هو يرضى بشيء من المهن الوضيعة.

لا ينسى صخر ذلك اليوم الذي كاد أن يبطش فيه بأحد كبار المزارعين، عندما اقترح عليه أن يجلب الروث من معاطن الإبل، ويفته في سواقي الماء كل يوم، وثب عليه صخر، وأمسك بتلابيبه، وطرحه أرضًا، وهمّ بضربه لولا تدخل الناس.

◈◈◈◈

أدرك صخر -بعد خيبات أمل متتالية- البونَ الشاسع بين حياة البدو، التي تقوم على التآزر والتعاضد، لمواجهة تحدي الطبيعة القاسية، وبين نظام المدينة، حيث التنافس المستمر على الأراضي المحدودة والمهن القليلة هو سيد الموقف، الذي يحكم حياة الناس، بينما يصبح التآزر عقدًا محدودًا، يفرضه اعتماد المهن على بعضها.

استضافه أحد بني عمه أيامًا عدة، ثم أشار عليه أن يعمل حجارًا يقطع الصخور من أعلى الجبل، ويبيعها على الناس أسفل الوادي. رضي صخر بهذه المهنة الشاقة على مضض، فعلى الأقل ليس ثمة من يملي عليه ما يجب القيام به، أو يرتهن كرامته مقابل لقمة عيشه، ولكنه كتب بذلك على جسده شقاءً متواصلًا

لازمه طوال حياته. فلما كاد ثغر الزمن أن يبتسم له، ويمسح شيئًا من جراحه وآلامه، قلبت له الأيام ظهر المِجَنّ، فعاد وجهها عبوسًا كالحًا.

تأوه وضاح بشدة، وانتابته حسرة مؤلمة، حين تذكر أنه هو من قرر أن يرعى الغنم، وهو من سعى إلى ذلك، وخطط له، ثم أضاعها، فكتب مصيره بيده، وربما مصير عائلته وهو لا يشعر.

أحس بالرغبة في البكاء، وهو يتأمل منزل عائلته من بعيد، ولكن عيناه جمدتا، ولم تذرفا دمعةً واحدة، حاول أن يستجدي لواعج الحزن، وهو يلقي نظرة الوداع الأخيرة على المنازل، التي لم يعرف الدنيا إلا من خلالها، فلم يجد في قلبه من الحزن ما يوازي هذه اللحظة الحزينة. استغرب من نفسه المرهفة كيف وصلت إلى هذا القدر من الجفاء والصدود، وربما هو السأم الذي أصابه بسبب المصائب المتتالية، التي تواردت على قلبه، فهانت الحياة كلها في عينيه.

وقف وضاح مستقبلًا بيت والده، وقد أغمض عينيه، ورفع يده اليمنى مُسلِمًا، ثم أنزلها ووضعها على قلبه، وانحنى قليلًا.

لم يكن السلام حارًّا، ولم تكن المشاعر جياشة، ولكنه خشي أن يؤنبه ضميره بعد ذلك على وداعه للديار بدون بكاءٍ أو سلام.

الفصل الثاني

الحمامة البيضاء

1

نزل من قمة الجبل برفق وتمهل، وقد حسم أمره، وأزمع على الرحيل، فمضى ميممًا جهة الجنوب، وجعل المدينة التي ضاقت عليه رحابها وراء ظهره، لم تكن الوجهة محددة تمامًا، لكنه قرر أن يسلك الجادة المتعرجة، التي تفصل رمال الصحراء عن سفوح الجبال.

كان المشهد مهيبًا وجميلًا في الوقت ذاته، فتارة تهجم الكثبان على السفوح، فتتراجع الجبال إلى الوراء تاركةً خلفها بعضًا من الصخور السوداء، التي تغرق في محيط من الرمال البيضاء الممتدة، وتارةً تكرُّ الجبال على الكثبان المهاجمة فتزيحها عن مكانها، وتغرس في عمقها أنيابًا سوداء تحيط بها الرمال من ثلاث جهات.

أما هو فيمضي قُدُمًا، وكأنه حكم يفك الاشتباك المتواصل، فيشير إلى الجبال عن يمينه، ويومئ للكثبان عن يساره، بينما ترسم قدماه الخط الفاصل بينهما.

سار سيرًا حثيثًا حتى شارفت الشمس على المغيب، ولم يصادف في طريقه أحدًا، أدركه الليل، فقرر المبيت في رأس الجبل، فارتفع قليلًا حتى عثر على شجرة سدرٍ خضراء كثيفة الأوراق، قد ارتفع جذعها عن الأرض، واستدارت فروعها استدارة كاملة، وزينت أغصانها ثمار النبق الحمراء الشهية.

انشـرح صـدره حـين رأى هـذه السـدرة المثمـرة، وراح يقطـف من ثمارها، وهو يتذكر كلام أمه عن شجرة السدر: ثمارها غذاء، وأوراقها طهارة ودواء، ومن رحيق أزهارها تُخرج النحل عسلًا فيه للناس شفاء، وظلها ملاذ للآرام[1] ومأوى للظباء.

أكل وضاح بشراهة من لم يذق الطعام منذ يومين، وبنهم من يخشى ألا يجده مرةً أخرى، استراح تحت السدرة الكبيرة، وأخذ يتفحص الأغصان السفلى، التي جردتها الظباء من أوراقها.

انتابه شعور جارف بالحنين، أخذ يبث شجونه في فؤاده، ويستولي على مجامع نفسه، آه ليت أمه أخبرته أن الجلوس تحت شجرة السدر يبعث على الحنين أيضًا.. ولكن هذا الحنين لم يكن إلا لأمه، والشوق لم يكن إلا لهفةً لرؤيتها، وحزنًا على فراقها.

يا رعى الله ذلك القلب الحنون وتلك النفس الطيبة، كم كان صدرها جنةً في لهيب الحياة، وحضنها دفئًا في برد الزمان.

و يا سقى الله تلك الأيام الجميلة عندما كانت التسلية كلها حكاية على فمها، والسعادة كلها قصة ترويها.

يا الله! كل هذا الشوق، ولم يمض سوى يوم وليلة، فكيف إذا غاب عنها دهرًا، بل كيف به إذا غاب عنها العمر كله.

انهمرت عيناه، فقام من مكانه، وواصل طريقه نحو القمة.

◈◈◈◈

(1) جمع رئم، وهو الظبي الأبيض الخالص البياض.

لمح ظبيةً صغيرة ترعى أغصان سدرة قريبة فأنس بمنظرها الجميل، وتوقف عن السير، وأخذ يتأملها، تمنى لو أنها تأنس به أيضًا، فهو في أشد الحاجة لمن يؤنسه في هذه البرية الموحشة.

ليتها تعلم ما في قلبه من خلجات الحب البريئة لجمال عينيها الواسعتين، ولروعة جيدها الطويل، ورونق لونها الصافي.

اقترب منها بهدوء، وهو يرجو أن تستجيب لرسائل الاطمئنان، التي يبعثها لها بقلبه وعينيه ويديه.

نفرت الظبية قليلًا، ثم سكنت وأكملت رعيها، بينما تسمّر هو في مكانه، وأوقف نفَسَه، وجعل يتأمل جمالها عن كثب.

يا الله! ما أقسى البشر، وما أشد توحشهم! أيقتل كل هذا الجمال الآسر برمية سهم؟ أم تشوى تلك العين الساحرة بلهيب النار؟

ظل ساكنًا مكانه حتى ظن أنها قد اطمأنت إليه، فتقدم نحوها بخفة، فلما آنست حركةً من جانبه، قفزت إلى السماء، ثم أطلقت ساقيها للريح دون أن تنظر إليه، وتركته يضرب كفًّا بكف حسرةً وندامة.

ليتها نظرت إليه على الأقل، فربما رأت فيه إنسانًا مختلفًا، يقدر جمالها، ويرعى ذِمامَها، ولكن غلب عليها ما عهدته من شراسة طباع البشر، فلم تشأ المغامرة بنفسها.

◈◈◈◈

كان الليل هادئًا، والريح ساكنة تمامًا، مثل وضاح الذي وطن نفسه على أن يكون جزءًا من الطبيعة، يتحد معها، ويندمج فيها، فلا معنى لشعور الخوف أو الرهبة، ما دام أنه يرتمي في حضن أمه الأصلية التي بدأ منها وإليها يعود، ولا معنى للشعور بالوحدة ما دام أنه يعيش بين أشقائه القدامى، الذين بقوا على حالتهم الأولى. لم تعد الصخرة مثالًا على القسوة والجمود، بل أصبحت رمزًا للأصالة والثبات.

وصل إلى ذروة الاندماج، عندما استأنس بعواء الذئب، الذي افتقده أول الليل، لما كان القمر يبعث نوره الفضي الخافت.

هل يعوي الذئب خوفًا منه واستنكارًا لوجوده؟ ليت الذئب يحس بشعور الإخوة الحانية، الذي يداعب قلبه، ويسري في أعماق نفسه.

تمنى لو يستطيع إرسال هذه الرسالة الحالمة إلى كل من يستنكر وجوده في هذا المكان القفر، ولكنه تعلم من هروب الظبية: أن قرونًا من الشك وأجيالًا من العداء لا يمكن أن تمحوها رسالة تطمين واحدة.

غفى غفوةً يسيرة، ثم استيقظ آخر الليل، وقد اقترب منه عواء السباع، وتزايدت وتيرته.

تسللت الرهبة إلى قلبه، وبدأ الخوف يسيطر على مشاعره، حاول أن يستعيد شيئًا من شعوره السابق بالاتحاد مع الطبيعة، فلم

يستطع ذلك، ليكتشف أن ذلك الشعور ما كان إلا تجليًا، أرادت نفسه أن تتخلص به من إحساس الغربة، الذي لازمه منذ أن فارق مأرب.

انبلج الفجر، فنزل وضاح من الجبل، وأكمل مسيره جهة الجنوب، لم يلبث أن عثر على غدير صغير، قد كدرت ماءه السباع، فأغمض عينيه، وأغلق أنفه، وشرب حتى ارتوى.

بدأ الخوف يتسلل إلى نفسه حين انتصف النهار، ولم يصادف أحدًا، حدثته نفسه بالعودة من حيث جاء، لكنه أصر على إكمال الطريق، وأسرع في مشيه قليلًا حتى هوى على وادٍ واسع كثير الشجر، اطمأنت نفسه، واستعاد ثقته حين رأى آثار الماشية على بطحاء الوادي.

◈◈◈◈

لم يبرح مكانه بعيدًا حتى لقي أحد الرعاة قائلًا تحت دوحةٍ كبيرة تحيط به غنمه القليلة. فرح وضاح به فرحًا شديدًا، وتقدم إليه مُسلِمًا، فرحب الراعي به، وعلى وجهه علامات التعجب والاستنكار من رؤية هذا الفتى الغريب في مثل هذا المكان النائي.

وسرعان ما أدركه كرم العرب وأريحيتهم للضيف، فبسط رداءه، وقدم له ما لديه من تمر وأقط، ثم قام إلى قربته التي علقها على فرع الشجرة، وسقاه ماءً باردًا.

أحس وضاح بنوع من الألفة مع هذا الراعي الكريم، الذي يقاربه في السن، فانبسط له في الحديث، وأخبره أنه قادم من مأرب، بحثًا عن عمل يكفيه مؤونة العيش.

أصغى الراعي إلى حديثه بكل اهتمام، وقد بدا الذهول على ملامحه الطفولية، التي لفحتها سموم الصحراء، ثم قال لوضاح: أتدري أنك أغرب رجل لقيته في حياتي.

لماذا؟ قالها وضاح، وعلامات التعجب بادية على وجهه.

أجاب الراعي بسخرية: أنا أحاول منذ زمن أن أقنع أمي ببيع غنمنا والنزول في مأرب بحثًا عن حياةٍ كريمة، وأنت تتركها وتجول في البوادي طلبًا للرزق، كيف تضيق مدينةٌ كبيرة كمأرب على شابٍ مثلك؟

رد عليه وضاح بهدوء: لأن الناس أصبحوا كلهم على مثل رأيك، كلٌّ يريد أن يتخلى عن ماشيته ويهجر مزرعته، ليستقر في المدينة، فغلت الأسعار، وازداد التنافس، وعم الاحتكار، وإلا فمن يتخيل أن يضطر والدي لنحت الصخور، لكي يبني لنا بيتًا صغيرًا في عرض الجبل، ويصل الأمر بأمي أن تدور على بيوت جاراتها تسألهن اللبن لرضيعها الجائع.

ضحك الراعي ببلاهة، وأخذ يشير إلى الجبل، ويقول: هو ينحت الجبل. وهي تسأل اللبن!! أمجنون أنت؟

أجاب وضاح بحزم: لست بمجنون، ولكنها المدينة التي تنوي أن تبيع لأجلها كلَّ ما تملك.

استحيا الراعي، ثم قال: اعذرني، فأنا لا أتصور أن يحتاج أحدٌ إلى مثل هذا، والصحراء الشاسعة تحار فيها القطا، وتكِلُّ فيها النجائب[1].

ابتسم وضاح قائلًا: دعك من هذا، وأخبرني عن هذا الوادي، فلعلي

أن أجد طلبتي فيه.

أجاب الراعي: هذا الوادي غريب كغرابة أهله، فهو مقسوم بين الرعاة والفلاحين، لنا أعلاه ولهم أسفله، فنحن نمنعهم من الزراعة لدينا، وهم يمنعوننا من الرعي قرب مزارعهم.

قال وضاح: زدني من أخبار الفلاحين، فلا حاجة لي بالرعي وأهله.

أجاب الراعي: ثمة عدد من المزارع أسفل الوادي، ولكن أغلبها صغيرة الحجم، يقوم على أمرها فلاحٌ واحد، ولا أخالك تجد عملًا إلا عند رجلٍ واحد، يقال له مُـرّة، فمزرعته كبيرة، ولديه عدد من الآبار، ولكنه شرس الطباع ضيق الصدر، لا يحتمل من أحد هفوةً، ولا يغفر له زلةً، وأولاده سيف وجبار قد أرعبا أهل

(1) جمع نجيبة، وهي الناقة القوية السريعة، تكل أي تتعب من السير.

هذا الوادي من شدة البطش والجبروت، وأذكر مرةً أن عنزًا دخلت مزرعتهم، فأكلت شيئًا من الزرع، فذبحها مُـرَّة وأولاده وأكلوها، وعندما جاء الراعي يسأل عنها، ربطوه في العراء أيامًا عدة، حتى طال الزرع ثم أطلقوه، وقد تصلبت رجلاه من القيد.

صمت وضاح برهة، وهو يتأمل كلام الراعي، الذي يبعث على خيبة الأمل، ثم نهض بسرعة، وودع الراعي الذي حاول أن يثني عزمه عن الذهاب، ولكن دون جدوى.

◈◈◈◈

أسفل الوادي.. حيث تتباعد الجبال لتفسح المجال لعدد من المزارع المتناثرة هنا وهناك على ضفتي الوادي الرحيب، لا يفصل بينها سوى أسوارٍ قصيرة من جرائد النخل، قد دفنت الريح أسافلها، بينما بقيت أعاليها تتمايل طربًا، كلما عزفت الريح لحنها السرمدي.

وعلى قلة هذه المزارع وصغر حجمها، إلا أن رؤية اللون الأخضر في وسط الصحراء القاحلة يبعث في النفس شعورًا رائعًا بنبض الحياة وجمالها، لا سيما والسماء تتزين بأسراب من الحمام الأبيض، الذي ينتقل من مزرعة إلى أخرى بكل حريةٍ وسلاسة.

مشى وضاح برفق وهو يلتفت يمنة ويسرة، تقدم قليلًا فلم يرَ سوى عجوزٍ تضع الحب للدجاج داخل إحدى المزارع، توقف برهة

ينظر إليها بينما انهمكت هي في عملها ولم تتنبه لوجوده، استحيا من الوقوف فواصل سيره بين المزارع.

أهلاً بالفتى!! صوت غليظ جاءه من جانب الطريق.

التفت إلى مصدر الصوت، فإذا شيخ قصير القامة، ممتلئ الجسم، يكاد شاربه الأبيض أن يصل إلى أذنه. ارتاع وضاح لمنظره، وارتبك في مشيته، حتى كاد أن يسقط على الأرض، ابتسم الشيخ، وأعاد التحية مرة أخرى، فأجابه وضاح بصوت ضعيف: أهلاً بك.

تقدم إليه الشيخ وصافحه، ثم أمسك براحة يده، وجعل يتفحصها ويقول: يدٌ خشنة.. ساعدٌ قوي... هذا ما أبحث عنه.

انذهل وضاح وعقدت المفاجأة لسانه، فلم يدر ما يقول، بينما ظل الشيخ ممسكًا براحة يده.

من أين جاء الفتى؟ قالها، وهو يحد النظر في وجه وضاح.

من مأرب. أجابه، ثم أنزل رأسه، وأشاح بوجهه خجلًا من تحديق الشيخ المستمر في وجهه.

شيءٌ غريب! المدن هذه الأيام لا تخرج شبانًا أقوياء مثلك، بل غلب على أهلها الترف والنعومة، لكن قل لي ماذا كنت تعمل هناك؟

كنت حجارًا أقطع الصخور من الجبل وأبيعها في المدينة. قالها بشيء من الثقة.

أووه! مهنةٌ شاقة، لا يصبر عليها إلا من كانت إرادته أصلب من الحجارة التي يقطعها، وعزمه أمضى من القَدُّوم الذي يحمله.

لاذ وضاح بالصمت، وأخذ يهز رأسه مبديًا الموافقة.

أفلت الشيخ راحة يده، وأمسك بعضده الأيمن، ثم قال: ألا تريد عملًا أسهل من قطع الحجارة، ولكنه أكثر ربحًا وأعظم فائدة؟

انفرجت أسارير وضاح، وتهلل وجهه، فقال بلهفة: أجل يا عمّاه، والله ما خرجت من بلدتي إلا لهذا، وما ظننت يومًا قط أن الحظ يسعى معي ويسير في ركابي، أما اليوم فقد هيأ لي مطلوبي حتى قبل أن أطلبه، فأخبرني عن أي عمل تتحدث؟

رد عليه الشيخ: ليس الخبر كالعيان، فتعال معي لترى العمل بأم عينك.

◈◈◈◈

أمسك الشيخ بيد وضاح، ومضى به إلى مزرعته، التي تقع في الجهة المقابلة من الوادي، تجاوز المزارع كلها، ثم قطع بطن الوادي، وهو يلاطف وضاح، ويسأله عن أخبار مأرب، وعن أحوال الناس هناك.

أشار الشيخ إلى مزرعته الكبيرة، التي يحيط بها سور حجري طويل، يمتد من ضفة الوادي إلى سفح الجبل، ثم قال بشيء من الفخر: إنها أكبر المزارع في هذا الوادي، وأكثرها إنتاجًا.

خفق قلب وضاح، وتغير لونه، عندما تذكر كلام الراعي عن شراسة مُرّة، فتلكأ في المشي قليلًا.

التفت إليه الشيخ قائلًا: ما الذي حل بك؟

وقف وضاح مكانه، وسأله بارتباك: أأنت مُـرَّة؟

رد الشيخ بغضب:نعم أنا مُـــرَّة! ماذا سمعت عني؟ لعلك قد مررت بأحد أولئك الرعاة، فحدثك عن قسوتي، وعن جبروت أولادي؟

تلعثم وضاح، وارتبكت الحروف في فمه، ثم قال بصوت ضعيف: نعم.

صرخ الشيخ بغضب: تبًّا لهؤلاء الأوغاد، الذين ما فتئوا يشوهون سمعتي وسمعة أولادي، حتى خاف الناس مني، وابتعدوا عني، فلم يعد أحدٌ منهم يرغب في معاملتي، أو يريد العمل عندي.

هدأت ثائرته قليلًا، فاستطرد قائلًا: يا بني، إن الغنم- بالنسبة لنا معشر الفلاحين- هي ذئاب الزرع، بل هي أشرس، ولكن الرعاة لا يفهمون هذا، ولا يقدرونه حق قدره.

هز وضاح رأسه إعجابًا بمنطق الشيخ، وقال بدهشة: فعلًا، إنها ذئاب الزرع.

اقترب منه الشيخ، وقال بهدوء: تخيل يا بني لو أن أحدًا من الفلاحين استطاع أن يربي قطيعًا من الذئاب، ثم مر به على

حظائر أغنامهم، فانفلت منه ذئب واحد، ودخل الحظيرة فعاث في الغنم فسادًا، ثم أمسكه الرعاة، فماذا عسى أن يصنعوا به؟ أينتظرون صاحبه حتى يقدم عليهم، فيسلمونه إياه ليرجعه إلى القطيع؟ كلا والله.

ابتسم وضاح، وقال: صدقت يا عمّاه.

أمسك الشيخ مرة بيد وضاح، وسار به نحو المزرعة، وهو يقول: يا بني لقد علمتني الأيام أن استيفاء الحقوق أقطع للخصومة، وأشفى لغليل الصدور، لقد كانوا يتجرؤون عليَّ عندما كنت أعاملهم بالعدل، فما ارتدعوا حتى ظلمتهم، كما كانوا يظلمونني.

كيف كان ذلك؟ سأله وضاح سؤال المتعلم.

أجاب الشيخ: كانت الشاة تدخل إلى مزرعتي، فتأكل الزرع، فاحتلبها حتى يطول الزرع، ثم أردها لصاحبها، فما أغنى عني ذلك شيئًا، ثم حدث مرة أن دخلت إحدى الشياه، فعاثت في الزرع وأفسدته فسادًا كبيرًا، ولم يكن فيها لبن، فلم أجد بُدًّا من ذبحها وأكلها عوضًا عما أفسدت، ثم جاء الراعي فاستطال عليَّ، وشتمني أمام أولادي، فأمسكوا به وقيدوه، حتى طال الزرع ثم أطلقوه، وما فعلت هذا إلا مرةً واحدة، فما دخلت عليَّ شاةٌ بعدها.

2

يا لعظمة هذا السور! كيف استطاع أن يستر هذه الجنة الساحرة، ويخفي كل معالمها خلف حجارته المتراصة، التي جمعت بتناسق وإحكام، حتى صار كأنه قلعة من قلاع قوم عاد، أو حصن من حصون تُبَّع[1].

تجاوز وضاح عتبة الباب الخشبي الكبير، ثم توقف في بهو الحديقة، بينما سبقه الشيخ مرة، ودخل منزله الذي يقع في أقصى الزاوية اليمنى، وتطل شرفاته على الوادي الفسيح.

لم يدرِ وضاح إلى أي جهة يطلق العنان لبصره، أينظر إلى أشجار الرمان الخضراء، التي تتباهى بأزهارها الحمراء الجميلة، أم إلى أشجار النخيل الباسقة التي أثقلتها عذوق البلح الأصفر، أم يتجه نحو الكروم اليانعة التي تلتف أوراقها الكبيرة على أنضاد الخشب المرفوعة.

أما سمعه فقد كان أكثر حيرةً من بصره، إذ لم يعد يميز بين أصوات الطيور المتداخلة، وبين شقشقة العصافير المتواصلة.

استرعى انتباهه منظر تلك الحمامة الصغيرة التي لا تستقر في مكانها ولو لحظةً واحدة، بل تنتقل من فرعٍ إلى فرع، ومن شجرةٍ إلى شجرةٍ أخرى.

---

(1) أحد أعظم ملوك اليمن، اشتهر ببناء الحصون والقلاع.

أخذ يراقبها ويتعجب من حركتها الدائبة، طارت الحمامة بخفة وأخذت ترفرف حوله، وتنشر أجنحتها البيضاء فوق رأسه، وكأنها ترحب بمقدمه وتحيي طلعته، استقرت الحمامة أخيرًا فوق غصنٍ من غصون الرمان الخضراء اليانعة، ضمت جناحيها برفق، وسكنت حركتها، وجعلت تُسرِّح ريشها بمنقارها.

خطر لوضاح وهو يتأمل الحمامة أنها تشبهه تمامًا، فهي بيضاء ناصعة البياض مثل روحه الشفافة المرهفة، وهو قد اعتاد التنقل والارتحال مثلما كانت قبل قليل في طيرانها، وتنقلها من غصنٍ إلى غصن، أما سكونها واستقرارها، فهو فألٌ حسن وطالع خير، يبشر بأن عصا السفر والترحال ستلقى عمّا قريب في هذه الجنة الغناء عند هذا الشيخ الحازم الحكيم.

لم يكمل وضاح خاطرته حتى انقض على الحمامة صقر جارح أنشب مخالب الموت فيها، ثم طار بها إلى جو السماء، وهي تضطرب اضطراب الذبيح بين منقاره المعكوف ومخلبه الجارح. حدث هذا كله في لحظةٍ خاطفة أمام ناظري وضاح الذي أخذته المفاجأة، وحبست أنفاسه، فلم يحرك ساكنًا سوى شهقةٍ خانقة، جاءت من أقصى جوفه، بينما بقيت عينه تراقب بحسرة فتات ريشها المتناثر في كل مكان.

يا لله! أهذا فأله الذي ينتظره؟ أهذا طالع سعده الذي كان يرجوه ويؤمله؟ ألا يكفي ما لحق بروحه من لوعة الشتات وألم النوى

في ريعان شبابه. ألا يجود له هذا الحظ العاثر ولو بلحظة صفاء واحدة، تنعم بها روحه وترتاح بها نفسه، أم أن النحس والشقاء قد صار عليه ضربة لازب[1].

يا ويح ذلك الصقر! ليته يدري أنه لم يختطف حمامة فحسب، بل سرق حلمًا جميلًا، بدأ يراود نفس وضاح، ويداعب روحه، ويَعِده بحياة جديدة في هذا المكان الرائع.

لكن! لـِمَ كل هذا التشاؤم؟ وعلامَ هذه الطيرة؟ وما حدث لا يعدو كونه مشهدًا مألوفًا يتكرر في الطبيعة كل يوم، وهذه الحمامة الصغيرة إنما اضطربت، لأنها كانت تشعر بوجود الصقر في الأجواء، ولولا ذلك ما انتبه لوجودها أصلًا. أم أنه داء التأمل الذي ينتاب عقله فيذهله عن واقعه، ويصور له في كل منظر خيالًا ترسمه أمنيات روحه الحالمة.

هيـــــه! أين ذهبت بك الأفكار يا فتى؟ صاح به الشيخ مُرَّة الذي خرج من بيته يحمل حزمة كبيرة من الحبال الملتفة.

أووه! نسيت أن أسألك عن اسمك.

أنا... اسمي وضاح.

اسم جميل يشف عن الصدق والوضوح، لقد أحسن أبوك حين سماك بهذا الاسم، فكل له من اسمه نصيب.

---

(1) أي لازم وثابت، لا يفارقه.

ابتسم وضاح، وقال في خجل: في الحقيقة إن من سماني ليس أبي، وإنما كانت أمي.

مسح مرة على شاربه الطويل، وقال: توقعت هذا حين سمعت الاسم، فمن يعاني نحت الصخور لا يمكن أن يسمي ولده بهذا الاسم الناعم!

أطرق وضاح خجلًا، ولم يرد عليه، فأحس الشيخ أنه قد أحرج الفتى اللطيف بهذا الكلام، فقال على هيئة المعتذر:

كم تمنيت لو أن والدي أطلق عليَّ اسمًا جميلًا مثل اسمك، بدلًا من مُـــــرّة، ولكن أتدري لـمَ سمّاني أبي بهذا الاسم؟

أجاب وضاح بهدوء: لا.

نظر الشيخ إلى الأفق البعيد، ثم قال: عندما اقتطع والدي هذه الأرض وأصلح من شأنها حسده نفر من قومه وبغوا عليه، فناصبهم العِداء وتكنى بأبي مُـــــرّة لكي يرهبهم، ويدخل الرعب إلى قلوبهم، ولم أكن قد ولدت بعد، فلما خرجت إلى الدنيا وجدت اسمي قد سبقني إليها.

استطرد الشيخ قائلًا: وعلى أي حال فهذا أمر قد ولى زمنه وانقضى أوانه، فلنعد إلى ما جئنا من أجله، أترى هذه الحبال الغليظة؟ إنها حبال الدلاء التي نسقي بها، وقد أصلحتها ابنتي لبنى بعد أن تفصمت[1] عراها، فاحملها على ظهرك واتبعني.

---

(1) تقطعت.

تجاوز الشيخ أشجار النخيل والرمان، ومشى حتى اقترب من الجهة الأخرى لسور الحديقة، ثم توقف عند فوهة بئر مطوية، قد انتصبت فوقها محالة[1] خشبية، قد ركبت أعوادها بتناسق وإحكام.

جلس الشيخ عند جدول الماء، ثم أمسك بطرف الحبل وربطه بعرى الدلو الكبير، ثم لفه حول المحالة بخفة ومهارة، وألقى بالدلو في قعر البئر، بينما بقي وضاح صامتًا يراقب حركات الشيخ، وقد عرف جيدًا ما هو المطلوب منه في هذه المزرعة الكبيرة.

أشار إليه الشيخ مرة أن يجذب الدلو من البئر، ثم يفرغها في الساقية، فجذبها وضاح بكل خفة وبراعة، فمن قاسى تقطيع الحجارة وحملها منذ نعومة أظفاره لن يعجزه حمل الدلو، وتصريف الماء في السواقي، وربما كانت هذه هي المرة الوحيدة التي يذكر فيها وضاح حسنةً من حسنات مهنة والده القاسية، فقد علمته الصبر والجلد، وزادت من قوة جسده، وشدّت عضده وساعده.

جلس الشيخ على طرف الجدول، ثم قال: إيه! منذ أن كبر ولداي سيف وجبار لم أحتج إلى أحدٍ قبل هذه المرة.

أحس وضاح وكأن في كلام الشيخ شيئًا من الحسرة، فأراد أن يسأله عن ولديه، ثم تذكر كلام الراعي فقرر السكوت. قام

---

(1) المحالة: آلة خشبية على هيئة عجلة مستديرة، يلف حولها حبل الرشاء، لتسهيل جذب الدلو من البئر.

الشيخ يتهادى ببطء نحو بيته، بينما بقي وضاح يرقبه حتى توارى خلف الكروم المتلاصقة. تجول ببصره في أرجاء المزرعة الواسعة، وهو يستعيد كلام الشيخ، لا يدري لِـــــمَ رقص قلبه عندما خطر اسم «لبنى» على ذاكرته.

انهمك وضاح في عمله الجديد، الذي يستهلك جلّ وقته، وسرعان ما أدرك أن سقي هذه المزرعة الكبيرة والقيام بشؤونها لا يقل مشقةً وجهدًا عن تقطيع الحجارة وحملها، ولكنه لم يتأوه يومًا قط، ولم يتذمر لحظةً واحدة، ولا يدري أكان هذا حبًّا للمزرعة أم حبًّا لأهلها؟

بنى له الشيخ مُرة عريشًا صغيرًا من جرائد النخل في طرف المزرعة، وكأنه يغريه بالبقاء أطول مدة ممكنة لِما رأى من إخلاصه وحسن أدبه. وبالفعل لم يزده مرور الأيام وتوالي الأشهر إلا حرصًا على وضاح واقتناعًا به.

3

بضع سنوات مرت وكأنها ومضة برق خاطفة، أتقن وضاح فيها كل شيء ما عدا السيطرة على خياله الجامح، الذي كان كثيرًا ما يذهله عن واقعه، ويغوص به عميقًا في بحر التأمل، وربما أوقعه في شيء من الحرج مع الشيخ مُرّة أو مع زوجته، وأحيانًا مع لبنى التي كانت تسخر من شرود ذهنه وغفلته.

ومع هذا فقد استطاع أن يكتسب ثقة الشيخ، وينال رضاه بحسن أدبه وتفانيه في عمله. لم يشعر وضاح يومًا أنه مجرد عامل يتقاضى أجرًا على عمل يؤديه، بل كان يخدم الأسرة كما كان يخدم أبويه من قبل.

شيء آخر لم يستطع وضاح أن يسيطر عليه أو يتحكم فيه، قلبه الذي بدأت سوانح الحب تتسلل إليه منذ أن رأى لبنى أول مرة، وقد اكتسى قوامها المياس بحلة الشباب النضرة، ومنح الورد خديها الناعمين حمرةً فاتنة، تسبي القلوب وتأسر الأفئدة، بينما تتجلى الطفولة الغضة في ضحكاتها الجميلة ولهوها البريء، وكأنما هي فراشةٌ زاهية تتجول بين أزهار الحديقة الغناء.

اعتاد وضاح أن يسقي المزرعة كل يوم، ثم يعود إلى عريشه المسقوف بجرائد النخل في الجهة المقابلة لمنزل الأسرة، وما أن يجن الظلام ويسود الهدوء أرجاء المكان، حتى يعزف الحب لحنه الشجي في أوتار قلبه المرهفة، فتتراقص المشاعر نشوةً وطربًا.

ما أحلى الحب، وما أروع لحنه، عندما يتردد صداه في حجرات القلب الخالية لأول وهلة، إنه- بلا شك- أعذب من قطرات المطر، وأجمل من حديث السحَر.

كان طيف لبنى خيالًا لذيذًا، يزوره كل ليله، فيؤنس فؤاده ويسلي روحه، وينسيها ما لحق بها من عذاب النوى وألم الفراق.

ولكن الحب ما لبث ينمو ويزيد، حتى تمكن من مقاليد فؤاده، واستولى على كوامن نفسه، فلم يعد يتخيل فراقها أو البعد عنها، وربما زاد في ساعات عمله، لكي يحظى منها بنظرةٍ خاطفة أو كلمةٍ عابرة، يعيش على ذكراها ليلةً كاملة.

أحاديثها القليلة يحفظها كلها عن ظهر قلب، ضحكاتها الجميلة يستعيد مشهدها كل مرة.

وما أشد سعادته عندما تنقل إليه أمرًا من أوامر أبيها أو طلبًا من طلبات أمها، فيبادر إلى تنفيذه سمعًا وطاعة لرسول الحب، ليتها تعيد حديثها مرارًا أو تأتي كل ساعة بأمر جديد.

◈◈◈◈

ولكن.. ما أقسى الحب حين يكون هم العاشق أن يداري هواه، ويكتم حبه عن جميع البشر حتى عن محبوبته، التي تراها عينه كل يوم، ولا تغيب عن خاطره لحظةً واحدة.

وما أشد مرارة الحب عندما يكابد المرء هواه، ليخفيه في مكنون فؤاده، ويدفنه في ثرى صمته، ويخفي معالمه وآثاره، فلا تفضحه عين ولا ينم عنه لسان.

وهكذا هو الحب دائمًا، حلو ومر، نعيم وشقاء، راحة وعناء.

يا ويح سلطان الهوى الذي استولى على عرش قلبه، ألا يصعد قليلاً فيمتلك زمام عقله، لكي ينطلق لسانه فيبوح لها بشيء من أشجان الحب وأسراره.

ليته يفعل ذلك ليريح نفسه من سؤالٍ ألح عليه طويلاً، حتى برى كبده وأكل فؤاده: هل تدري بحبه لها؟ هل تبادله حبًّا بحب؟ أم أن قلبها لا يزال في جلباب الطفولة؟ ماذا لو كانت تنظر إليه نظرة السيد لمولاه ولا تراه سوى أجيرٍ عامل عند أبيها؟

كثيرًا ما يهزه الشوق، ويحدوه الهوى، لئن يبث لها بعضًا مما يجد من نار الجوى[1]، ولكنه سرعان ما يراجع عقله، ويتذكر حدة الشيخ مرة وشراسة أبنائه، فينثني خشيةً وحذرًا، وهو يلوم نفسه على لهفتها وتعجلها، الذي قد يؤدي إلى حرمانه من كل ما يتمنى.

◇◇◇◇

الآن، وبعد كل هذه السنين أصبح يدرك جيدًا أن مكانته عند الشيخ مرة وزوجته قد تجاوزت حد الأجير إلى مكانة الابن الحاني، ومع ذلك فقد كان في غاية الأدب والتحفظ، لدرجة أنه لم يتجرأ يومًا أن يسألهما عن سبب غياب أبنائهم الطويل.

---

(1) شدة العشق وما تورثه من هم وحزن.

كان غياب سيف وجبار معًا لغزًا محيرًا، يدور في مخيلة وضاح منذ أن وطئت قدماه هذه المزرعة، لم يهتدِ إلى حله، ولم يحبذ السؤال عنه.

طوال سبع سنوات لم يرهما إلا مرات معدودات، يأتي أحدهما وحده، ويمكث قليلًا عند أبيه وأمه، ثم ما يلبث أن يرتحل فجأةً، فيغيب زمنًا طويلاً، حتى عندما اجتمعا عند والدهما وقت الحصاد كانا صامتين طوال الوقت، لا يتحدثان إلا على انفراد.

والأغرب من هذا أنه لم يسمع قط أي اعتراضٍ على رحيلهما، على الرغم من تعلق الأسرة بهما وشدة حاجتها لهما، ليس ثمة سوى زفرات حرَّى، تنفثها والدتهما الكبيرة بين الفينة والأخرى، أو بضع دمعات تكفكفها لبنى عند رحيل أحدهما أو استقباله، أما مُرّة فكان يبدي الصبر والتجلد، ولا يبوح بمشاعره لأي أحد.

ذات مساء قدم سيف وجبار سويًا على غير عادتهما، فلما دخلا المزرعة توجها مباشرةً نحو وضاح، الذي كان يصلح ساقية الزرع، سلما عليه سلامًا حسنًا، واعتنقه كل واحدٍ منهما، ثم أشار سيف نحو الزرع، وقال لأخيه: لقد تحسن كل شيء في مزرعتنا بعد قدوم وضاح.

هز جبار رأسه، وربت على كتف وضاح، وهو يقول: هذا صحيح، وقد سمعت أبي يثني عليه مرارًا، وأراه أهلًا للثناء.

ابتسم وضاح خجلًا من ثنائهما عليه، فأخذ يمسح العرق عن جبينه، وهو يحاول لملمة كلماته، لم ينتظر سيف وجبار جوابه، بل ودَّعاه بحرارة وانصرفا نحو بيت والدهما.

بقي وضاح حائرًا في مكانه، لا يدري من أين أتاه الأمر، لقد كانت مفاجأةً لم تخطر له ببال، فهذه أول مرة يأتيان معًا في غير وقت الحصاد، ولم يسبق لهما أن تحدثا إليه من قبل، فضلًا عن السلام الحسن أو العناق الحار، أما اليوم فهما يثنيان عليه، ويربتان على كتفه أيضًا.

مسح العرق عن جبينه، وأكمل عمله، ثم آوى إلى عريشه، وهو يحاول تفسير ما حدث دون أن يصل إلى نتيجة حاسمة.

أهي أحجيةٌ جديدة تضاف إلى لغز الغياب الغامض؟ أم أنها يقظة ضميرٍ عارضة، تجاه من يقوم على شؤون أسرتهم، ويدبر أمور مزرعتهم؟

ألا يحتمل أنهما يضمران له شرًّا، فأظهرا خلاف ما يبطنان؟ ألم يحذره الراعي من هذه المزرعة وأصحابها من قبل؟

لا بد أن وراء الأكمة ما وراءها[1]، والزمن كفيل بكشف المخبئات، لا سيما وقد تسارعت الأحداث وتوالت المفاجآت.

◇◇◇◇

---

(1) مثل عربي يعبر به عن الأمر المريب أو المكيدة، التي تختفي خلف الستار، والأكمة هي التل المرتفع.

ضاقت نفسه قليلًا ، فخرج من عريشه، وقد أطبق الليل البهيم بظلامه فعم الهدوء وساد الصمت، استند على الجدار، وجلس واضعًا خده بين كفيه، وعينه على البيت الذي تنبعث من ناحيته هينمة[1] أصواتٍ لا يكاد السمع يميزها، بينما يلوح من إحدى نوافذه ضوءٌ خافت يخبو سناه تارة، ويبدو تارة أخرى.

ارتفعت الأصوات فجأةً، وعلا معها نحيب حزين، فقفز وضاح من مكانه، واقترب من البيت بحذرٍ وخفية، وقد غلبه الفضول فأرخى سمعه ليتبين حقيقة ما يجري.

تراجع للوراء، وقد داخله رعبٌ شديد، عندما سمع اسمه يتكرر مرتين أو ثلاثًا وسط الأصوات المتداخلة. وقف على باب العريش، وهو ممسك بطرف إزاره، وأخذ يرقب المشهد بصمت حذر.

هدأت الأصوات، وانطفأ النور، وخيم السكون مرة أخرى على أرجاء المكان، إلا في نفس وضاح، الذي بقي مستيقظًا حتى الصباح.

نهض متثاقلًا يجر خطاه نحو شجرة رمانٍ كبيرة، قد التفت الفروع المتطفلة حول جذعها، أخذ المنجل، وقام يشذب فروعها، وقد أنهكه السهر، ولعبت برأسه الظنون طوال الليل.

---

(1) هينمة: صوت خفي لا يفهم.

فُتِح باب البيت بقوة، وخرج سيف وهو عابس الوجه ثائر الرأس، واتجه نحو وضاح، اضطرب وضاح، فسقط المنجل من يده، وهمّ بالهرب، تماسك قليلًا، وثبت في مكانه، وهو يستعرض تاريخه منذ أن لقي الشيخ مرة في الطريق إلى هذه اللحظة الحرجة، لم يجد ذنبًا يستحق العقاب عليه سوى الحب! ولكن حبه مكنون في سويداء قلبه، ولم يطلع عليه أحد.

أقبل سيف يتهادى ببطء، وقد انحسر الرداء عن منكبه الضخم، ثم لحق به جبار لابسًا عمامته السوداء متقلدًا سيفه.

دارت الدنيا برأس وضاح، وأوشك على الانهيار، وبدت على وجهه علامات الذعر.

نظر إليه سيف ثم ابتسم ابتسامةً صفراء، وقال: ما الذي دهاك؟ لـمَ كل هذا الارتباك؟ وعلامَ كل هذا الخوف؟

أجاب وضاح وهو يتظاهر بالهدوء، ويتصنع الثقة: لست خائفًا ولا مذعورًا، ولكن ربما بدا التعب والإرهاق على جسدي بسبب العمل المتواصل، فهذه المزرعة الكبيرة تحتاج إلى ثلاثة رجال على الأقل، ولا أزال أعمل فيها بمفردي منذ أن قدمت إليها.

تريث سيف قليلًا حتى وصل جبار، ثم أمسك بيد وضاح، وقال: هَوِّن عليك، فنحن نقدر لك ذلك، ونعلم مدى حبك وإخلاصك لوالدنا الشيخ مرة، ولولا ذلك ما قدمنا إليك أنا وأخي، نطلب منك حاجةً لم يسبق أن طلبناها من أحد قط.

أجاب وضاح وقد استعاد شيئًا من ثقته بنفسه: أي حاجةٍ تريدون؟

رد عليه جبار باهتمامٍ بالغ: لنجلس تحت هذه الشجرة، فهذا أمر يطول شرحه.

جلس الجميع، ثم استطرد جبار قائلًا: أنا وأخي سيف قد أزمعنا على الرحيل، ولن نعود هنا قبل خمس سنوات، وربما طالت بنا الرحلة لأكثر من ذلك، ونريد منك عهدًا صادقًا تقطعه على نفسك بأن تبقى مع والدي طوال هذه المدة.

هز وضاح رأسه، ثم قال: ولكن لـِمَ كل هذا الغياب؟ وكيف تتركان أبويكما في هذه السن المتقدمة؟ إني لأشفق عليهما مما يجدان من ألم الفراق ومضض الفقد على كبر السن وضعف الحال، خصوصًا والدكما الشيخ مُـرّة الذي يعاني ألم الغياب، ويكابد مرارة الصبر والتجلد في الوقت ذاته.

أحس وضاح وكأنه نكأ جرحه بيده عندما تذكر غيابه الطويل عن أسرته، فخفض بصره إلى الأرض، ولاذ بالصمت، بينما رفع سيف رأسه، وجعل ينظر إلى الأفق البعيد، ثم قال بشيء من الحسرة:

إيه يا وضاح.. إنما خرجنا تلبيةً لنداء الوطن وتضحيةً في سبيله، ولولا ذلك لما سرنا قيد أنملة.

فتح وضاح عينيه، وقال بدهشة: وطن! عن أي وطن تتحدث؟

تنهد سيف بعمق، ثم قال:

حقًّا إن أصعب الأسئلة هو أكثرها بداهة، تخيل أن يصل الأمر بنا أن نمشي في مناكبه، وتقلنا أرضه، وتظلنا سماؤه، ثم نتساءل عنه، ولكنني أعذرك في ذلك، فما نحن إلا بضع قرى متناثرة، وبعض القبائل المتناحرة، التي لا يجاوز همها ماءها ومرعاها، ولم يخطر ببالها يومًا أن تبني وطنها الكبير على غرار ما فعلت الأمم من حولنا.

انظر كيف نهض الفرس بأوطانهم، حتى غدت مهوىً للأفئدة وأرضًا للأحلام، وكيف اتحد الروم، وانضوت ممالكهم تحت رايةٍ واحدة، فأصبحوا يبتلعون الأمم واحدة تلو أخرى.

قاطعه جبار قائلًا: إن المخلصين أمثالنا يعملون ليل نهار لبناء هذا الوطن، وما ارتحالنا اليوم سوى تضحيةٍ يسيرة نبذلها عن طيب نفس، حتى أنت إذا وافقت على طلبنا، وخلفتنا في أهلنا تكون مساهمًا في هذه المسيرة.

ما أجمل هذا الكلام الذي ما سمعت بمثله قط، أما خدمة الشيخ مرة فما أراه إلا واجبًا، أقوم به دون الحاجة إلى طلبٍ من أحد. قالها وضاح وقد راق له الأمر كثيرًا.

قبض سيف على يده، وقال بسرور بالغ: رائع! لقد أسديت إلينا معروفًا، لن ننساه لك أبدًا، إننا مضطرون للمغادرة بعد قليل،

ولكن أوصيك بوالدتنا أيضًا، فهي في أمسِّ الحاجة إلى برك ورعايتك، ولا تنس الاهتمام بأختنا الصغيرة لبنى، فهي فتاة طيبة القلب مرهفة الحس.

رقص قلبه فرحًا، فابتسم وقال: سيروا على بركة الله.

ودَّعاه بحرارة، وشكراه بامتنان، ثم حمل كل منهما مزادته، ومضيا سويًّا، فلما وصلا باب المزرعة، اعتنق كل واحد منهما أخاه طويلاً، وعلى غير العادة اتجه سيف نحو الشمال، بينما سلك جبار جهة الغرب.

دخل وضاح عريشه، والدنيا لا تسعه سعادةً وحبورًا، ثم نام ملء جفنيه، وأحلامه الوردية تداعب مخيلته.

4

تسللت شمس العصر إلى العريش عبر بابه الجنوبي، الذي يميل قليلًا نحو الغرب، لتجد وضاح مستلقيًا على بطنه، يغط في سبات عميق. آذاه حر الشمس، فاستيقظ من نومه، وغسل وجهه، وأصلح من هيئته استعدادًا للخروج إلى عمله، نظر مع الباب فإذا هو يرى لبنى، وقد جلست بمفردها مستندة على جدار الحديقة.

تحركت كوامن الحب في نفسه، وهيجت معها مشاعر الشوق والهوى، فمشى نحوها بهدوء، وقد داخلته رهبة شديدة، امتزجت مع ما لديه من لهفة عارمة للحديث معها والقرب منها.

اجتاحت فؤاده موجة عارمة من المشاعر المرتبكة التي سرت في جسده، كما تسري رياح الأعاصير في مياه المحيط المضطربة، تريّث قليلًا عندما وصلت الرجفة إلى ركبتيه، بعد أن كانت حكرًا على قلبه، الذي يمور بالنبضات المتلاحقة.

رفع رأسه ثم نظر إلى لبنى، وإذا هي قد وضعت رأسها على ساعدها وكأنها تبكي، تذكر وصية سيف، فاستجمع قواه، وأكمل خطاه حتى وقف أمامها، أحست بظله، فنظرت إليه خلسةً، ثم أشاحت بوجهها إلى الناحية الأخرى.

ثنى رجله وجلس على ركبته، ثم قال بصوت حانٍ: لبنى!

نظرت إليه بعين باكية، ثم قالت بحزن: وضاح! هل تنوي أن تتركنا، وتمضي إلى حال سبيلك، كما فعل أخواي هذا الصباح.

أجابها بكل رقة ولطف: أنا رهن إشارتك وطوع بنانك، لقد أعطيت أخويك عهدًا: ألا أبرح هذه المزرعة أبدًا حال غيابهما، وأوصياني بك وبأبيك وأمك، أما أنتِ يا لبنى فاشترطي ما شئت من العهود والمواثيق، ولك عليَّ أن أكون وفيًّا لك ما دمت حيًّا.

التفتت إليه، ثم قالت وهي تغالب دمعتها: لقد تركت أمي طريحة الفراش منذ أن علمت بنية سيف وجبار على الرحيل، أما أبي فلا يزال مصرًّا على إظهار الجلد والصبر، رغم أنه أكثر حسرةً، وأشد ألمًا منها، وأنا أخشى أن يتفاقم الأمر، وأبقى وحيدةً هنا.

لبني! لو تعلمين مقدار ما أكنه لك في قلبي منذ زمنٍ طويل لما خطر لك هذا الخوف ببال. أجابها، وهو يحدق في مقلتها الواسعة، وقد سال الكحل من محجرها، ومن طرف لحاظها.

أحست بشيء من الإحراج، فقامت بسرعة، وكأنها تذكرت شيئًا قد نسيته، فقالت وهي مولية: عذرًا، لقد نسيت دواء أمي.

أخذ وضاح يرقبها، حتى دخلت البيت، ثم مضى نحو المزرعة، وهو يرقص، ويختال في مشيته، ويحرك يديه نشوةً وطربًا.

التقط المنجل، وأكمل عمله في تشذيب الرمان، والدنيا لا تسعه من شدة الفرح.

◈◈◈◈

خرج الشيخ مرة من بيته متثاقلًا حزينًا، حتى وقف قريبًا من وضاح، وجعل يراقبه بصمت، وهو يعجب من حذقه وخفة يده.

صاح به قائلًا: وضاح! أرجو أن تكون خيرًا لي من ذانك الولدين العنيدين.

نزل وضاح من الشجرة، وغسل يده، ثم قام يقبل رأس الشيخ، ويقول له بكل أدب: أنا خادمك المطيع يا عم، فارجع إلى منزلك، وخذ قسطًا من الراحة، فقد تعلمت على يديك، حتى أتقنت كل شيء في هذه المزرعة.

أمسك الشيخ بعضد وضاح، ثم ضغط عليه بقوة، وكأنه يريد أن يريه أنه لا يزال يتمتع بقوته وشدة بأسه، ثم قال له:

يا بني! ليس بي وهن ولا عجز، ولكنها خيبة الأمل المريرة التي أصابت نفس شيخ، كشفت له الأيام أنه أساء في تربية أبنائه من حيث يريد الإحسان، وأخطأ وهو يلتمس الصواب، فأصبح يلوم نفسه على تفريطها، كما يلوم أبناءه على تقصيرهم في حقه، ولكنه يغفر لهم الإساءة، ولا يغفرها لنفسه أبدًا، ويلتمس لهم العذر، ولا يستطيع أن يجده لنفسه.

يا بني! لقد أكرهتهم على العمل في المزرعة حتى كرهوها، وأصبحوا يبحثون عن كل فكرةٍ عارضة تشغلهم عنها، ويلتمسون أي عمل يُلهون به أنفسهم، بدلًا من العمل فيها.

أجابه وضاح: هون عليك يا عم، فما علمت عن أولادك إلا خيرًا، ولقد حادثتهم فرأيت عقلًا راجحًا ورأيًا حصيفًا، وأي ضيرٍ في أن يتعلم الأبناء صنعةً جديدة، غير تلك التي يحسنها آباؤهم؟

ابتسم الشيخ بطرف فمه ثم قال: يا بني إن الأبناء إذا تعلموا مهنة آبائهم فأحبوها، ورثوا عنهم حكمةً تراكمت عبر خبرات السنين الطويلة، حتى إذا نزلوا إلى معترك الحياة كانت هذه الحكمة بمثابة الدليل الذي يهديهم، وكان في أيديهم مال يغنيهم وعدة تكفيهم، أما أن يبدأ الابن وهو خالي الوفاض من

أحد الأمرين أو كليهما معًا، فهي مغامرة غير مضمونة النتائج، ومخاطرة غير مأمونة العواقب.

يا بني إن أولئك الأبناء لا يقدرون أن فشلهم سيكون مضاعفًا يجمع بين خسارة الطارف الجديد وضياع الموروث التليد[1].

هز وضاح رأسه إعجابًا بحكمة الشيخ، وقال: الآن فهمت ما ترمي إليه، وعلمت أنه صوابٌ محض، ولكني مع هذا أتعجب أشد العجب، كيف فات هذا الأمر على رجلٍ حكيمٍ مثلك.

أجاب الشيخ: إيه يا بني! إن الحياة لا تلقنك الحكمة تلقينًا، بل تمنحك فرصة التجربة، ثم تخفي لك الحكمة في ثناياها، فإن فطنت لها وعملت بمقتضاها، تكشفت لك وجوه الحقائق، وفقهت مآلات الأمور قبل وقوعها، وكنت جديرًا بأن تسمى حكيمًا، أما أنا فقد تعلمت الحكمة بعد فوات الفرصة، وعرفت العاقبة بعد وقوع النائبة، فقصارى الأمر أن أسمى عاقلًا.

وعلى أي حال فإني أرجو أن يعوضني الله بك، وبابنتي لبنى خيرًا، أما ولداي، فما أظنهما سيعودان من سفرهما هذا أبدًا.

ضرب الشيخ مرة كفًّا بكف، ثم ولى نحو بيته، ولم ينتظر جوابًا من وضاح.

◈◈◈◈

---

(1) الطارف: المال المستحدث الجديد، أما التليد فهو الأصيل القديم.

عاد وضاح إلى عمله بكل همةٍ ونشاط، وجعل ينتقل من شجرة إلى أخرى، وكأنه يسابق الزمن قبل حلول الظلام.

داعب مخيلته شعورٌ حالم، سرى في أعماق نفسه، أنها السعادة الغامرة بتحقق الأحلام، التي كانت قبل أيام قلائل مجرد أمنياتٍ بعيدة المنال!

حاول أن يصرف عن مخيلته هذا الشعور، لكي لا يبدو وكأنه يشمت بهذا الشيخ الكبير الذي رحل عنه أبناؤه، وتركوه أحوج ما يكون إليهم، أحس بشيء من وخز الضمير عندما شعر أن سعادته الغامرة إنما جاءت بناءً على مصيبة غيره.

ولكن لِمَ كل هذا اللوم والتأنيب، الذي يكاد أن يكدر عليه صفوه، ويقطع عليه لحظة أنسه، وليس له طمعٌ في المزرعة ولا في المال، إنما تكفيه لبنى عن هذا كله. إن قلبه لا يريد سواها ونفسه لا تصبو إلا لها.

وضاح! وضــــاح! صوت رقيق ناعم، يغمر النفس بهجةً وسرورًا، ويمطر القلب حبًّا وغزلًا.

لبنى! أهلًا وسهلًا ومرحبًا.

وضاح انظر! لقد أعددت لك طعام العشاء.

نزل بسرعة، وهو يشكر لها لطفها ويثني على رقتها وعطفها، كادت أن تزل به قدمه من فرط الاستعجال واللهفة، فصاحت به: على رِسْلِك، أبصر موضع قدمك.

استحيا من تعجله فتأنى قليلًا في نزوله خشية أن تظن به جوعًا يستخفه نحو الأكل. صحيح! إن به جوعًا، ولكنه من نوع آخر.

نادته بصوت ناعم: وضاح لقد أخبرني والدي أن عملك كثير هذه الليلة، وربما أخرك عن إعداد عشائك، فبادرت إلى تجهيزه بنفسي.

ابتسم ملء فمه، ثم قال: لبنى لن آكله بمفردي، فأكملي معروفك واجلسي معي.

تناول الأكل من يدها، بينما مدت هي سماطًا كان معها، وضع الأكل عليه ثم جلسا متقابلين، انتظرت أن يمد يده نحو الأكل، ولكنه لم يفعل، بل ظل مشدوهًا ينظر إلى وجهها الجميل. أحست بشيء من الحرج، فمدت يدها وفتحت الطبق، وقالت: ألا تأكل! ألست جائعًا؟

وجم قليلًا، وكأنه يُعِد الكلام في نفسه، ثم قال بحرقة: لبنى! هل تسمحين لي بأن أبثك شجونًا، قد برحت بفؤادي زمنًا طويلاً، اعذريني فقد كنت قادرًا على المداراة والكتمان فيما مضى، أما الآن فقد بلغت بي حدًّا خشيت معه على عقلي.

ابتسمت ثم قالت بغنج ودلال: ماذا عسى أن أقول، وقد بلغت بك حد الجنون.

أجاب بلهفة: نعم إن ما بي هو الجنون بعينه! وهل غير الحب جنون؟ لبنى منذ أن رأيتك أول مرة، وصورتك لا تفارق مخيلتي، وصوتك لا يبرح أذني، وحبك لا يفارق فؤادي.

احمرت وجنتاها، واعتراها خجل شديد، وكأنها قد صدمت بهذه العبارة الجريئة، فلملمت أطراف ثوبها، وهمّت بالقيام، بينما بدا الذهول والارتباك على وجه وضاح، وخشي أن تتركه وتمضي، فبادرها بالقول: لبنى! تذكري أني قد استأذنتك.

خفضت رأسها، ثم قالت، وهي تبتسم خجلاً:

وضاح! أرجوك ليس في قلبي هذه الأيام سوى الحرقة على فقد إخوتي، فمصابنا فيهم جلل.

تغيرت ملامح وجهه، فقال معتذرًا: لبنى إني لأضن بقلبك البريء عن الحزن والأسى، وبمقلتيك الحالمتين عن السهر والبكاء، دعي كل هذا لي وحدي، فقد عانيته سنيناً طويلة، حتى ظننت أن ألم المعاناة ما خلق إلا لي، وأن لوعة الحرمان ما وجدت إلا لتسكن فؤادي.

نظرت إليه بدهشة، ثم قالت: وضاح! ما هذا الكلام؟ وهل مرت بك معاناةٌ قط؟ هل فقدت أخًا عزيزًا؟!

آه يا لبنى! ما أقسى الغربة حين يتكالب على الغريب لوعة الحنين إلى أهلٍ فارقهم مرغمًا، مع ذل الحاجة وكآبة الفقر، أما الفراق فقد فارقت أمي وأبي وجميع إخوتي، فأين هذا كله من

مصابك بأخويك الذين رحلا باختيارهما، وربما يعودان في أي لحظة؟

دمعت عينها، وبان التأثر على تقاسيم وجهها الناعمة، فأخذت تمسح الدمع بأطراف أناملها، وهي تصغي إليه بكل جوارحها.

استأنف حديثه، وقد وضع يديه أمام وجهه، وانحنى قليلًا وكأنه يرجوها: لبنى لقد جاءني حبك كنفحة نسيم باردة، هبت على روح من ألهب الظمأ جوفه في هجير المفازة المهلكة[1].

لبنى! لم يبق لي في هذه الدنيا سوى تعلقي بأسباب حبك، فإذا قُطِعت هذه الأسباب فعلى الدنيا السلام.

لبنى! صدقيني إن حديث الحب سيزيل ما لحق بأنفسنا من ألم الفقد ومضض الفراق.

هزت رأسها، وابتسمت بطرف فمها، وكأنها تغريه بأن يكمل كلامه عن الحب.

فهم مغزى الرسالة، فقال وهو يبتسم: لبنى شئتِ أم أبيتِ أنا أحبك.

نظرت إليه بطرف عينها، ثم قالت بشيء من الزهو: أعرف هذا منذ زمن.

(1) الهجير هو شدة الحر في وقت الظهيرة، والمفازة: هي الصحراء المهلكة التي يضيع فيها المسافر وسمتها العرب مفازة من باب التفاؤل بالنجاة إذا ساروا فيها.

فتح عينيه، وقال لها بدهشة: تعرفين؟ ما أدراك بهذا، وقد كنت أكتمه حتى عن نفسي؟

ردت عليه: أتظن أن حبًّا كهذا يخفى على فتاة لماحة مثلي؟ لقد وشت بك نظرات عينيك وخطو قدميك، ونم بك إشفاق نفسك وتطلعها، أتريدني أن أزيدك دهشةً إلى دهشتك؟ إن أبي يدرك هذا أيضًا.

وضع يده على فاه، ثم قال: لا.. لا مستحيل! أصادقةٌ أنت أم تسخرين مني كما كنت تفعلين من قبل؟

ضحكت بدلال، ثم قالت: إن للحب الصادق لغةً خاصة يكون الكلام آخر حرفٍ فيها، وأضعف دلالةٍ عليها، لقد كنت تتحدث بهذه اللغة كل يوم، وأنت لا تشعر، إذ كان صمتك بوحًا، ونظراتك قصائد غزلٍ تنشدها عيناك.

أجابها برقة: آآه.. أخشى أن أكون في حلم! لبنى ماذا عنك؟ هل تحبين حبيبًا صادقًا؟

أشارت بيدها إلى العشاء، ثم قالت بمكر: سل الطعام، فلعل طعمه أن يجيب سؤالك؟

استخفه المرح، فقال وهو يمد يده إلى الطعام: أهذا من لغة الحب أيضًا؟

قالت: نعم.

أكل بشـراهة، وهـو يسـتطيب الأكل، ويقـول: مـا أجمـل لغـة الحـب!

خفضت رأسـها قليـلًا ، ثـم قالـت بحـزن: ليتنـي سـمعت هـذا الـكلام قبـل أن أفجـع برحيـل أخـوّي.

توقف عـن الأكل، ثـم قـال لهـا: صحيـح تذكـرت عنـدمـا جـاءني سيف وجبـار قبـل ذهـابهمـا ، قـالا لـي كلامًـا لم أفهم مغزاه جيدًا.

- هل حدثاك عن «بهرام»؟
- «بهرام»؟ ما هذا الاسم الغريب؟
- هذا الرجل هو السبب في كل شيء.
- ماذا تقولين؟ ومن بهرام هذا؟
- قبـل ثمـان سـنوات وفـد علينـا رجـل غريـب، فـاسـتضـافه أبـي أيامًا عدة، وليته لم يفعل، فقد تغيرت حياتنا بعده تمامًا.

وضـع وضـاح يـده علـى ذقنـه، ثـم قـال بهـدوء: هـذا هـو حـل اللغز الـذي حيرنـي طويلاً عن سـبب غيـاب سيـف وجبـار، ولكنـه بذاتـه لغـز أكبـر، هل تعرفين عنه شيئًا يا لبنى؟

- أنـه غريـب في كل شـيء، لكنتـه غريبـة وهيئتـه غريبـة، وتعلـق النـاس بـه أغـرب.
- وأين هو الآن؟

- لا أدري.
- وما علاقة سيف وجبار به؟
- هذا هو السر الذي لم أهتدِ لحله منذ زمن، سألت أبي عنه مرة، فأنكر ذلك، وزجرني زجرًا شديدًا، ثم علمت البارحة أنه هو الذي أرسل سيف إلى نجران، وجبار إلى صنعاء.
- وماذا يفعلان هناك؟
- وضاح ما كل هذه الأسئلة المتتالية؟ دعك من هذا، وأكمل عشاءك، فلدي ما أقوم به.

استحيا وضاح من فضوله، الذي هجم في غير أوانه، فقال معتذرًا: لبنى! ما أعد نفسي إلا واحدًا منكم، وأني لأشارككم حتى في مصابكم، وما سألتك عن ذلك إلا لكي تبوحي بما يختلج في صدرك.

لبنى! لا أريد لك أن تشاركيني سوى في أمرٍ واحد.

راق لها الكلام كثيرًا، فقالت بلطف: وأي أمر تريده أن يكون شركةً بيننا؟

أجاب وهو ينظر إلى عينيها: الحب، وأنا أقسمه بيننا بالتساوي، فأعطيك حلاوته، وأقبل أنا بمرارته، وأهديك راحته، وأنال عناءه.

ابتسمت بدلال، ثم قالت: لا، هذه قسمة جورٍ لا أقبلها.

قبض يده بحماس، ثم قال بصوت مرتفع: ما دمت قد قبلتي بالحب، فاقسميه كما تشائين.

ضحكت ثم قالت: يا مكار، لقد أوقعتني في شراكك.

ابتسم ثم قال: سلي لحاظ عينيك فهما من نصب الشراك أولاً.

لملمت أطراف السماط بعجل، ثم حملته ومضت مولية نحو البيت، وهي تلوم نفسها على جرأتها، لكنها ما إن اقتربت من بيتها حتى التفتت نحوه، وودعته بأطراف بنانها، فأشار لها بكفه، وهو يبتسم ابتسامة الحب والرضا.

5

بقي وضاح ساكنًا في مكانه برهةً من الوقت، وهو يستعيد ما حدث في هذا اليوم الجميل.

الله.. ما أروع أن يسوق لك القدر أكثر مما كنت تحلم به! بالأمس كان أقصى أمنياته أن تمنَّ عليه لبنى ولو بنظرة عجلى، واليوم قد باحت له بمكنون فؤادها.

مضى إلى عريشه، وهو ينظر إلى البدر، وقد حل الغمام بجانبيه، فزاده ذلك تألقًا ونورًا.

توقف قليلًا يتأمل هذا المنظر الرائع، الذي يبث معاني الجمال في أرجاء الكون، ثم أكمل طريقه حين احتجب وجه القمر خلف وشاح أسود من السحب الداكنة.

استلقى على فراشه، وأغلق جفنيه، وجعل يراقب نفَسَه العميق، الذي يتردد بهدوء ونعومة في صدره الخالي من الهموم لأول مرة منذ زمن بعيد.

حبل طويل من الخيالات الرائعة أخذ يتراقص أمام مخيلته، أتزوج حبيبتي لبنى، ثم أبني قصرًا مكان هذا العريش، تزورني أمي، ويرضى علي والدي، أرعى أسرتي وأسرة زوجتي في هذه الواحة الغنّاء.

الله.. وأخيرًا سأعيش بسلام وصفاء، وأضع عصا الترحال والشقاء.

أراد أن يستغرق طويلاً في هذا الصفاء، ولكن النوم سرعان ما تسلل إلى عينيه، وقطع عليه أحلام اليقظة اللذيذة، التي تتراءى في خياله.

نام بعمق، فتحولت الخيالات إلى رؤى وأحلام متداخلة لا يميز بينها، مشهد واحد أصبح بالتدريج أكثر حدةً وأشد وضوحًا حتى أزاح المشاهد الأخرى كلها، إنه مشهد تلك الحمامة الصغيرة التي لا تستقر في مكانها ولو لحظةً واحدة، بل تنتقل من فرع إلى فرع ومن شجرةٍ إلى شجرةٍ أخرى، اضطربت قليلًا، ثم طارت بخفة، وأخذت ترفرف حول رأسه، حاول الإمساك بها، لكنها أفلتت من بين يديه، واستقرت فوق غصنٍ يابس، وفي لمحة

بصـر انقض عليهـا صقـرٌ جـارح وأنشـب مخالـب المـوت فيهـا، ثـم طـار بهـا إلى جـو السـماء، وقـد تنـاثر فتـات ريشـها في الأجـواء، كمـا يتنـاثر الهبـاء، أمسـك ريشـةً بيضـاء، وقـام يفتهـا بيـده والحزن يفت قلبه فتًّا.

استيقظ مـن منامـه مرعوبًـا وهـو يحـرك أصابعـه، وكأنـه لا يزال ممسكًا بتلك الريشة، جلس مستندًا على جدار العريش، وأخذ يسترجع تفاصيل الحلم الذي رأى أحداثه على أرض الواقع منذ ما يربو على سبع سنين.

أهذا حديث نفسٍ تذكرت شيئًا رأته في سالف الزمن؟ أم أنه نذير من الرؤيا يؤذن باغتيال لحظة الفرح الوحيدة.

لعله طائفٌ مـن أضغـاث الأحـلام، التـي أطافت بمخيلتـه حين نام منهك الجسد، وهو لا يشعر؟

تسـاؤلاتٌ مزعجـة أخـذت تـدور في رأسـه الـذي لا يـزال فيـه بقيـة مـن نوم.

لمـع البـرق فأضـاء السـواد الحالـك، وقطـع عليـه حبـل هـذه التسـاؤلات الملحـة، ثـم تلتـه صاعقـة مدويـة، بـددت سـكون الليـل السـاجي[1].

---

(1) الساجي: الليل الساكن الهادئ.

قفز وضاح من مكانه ووقف في منتصف الحديقة ليشيم البرق[1]، ويستبين مواقع القطْر، فلم يلبث إلا قليلًا حتى اضطره المطر إلى الدخول في عريشه مرة أخرى.

انهمرت السماء وفُتِحت أبوابها بماء ثجّاج، لم يرَ وضاح مثله من قبل، استمر هذا الوابل الغزير زهاء ساعةٍ كاملة، خرج بعدها وضاح ليسمع هدير السيل من كل ناحية.

تجددت العواصف مرة أخرى، فجاءت بصيِّب هطال، لم يتوقف نزوله ولو لحظةً واحدة، دخل السيل فجأة إلى عريش وضاح، فذهب بلحافه ومتاعه، وكاد أن يقتلع العريش من مكانه، بينما بقي وضاح واقفًا على ساقه حائرًا في أمره، لا يدري ماذا يصنع في هذا الليل العصيب، الذي لم ينقشع سحابه حتى بان وجه الصبح.

◈◈◈◈

خرج وضاح ليرى الشيخ مُرة، وقد سبقه إلى المزرعة التي اجتاحتها السيول، فغمرت زرعها، واقتلعت بعض أشجارها. وأخطر من هذا كله أن البئر الرويّة التي تسقي المزرعة بأكملها لم تسلم منها أيضًا، على الرغم من ارتفاع طيها[2] وإحكامه.

---

(1) شام البرق: نظر إليه، وتابعه متابعة دقيقة، ليعرف أين يمطر.

(2) طي البئر: حجارة مرصوصة تبنى على فم البئر لمنع انهيارها وسقوط الطين فيها، والبئر الروية: هي غزيرة الماء.

وقف الشيخ مرة، ثم التفت إلى وضاح، وقال بحسرة: لقد انهار السد الذي أقمته على فم الشعب، ليرد سيل الجبل عن المزرعة، ولكنه أغرقها حين أهملناه منذ زمن، وضاح! كل شيء يهون إلا البئر، فإني أخشى أن يسد الوحل مجاري عيونها، ولا بد من تنظيفها الآن، فاذهب واختر أكبر الدلاء، واشدد عراه بالحبال جيدًا، ثم اتبعني إلى فوهة البئر.

لم يكمل مرة كلامه حتى انطلق وضاح بهمة وحماس، وجلب معه الدلو، وقد أصلحه كما طُلِب منه، ثم وقف صامتًا، ينتظر أوامر الشيخ وتعليماته.

دار الشيخ مرة حول البئر، ونظر إليها مليًّا، ثم قال: سأنزل إلى قعرها، وأقوم بتنظيفها بنفسي.

وثب وضاح من مكانه، وقال: يا عم أنا أكفيك هذا الأمر، فدعه لي.

ابتسم الشيخ، وقال: بارك الله فيك يا بني، أنت أقوى مني على حمل الدلو الثقيل، وأنا أعلم منك بعيون البئر، فأنزلني بالدلو، فإذا ملأته من الحجارة والطين، صحت بك لتجذبه إليك وتفرغه، ثم ترجعه إليَّ، وهكذا دواليك، حتى ننتهي من تنظيف البئر.

أجاب وضاح: أنا طوع بنانك يا عم، وأنت أعلم مني وأحكم.

شمّر الشيخ مرة عن ساعده، ونزل إلى البئر، حتى بلغ الماء إلى صدره، ثم استقبل الدلو، وهو يرتجز[1] ويقول:

لأُصلِحنَّ بئرنا الرويّة	**وقد طوت شفارها يديّه**
لترجعنّ عذبة نديّة	**أو لا فلست بأبي البُنية**

دب الحماس في نفس وضاح على صوت الشيخ المتهدج، الذي تردده جنبات البئر، ويخرج من فمها، وكأنه قادم من صدع جبل عميق.

استمر هذا العمل المضني منذ طلوع الشمس إلى أن ارتفع الضحى، حتى سئم وضاح وأرهقه الحمل الثقيل، بينما ظل الشيخ يحدو ويرتجز، وما يزيده مضي الوقت إلا إصرارًا على إكمال عمله.

التفت وضاح ناحية البيت، فرأى لبنى وقد شرّعت أبوابه لدفء الشمس، رقص قلبه حين تذكر حديث العشاء ليلة البارحة.

لغة الحب! وما أدراك ما لغة الحب؟ أليست هي اللغة نفسها التي يهمس بها المطر في ربى الأرض لتخرج أزهار الربيع من جوفها؟ أليست هي لغة الماء والشجر التي تتفتق عنها أكمام الثمر.

---

(1) يرتجز: يغني بشعر الرجز، والرجز هو بحر سهل من بحور الشعر العربي، يتغنى به العرب عند السفر أو عند الانهماك في العمل.

وما أشرعت لبنى أبواب البيت فحسب، بل أشرعت أبواب قلبها لدفء حبه أيضًا، إنها تجيد لغة الحب، وتعرف رموزها وأسرارها، ولا بد أنها فهمت ذلك، وربما قصدته.

استغرق وضاح في بحر تأمله عن لغة الحب وأسراره، وذهل عمّا هو فيه من عمل حتى وقعت الكارثة!

ويا لها من كارثة زلزلت كيانه، وحرفت مسار حياته من جديد! انفلت حبل الدلو الثقيل من يده، فضرب رأس الشيخ مُرّة وأرداه صريعًا في غيابة البئر.

صرخ وضاح صرخةً مكتومة، ثم أخذ ينادي الشيخ مرة، فلم يجبه سوى رجع الصدى، وجلبة الماء الذي ترتطم أمواجه العنيفة بجنبات البئر.

نزل بسرعة ليستقبله الدم، وقد طفى على وجه الماء، أما الشيخ مرة فلا أثر له سوى شلال الدم المتدفق من أسفل البئر، حرك الماء برجليه حتى عثر على مرة ملقىً على ظهره، والدماء تنبعث من وجهه، رفعه بمشقة بالغة، ليجده فاقدًا للوعي، وقد كسر الدلو فقار رقبته وجرح ناصيته جرحًا غائرًا.

ارتاع قلبه، وداخله خوف عميق، وهو يقلب الشيخ الصريع بين يديه، حيث تتثنى رقبته ذات اليمين وذات الشمال. انتابه يأسٌ مرير من حياة الشيخ فألقاه من يده، وصعد إلى أعلى البئر، والحسرة تأكل فؤاده.

وقف على شفا البئر حائرًا لا يدري ما يصنع، بينما أقبلت لبنى تشتد في مشيتها، حتى وصلت إلى وضاح، فلما رأت الدم على ثيابه صرخت صرخة مدوية: أين أبي؟ ماذا فعلت به؟

ارتبك وضاح، وتلعثم لسانه، فأشار إلى البئر، فلما رأت الدم على وجه الماء، هجمت على وضاح، وأمسكت بتلابيبه، وهي تصيح: لماذا قتلت أبي يا وضاح؟

– لبنى أرجوكِ اسمعيني، سقط الدلو من يدي...

– لم غدرت بأبي أيها القاتل المجرم؟ يا ناس! يا ناس أمسكوا بهذا الغادر اللئيم! لقد قتل أبي!

خشي وضاح من ثائرة الناس واجتماعهم عليه، فركض مسرعًا لا يلوي على شيء، وقفز على الجدار الخلفي للحديقة، ومضى هاربًا وترك لبنى المسكينة تخمش وجهها، وتندب أباها، وتصيح بالناس.

انطلق هائمًا على وجهه، وسلك شعب الجبل، حتى ارتقى إلى الذروة، وسار يتتبع شعف الجبال[1]، ميممًا جهة الجنوب الغربي، لا يدري لم اختار هذه الجهة بالذات، فلم يعد معه من عقله ما يسعفه على اختيار وجهته المناسبة بعد هذه الصدمة العنيفة التي تكاد تورثه الجنون.

---

(1) رؤوس الجبال وأعاليها.

يا اللّه! ما الذي حدث؟ أهكذا ينهار صرح الأحلام في ومضة عين؟ أهكذا تتحول إشراقة الأمل الجميل إلى ظلام يأس قاتل؟ أما الحب فلا تسل عنه بعد أن أصبح حقدًا دفينًا يأكل الكبد، وحل محله البغض الذي يفت القلب ويعصر الفؤاد.

حدث هذا كله في لحظة ذهولٍ واحدة، كان وضاح يحذر منها كثيرًا، لقد نبهته الطبيعة أول قدومه للحديقة، ثم حذرته الرؤيا آخر ليلة، ولكن هيهات أن ينجي حذرٌ من قدر!

العبيكان للاستثمار
Obeikan Investment Group

إحدى شركات

العبيكان للنشر
Obeikan Publishing

أحدث الإصدارات

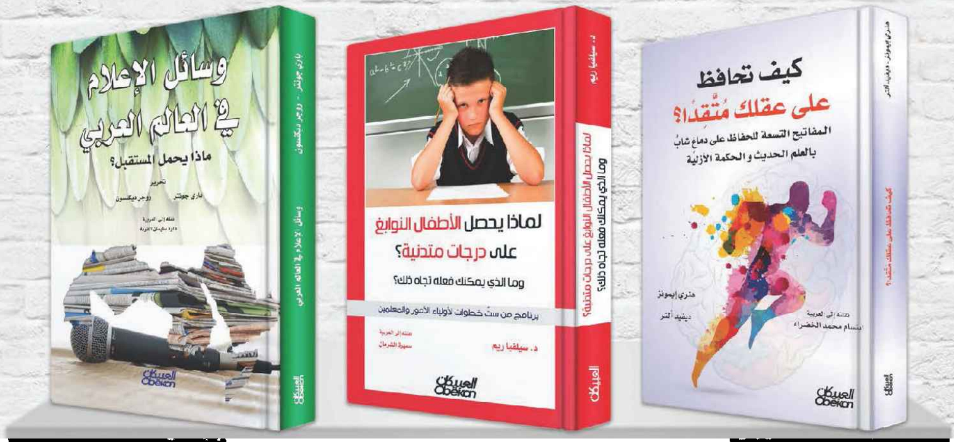

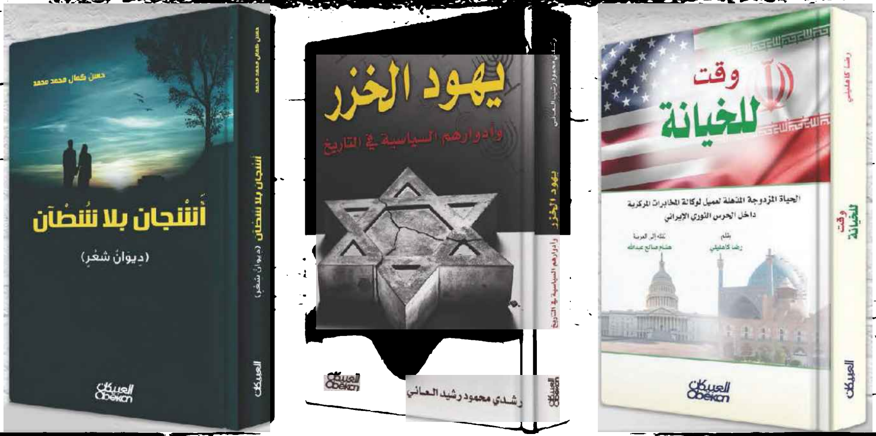

لخدمات البيع والتوصيل
وادي wadi
سوق إحدى شركات amazon
نون noon

كتبنا الإلكترونية
Google Play
amazon kindle

كتبنا الصوتية
دار ضاد للنشر الإلكتروني Dhad Audio Publishing WWW.DHAD.SA
Kitab Sawti www.kitabsawti.com
storytel

Follow Us
obeikn reader
obeikanpub

الفصل الثالث

العنكبوت

1

ذروة الجبل الأشم..حيث يعم السكون أرجاء المكان ولا يقطع الصمت سوى خرير الشلال الضئيل، الذي ينساب بنعومةٍ من تحت الصخرة الضخمة، التي تسد فم الشِّعب من أعلاه.

جلس وضاح في ظل الصخرة وقد اتشحت نفسه برداء الحسرة، وخيم عليها سكون الإحباط، بينما تحولت كل الألوان إلى لون رمادي قاتم، ليس فيه من التفاصيل ما يشد العين أو يجذب البصر، حتى الأفكار ليس فيها فكرةٌ واحدة، تستدعي أن يجهد ذهنه من أجلها.

أما الكلام فلا رغبة له فيه أبدًا، بل ربما أن الصدمة قد أفقدته القدرة عليه أصلًا.

غلب عليه النعاس فاستلقى على ظهره، ونام طويلاً أو تظاهر بالنوم، لا فرق، المهم أن يغيب ذهنه عن هذا الوجود البائس.

لبث على هذه الحال بين اليقظة والمنام حتى حدث مالم يكن بحسبانه..

قدم ثقيلة وضعت على صدره، حتى كادت أن تكتم أنفاسه:

هيه.. أنت.. استيقظ! من أنت؟

أمسك وضاح القدم بكلتا يديه، فلم يستطع زحزحتها عن صدره، وأخذ يصرخ صرخات غير مفهومة.

أقول لك من أنت؟ شرق وضاح بريقه، ولم يستطع الكلام، بينما أخذ الرجل يضغط بقدمه، حتى كاد أن يسحق أضلاعه.

جذبه صاحبه الآخر، وهو يقول له: جحدر! إنه رجل أبكم فارفع رجلك عنه.

رفع جحدر رجله عن وضاح، فبان له النتوء الغائر في صدره، فالتفت إلى صاحبه، وقال: ومعاق أيضًا، ما هذا الحظ العاثر، الذي لا يجلب لنا إلا أمثال هذا من الحمقى والمعاقين.

نهض وضاح، وأصلح ثوبه، ثم جلس منطويًا على نفسه، وهو يرتجف رعبًا، وعيناه تدوران من الخوف.

وضع جحدر سيفه جانبًا، ثم قال لصاحبه: ماذا نفعل به يا همام؟

أجاب همام: وماذا عسى أن نصنع به، ليس قويًا فنبيعه عبدًا، وليس معه شيء نسلبه إيّاه، فدعه وشأنه.

دار جحدر حول وضاح وأمسك بعضديه، ثم نظر إلى راحة يديه، وقال: هذا رجل قد اعتاد العمل، وأخشى أن يخدعنا، ويدل الناس على مكاننا.

ركله بعنف، ثم أمسك به، ورفعه إلى أعلى، وهو يقول: تكلم يا رجل وإلا قتلتك.

صرخ وضاح عدة صرخاتٍ متقطعة، ووضع يديه أمام وجهه ولم يتكلم.

جلس همام على الأرض وقال لجحدر: ألم أقل لك إنه أبكم، أنا أعرف هؤلاء من صرخاتهم، فامض بنا لعلنا أن نجد عابر سبيلٍ غير هذا المسكين البائس.

أمسك جحدر بلحيته الطويلة، وقال: حَدسي[1] يخبرني أنه رجل قد مارس العمل طويلاً، وأظنه سيكون مفيدًا لنا إن كان يفهم الكلام ولو كان أبكم.

ضحك همام بصوت عالٍ، ثم قال: يا جحدر! عهدي بك قاطع طريق فمتى أصبحت كاهنًا! ويحك عن أي حدسٍ تتحدث؟

لم يجبه جحدر، بل توجه مباشرةً نحو وضاح، وقال له: انهض. فنهض وضاح بسرعة.

تقدم إلى الأمام. فمشى وضاح قليلًا، ثم قال له اجلس، فجلس مكانه.

التفت جحدر إلى همام، وقال له: الآن أخبرك أيها اللص الغبي ما فائدة هذا العبد الأبكم، سنبيعه على بهرام، فهو يفرح

---

(1) ظني.

بأمثال هذا من العبيد، ويلحقهم بخدمه، لقد رأيت عنده عبدًا أعجميًّا لا يحسن الكلام بالعربية، وأظن هذا العبد سيكون خيرًا لبهرام من جميع أولئك الأعاجم، فهو يفهم العربية، ولا يستطيع الكلام أصلًا.

هز همام رأسه، وقال: في هذه غلبتني، فلا أعرف من يقبل بأخذ مثل هذا العبد الأبكم إلا بهرام، فسِر بنا إليه.

وضع جحدر القيد في يدي وضاح، وأمسك بأذنه، ثم قال له: سنبيعك عبدًا لبهرام. فالويل لك إن فضحتنا عنده، وأخبرته بما سمعت منا، فهو لا يعلم عنا سوى أننا تجار مخلصون لدعوته.

هز وضاح رأسه ببلاهة، وكأنه يريد طمأنة هذا اللص العتيد، لكي يتجنب عنفه وقسوته.

◈◈◈◈

سار وضاح خلفهما، وقد وطن نفسه أن يكون عبدًا، فربما كان هذا جزاءً عادلًا، يستحقه على غفلته وذهوله. انتابته غصةٌ مرة حين تذكر أنه قد أصبح قاتلًا لعينًا في عين حبيبته لبنى. آه.. ليت المصيبة أعطته مهلةً من الوقت يعبر فيها عن نيته وقصده، لكي تتغاضى لبنى عن جنايته.

ولكن! ما فائدة التبرير بعد وقوع الكارثة، والناس لا يعبؤون بالنيات والمقاصد، قدر ما ينظرون إلى نتائج الأفعال، وإلى مآلات الأمور ومصائرها.

وما الضير في أن يكون عبدًا؟ ربما ارتاحت نفسه المعذبة في ظل العبودية، فالعبد ليس له سوى همٍّ واحد، هو الحصول على حريته، ولا يفكر في أي شيء قبل تحقيق هذا الهدف المحدد الواضح، ثم هو يجد في كل خطوةٍ جديدة نحو الحرية سعادة غامرة، لا يعدلها شيء.

وما أن ينال حريته المنشودة حتى تتراءى له المطامح، وتتنازعه الآمال والأمنيات، وتفتح معها أبواب الهموم وأسباب الشقاء من كل حدبٍ وصوب، فلا يدري من أين يؤتى حتى يمضي به العمر سريعًا وهو أسير لأسباب عيشه، ورغبات نفسه.

أفكارٌ متضاربة دارت في رأس وضاح، وأذهلته عن واقعه المرير الذي تدهور بسرعةٍ عجيبة، تفوق ما يتصوره أي عقل.

ولكن الفضول لايزال يطل برأسه من طرفٍ خفي، من هو بهرام؟ وماذا يفعل هذا الرجل الغريب هنا؟ وكيف سحر الناس حتى أذهلهم عن آبائهم وأبنائهم وأموالهم؟ وأي مصادفةٍ عجيبة تقوده إلى هذا الرجل اللغز؟

ما أعجب الأقدار! كيف انتهت به الأمور إلى أن يساق إلى بهرام عبدًا أبكم لا يملك من نفسه شيئًا، بعد أن تحطمت آماله كلها على صخرة الحظ العاثر.

◇◇◇◇

يخفف عنه هذا الفضول شيئًا مما يجد من ألم السير الحثيث في هذه الجبال الوعرة خلف أولئك اللصوص العتاة.

أحس بشيءٍ من السخرية وهو يتذكر كلام جحدر: بهرام لا يعرف عنا سوى أننا تجار مخلصون، ويجب أن نبقى كذلك في نظره.

عجبًا! ألا يخجل هؤلاء المنافقون من أنفسهم، وهم يظهرون الفضيلة ويبطنون الرذيلة، ثم يتملقون أناسًا يشاكلونهم في النفاق، ولكن على صورةٍ براقة، تشع عدلًا ورحمة، وتخفي في زواياها البعيدة عن الأنظار ظلمًا وقسوةً لا مثيل لهما.

توقف اللصوص فجأةً، وربطوه في صخرةٍ كبيرة، ثم اختفى كل واحدٍ منهما عن الأنظار.

عاد جحدر بعد هنيهة. وقد غير ملابسه وبدل هيئته، فاختفت ملامح اللص الشرس وراء منظر التاجر المهيب الذي دلف[1] إلى وضاح بهدوء، وفك قيده، وأجلسه على الأرض بلطف، ثم غسل وجهه بماء بارد.

أقبل صاحبه الآخر وفي يده حلةٌ جديدة وحذاءٌ سميك، فألبسها لوضاح، وهو يربت على كتفه بهدوء.

لم يفرح وضاح كثيرًا بهذه الهدية الثمينة، فهو يعلم جيدًا أنها ما قُدِّمت إليه إلا لتزيد من ثمنه عند البيع، ولكي تخفي معالم الجريمة النكراء التي تعرض لها.

---

(1) دلف: مشى بهدوء وثقة.

هيـــــــــه ! أنت ما اسمك؟ سؤالٌ مفاجئ طرحه جحدر.

التفت وضاح إليه ولم ينبس ببنت شفه، بينما أخذ همام يضحك من جحدر، ويقول: ما أشد عنادك يا رجل! ألم أخبرك أنه أبكم، ولا تزال مصرًّا على مناداته.

لم يرد جحدر عليه، بل اتجه نحو وضاح، ثم قال:

اسمع! لنا عيوننا عند بهرام، وهم يرصدون لنا كل شيء هناك، ثم ينقلونه لنا، فإن أخبرته بشيء من أمرنا قتلناك بدمٍ بارد.

ابتلع وضاح ريقه، وهز رأسه ولم يتكلم، وهو لا يدري أكان السؤال اختبارًا لقدرته على الكلام، أم أن جحدر قد نسي الأمر بالفعل.

ولكن الأمر قد أصبح محسومًا بالنسبة له، فالقدرة على الكلام تعني الموت المحقق على أيدي هذين المجرمين، فلم يشأ أن يغامر بحياته ويجرب قدرته على الكلام حتى بينه وبين نفسه.

أمسك جحدر بيد وضاح، ومشى بجانبه بوقار وهدوء، بينما تبعهم همام يحمل على ظهره مزادة[1] فاخرة.

◇◇◇◇

(1) وعاء من جلد مثل الحقيبة، يوضع فيه الزاد وحاجات السفر.

استوى الطريق، فبدت الكهوف المتقابلة على جانبيه، وكأنها خلايا نحل تعج بالحركة الدائبة التي لا تتوقف إلا عند قدوم زائر غريب، الناس هنا ليسوا كثيرًا، ولكنهم أخلاطٌ من أعراقٍ شتى، بين عربي وحبشي، وبعض الأعاجم ذوي السحنة البيضاء والشعر الأصهب.

توقفت الحركة فجأة، وبدأت العيون بمراقبة جميع الحركات والسكنات، أنهم يشكون حتى في بعضهم، فكيف بوافدٍ جديد لا يعرفه أحد.

مشى الثلاثة بهدوء وثقة حتى ضاق بهم الدرب، وأفضى إلى باب مغارةٍ كبيرة، يحرسها عبدان أسودان، تقدم جحدر حتى دخل باب المغارة، بينما بقي همام ممسكًا بيد وضاح، وهو يلتفت يمنة ويسرة.

غاب جحدر هنيهة، ثم عاد ووجهه يتهلل بِشرًا، وفي يده صرةٌ حمراء صغيرة، ثم أخذ بيد همام وعاد أدراجه.

تقدم أحد العبدين فأخذ بيد وضاح، وأدخله في غارٍ صغير يجاور باب المغارة الكبرى، ثم تركه وحيدًا.

بقي وضاح ساكنًا يتأمل هذه المغارة الصغيرة، التي فرشت أرضها بالحصباء الناعمة، بينما بقي سقفها على طبيعته الأولى، ما عدا بعض النقوش القديمة، التي تزين أطراف السقف وأعالي الحيطان.

عـاد العبـد مـرةً أخـرى بـذات السـرعة التـي خـرج بهـا، وهـو يحمل في يده أثوابًا طويلة داكنـة اللون، وفي يده الأخـرى عصيـدة بُـرٍّ يفوح قدرها. نظر إلى وضاح، ثم قال بلكنة أعجمية: انزع عنك لباس التجـار هـذه، والبس مثل لباسـنا، فأنـت هنا عبـدٌ مثلنا.

أكل وضـاح بشـراهة الجائـع، الـذي يخشـى ألا يجـد الطعـام مـرةً أخـرى، ثـم لبس ملابس العبيـد، وتمنطق بنطـاقٍ أسـود، يشـد ملابسـه علـى ظهـره.

سـرى في داخلـه شـعورٌ غريـب، لم يعهـده مـن قبـل ذلـك، لقـد أصبـح منـذ الآن عبـدًا لا يملـك حتـى نفسـه، التـي بين جنبيـه، فضلًا عـن ملابسـه التـي يرتديهـا.

إنـه يعيش مفارقـةً عجيبـة بـين نفـس حـرٍّ أبيّـة، تأبـى الضيـم، وترفض الـذل والهـوان، ولكنهـا تسـكن جسـدًا مملـوكًا، قـد ابتاعـه لصـوصٌ مـن لصـوصٍ آخريـن.

كل مـا تـراه عينـه أو تسـمعه أذنـه يخنـق نَفَس الحريـة، الذي لا يزال يتردد في داخله. حتى اللغة التي يسمعها، ولا يستطيع التحدث بهـا لم تعـد محايـدةً، كمـا كانـت مـن قبـل، بل أصبحت رمـزًا للتمييز بين السـادة والعبيد.

أحس بشـيء مـن الغيـظ، وهـو يتذكـر كلمة ذلك العبـد الغليظ، الـذي مـا أن وضـع لـه الطعـام حتـى وخـزه في جرحـه الـذي لا يـزال ينـزف دمًـا: «أنـت هنـا عبـد مثلنـا».

ضغط على أسنانه بقوة، وقال في نفسه:

آه! أنا الآن عبد ولكنني لست مثلكم، أنتم رضيتم بالعبودية واستكانت أنفسكم لها، أما أنا فهيهات أن أقبل بها، أو تطمئن لها نفسي يومًا من الأيام.

2

غربت الشمس، وتوارى معها ضياء النهار، لتحل بدلًا منه ظلمة الليل، التي تبعث على الرهبة في هذا المكان الغريب، عم الهدوء وتوقفت الحركة تقريبًا، فلم يعد وضاح يسمع سوى بعض الهينمة المتقطعة، التي تنبعث من بعض الكهوف المجاورة.

وفجأةً! دخل عليه رجلٌ طويل، يحمل مشعلًا وقادًا، ينعكس ضوؤه على وجهه المستدير، ذي العينين الصغيرتين، ولحيته الحمراء الكثة.

وقف وضاح يتأمل منظره الذي يثير الريبة، ويبعث على الخوف لا سيما، وقد وقف هو الآخر يحدق في وضاح، ويطالعه من رأسه إلى أخمص قدميه.

تقدم الرجل إلى وضاح، ومد يده مصافحًا، وقال بلكنة أعجمية:

حياك الله، أنا بهرام.

كادت المفاجأة أن تصعق وضاح، فتراجع للوراء قليلًا، واتسعت حدقة عينه، وهو ينظر إلى الرجل اللغز، الذي طالما حير عقله وأشغل تفكيره.

تذكر بعد برهة أن يد الرجل لا تزال ممدودةً، فمد يده على استحياء، وصافحه دون أن يتكلم بشيء.

أشار له بهرام بيده وطلب منه الجلوس فجلس متحفزًا، وقد أسند ظهره على جدار الكهف الداخلي، بينما انحنى بهرام ببطء حتى جلس مقابلًا له، وركز المشعل بينهما، ثم قال لوضاح وكأنه يريد أن يهدئ من روعه: لا تستوحش من هذا المكان، ولا تقلق، فكل شيء سيكون على ما يرام، أذكر أني عندما أتيت هنا قبل فترة مر بي نفس الشعور الذي يمر بك الآن يـــا.... ما اسمك؟

فتح وضاح فمه، وأصدر أصواتًا أشبه ما تكون بالأنين الصادر من أعماق الجوف، ثم فتح يديه ووضعهما أمام صدره، وكأنه يعتذر عن الإجابة.

أووه نسيت، لقد أخبرني جحدر: أنك تفهم الكلام ولا تتكلم. قالها بهرام، وهو يمسك براحتي وضاح، ويتأملهما جيدًا.

ولكن هذه يد رجلٍ احترف العمل الشاق مدةً من الزمن، ماذا كنت تعمل؟ قالها بهرام وهو يحد النظر في وضاح، وقد بدت على وجهه علامات الشك والريبة.

وضع وضاح يده على صخرةٍ كبيرة بجانبه، ثم قبض يده الأخرى، وكأنه ممسكٌ بفأس، وأهوى بها على الصخرة في إشارةٍ إلى عمله السابق عند أبيه.

قبض بهرام على لحيته الحمراء، ثم قال له: كنت تقطع الصخور إذًا، ولكن منذ متى فقدت القدرة على الكلام؟

فتح وضاح يديه، ونظر إلى بهرام بحزن، ولم يتكلم.

وثب عليه بهرام، وأمسكه بتلابيبه، وخنقه بثيابه، وهو يقول: اسمع! أنا بهرام، لا تنطلي عليَّ حيل الجواسيس وألاعيبهم، فأخبرني من أرسلك علينا، وإلا قتلتك، ورميت بجثتك من شاهق الجبل.

صرخ وضاح صرخاتٍ متقطعة، وشرق بريقه، بينما شدد بهرام قبضته، وأمسك بخناقه، وهو يزأر عليه: تكلم أيها المخادع.

جعل وضاح يجاذب أنفاسه، وهو يئن أنينًا يقطع نياط القلوب، حتى كاد أن يغمى عليه.

أفلته بهرام، فانحنى بشدة، وأمسك الأرض بيديه خشية السقوط، ثم جلس وعيناه تنظران إلى هذا الوحش القاسي، الذي كان يتمنى رؤيته في يوم من الأيام، ولكن الأقدار شاءت أن يراه في أبشع صورة يتخيلها عقل.

أهذا من يلهم الناس حب الوطن؟ أهذا من يتعلق الناس بحديثه ويأنسون بمجالسته؟ أم أن عجز وضاح وقلة حيلته قد أبرزا أقبح ما في هذا الإنسان العجيب.

لم يمهله بهرام كثيرًا حتى يسترسل في خيالاته، بل هجم عليه بعنف، ولسعه بنار المشعل لسعة أحرقت ذراعه.

لم يصرخ وضاح، بل أخذ يتلوى من الألم، فأتبعه بهرام بكية أخرى في ظهره أفقدته وعيه، ولم يدر ما حدث بعدها.

◈◈◈◈

أفاق وضاح بعد شروق الشمس، وإذا هو في كهف واسع، وبجانبه عجوز قد ضمدت جراحه، ووضعت عليها أعشابًا، تبرد شيئًا من حرارتها وألمها. كانت العجوز تعالجه وتمسح دمعتها أسفًا لحاله الذي يرثي له قلب العدو اللدود، فكيف بقلب امرأة امتهنت الطب وعلاج المرضى منذ صغرها.

اقتربت العجوز منه، وهمست في أذنه: يا بني، لقد وقعت محبتك في قلبي منذ رأيت وجهك أول مرة، فأنت تشبه ولدي الذي وافته المنية قبل سنوات.

يا بني! ما الذي جاء بك إلى هنا، كم أشفق عليك من هؤلاء الوحوش، فأخبرني من أي بلدٍ أتيت، وسأبذل وسعي في إيصالك لأهلك.

همّ وضاح بأن يجرب قدرته على الكلام، ويشرح لها أمره، ولكنه تذكر تهديد جحدر وقسوة بهرام، فتوقف عن المحاولة، واكتفى بالإشارة بيده.

تبين لوضاح بعد ذلك بزمن أن هذا القرار هو الذي حفظ له حياته، إذ إن هذه العجوز هي أخبث جواسيس بهرام، وأوسعهم حيلة وأشدهم مكرًا، وقد أوقعت بعدد من الرجال قبله، حين أتتهم من حيث لا يحتسبون.

تبدلت نظرة العجوز من نظرة إشفاق وتعاطف إلى نظرة الطبيب الذي يؤدي عمله بكل برود، دون الاكتراث بمشاعر المريض أو أحاسيسه، تأتي العجوز كل يوم، وتنظر إلى الجروح، وربما غيرت شيئًا من الضمادات، أو أصدرت بعض الأوامر لعبيد الخدمة، ثم عادت أدراجها.

تحسنت المعاملة مع وضاح تدريجيًّا حتى إنه بدأ يشعر بشيء من الاهتمام به من قبل بعض العبيد، وربما سمع همسًا خفيًّا بينهم لا يفهم معناه جيدًا، ولكنه يوحي بقدر من الوصاية، يزيد عمّا اعتاد عليه عبدٌ طارئٌ جديد.

تماثلت جراحه للشفاء، ونهض مرةً أخرى، ولا يزال القلق على مصيره الغامض يقض مضجعه كل ما آنس حركة من تلقاء باب الغار.

◈◈◈◈

ذات مساء دخل عليه رجل قصير متقلدًا سيفًا يلوح الذهب في غمده، وقد بدت عليه علامات الثراء، وفي يده صرةٌ كبيرة، اقترب من وضاح وقال له: انزع ملابسك، والبس هذه الملابس الجميلة، وسيمر عليك سيدي بهرام بعد قليل.

ارتاع وضاح لمجرد سماع اسم بهرام، وعض على إبهامه، حتى كاد أن يقطعه في حين بدت علامات الذهول والدهشة على الرجل.

فقال له متعجبًا من هلعه الشديد: ينبغي أن تكون فرحًا مسرورًا، فقد رضي عنك بهرام، وقرر أن يلحقك بخدمه الخاصين.

خرج الرجل بسرعة، بينما بقي وضاح يعاني خوفه ورعبه في انتظار دخول هذا الوحش، الذي كاد يقتله دون أدنى جناية، إلا لكي يطمئن بأنه لم يكن عينًا عليه.

لم يطل انتظاره طويلاً، إذ سرعان ما دخل عليه بهرام، حاملًا في يده لوحًا مستطيلاً، يشبه ألواح الكتاتيب، وقد ارتسمت ابتسامة باهتة على وجهه الأبيض المشوب بحمرة. ثبت وضاح في مكانه، وقد وطن نفسه لأسوأ الأمور، بينما اقترب منه بهرام بهدوء، ثم عرض اللوح أمام وجهه، وإذا فيه بعض الكتابات، ثم قال له: هل تستطيع القراءة؟

أشار وضاح بيده، وكأنه يقول: لا.

فقال بهرام بارتياح: هذا جيد، اسمع! سأمنّ عليك مِنّةً ما مننت بها على أحد من قبلك، وسأرفع من شأنك، لتكون خادمي الخاص الذي يتولى أموري الشخصية، وبإمكانك أن تعد هذا اعتذارًا فعليًّا عمّا بدر مني تجاهك في المرة الأولى، ولكن إن بدا منك أدنى علامة على الخيانة أو إفشاء الأسرار مهما كانت صغيرة، فسأجعلك تتمنى الموت مئة مرة قبل أن تذوقه.

ارتاح وضاح لسماع هذا الكلام، وابتسم ابتسامةً خفيفة، وكأنه يشكره على هذا العرض المغري، لأي أحد في هذا المكان.

نهض بهرام بهدوء، وأشار لوضاح أن يتبعه، فمشى خلفه مُطأطًا رأسه.

◇◇◇◇

باحة المغارة الكبرى.. حيث ينتصب الكرسي الأحمر الذي تزينه النمارق[1] الذهبية، وتحف به بعض الوسائد المنسوجة بالحرير الخالص، بينما تتزين أرض الباحة الواسعة بالبسط الخضراء الناصعة.

منظرٌ لم يره وضاح من قبل، ولم يسمع عنه قط عند ملكٍ من ملوك العرب، فضلًا عن شيوخ القبائل، أو أمراء النواحي.

(1) الوسائد الوثيرة التي يتكأ عليها.

إنها أحجية جديدة، تضاف إلى لغز هذا الرجل الغريب، وإلّا فمن يتصور أن يوجد مثل هذا العرش الفخم في هذا المكان النائي.

لم يشأ وضاح أن يشغل باله كثيرًا بهذا المنظر، فلديه ما يقوم به من الأعباء الحساسة، بعد أن كلفه بهرام بالقيام عند رأسه لاستقبال الأوامر المكتوبة وتسليمها: إما لرئيس الخدم، أو لكبير معاوني بهرام، ولديه مهمةٌ أخرى هي أصعب من سابقتها وأشد خطرًا، وهي منع كل من يقترب من بهرام، أو يحاول التلصص على أحاديثه مع ضيوفه.

وبقدر ما كان يخاف من بهرام، ويهابه هيبةً شديدة، إلا أن رعبه الأكبر كان من كثرة الوشاة والجواسيس، الذين يمتلئ بهم هذا الوكر الخطير، لا سيما وقد تبوأ مكانةً يندر أن يصل إليها أحدٌ في مثل هذا الوقت الوجيز.

اعتاد وضاح أن يقف خلف بهرام، كل ما جاءه وفدٌ، أو زاره زائرٌ مهم، كان الزوار يتوجسون منه خيفةً، بادي الأمر، حتى شاع بينهم أنه أبكم، لا يقدر على الكلام، فانبسطوا في الحديث، ولم يعودوا يفرقون بينه وبين الجدار، الذي يستند عليه.

لم يعد هو الآخر مهتمًّا بسر هذا الرجل العجيب، وتخلى تمامًا عن فضوله السابق، في خضم ما يرى ويسمع كل يوم من

أسـرار النـاس، التـي تفشـى علـى كرسـي الخشـب، الـذي يقابـل عرش بهرام.

رأى وضـاح علـى هـذا الكرسـي شـيئًا لم يتخيـل وجـوده في يـوم من الأيام.

هـذا أخ يشـي[1] بأخيـه عنـد بهـرام، مقابـل حفنـةٍ زهيـدة مـن المال، وهذا رجل يطلب مالًا يفسـد به نظام قبيلته، ويشـتت شـملهم، ويخضعهـم لدعـوة بهـرام طلبًـا للزعامة، وطمعًـا في مشـيخة القبيلة. وذاك شـيخ يتذلـل لبهـرام، ويتوسـله مـالًا يقـوّي بـه نفـوذه وزعامتـه على القبيلة.

أمـا العيـون والجواسيـس، فعـالـم مختلـف تمامًـا، لا يـكـاد يتصوره عقل، أو يخطر ببال إنسـان، ليس ثمة سوى قيمةٍ واحدة هـي الحصول على الخبر بأي طريقة كانت، أما بقية القيم والمبادئ فلا تعدو كونها وسيلة، يتوصل بها إلى القيمة المطلقة الوحيدة في عالم الجواسيس الرهيب.

حتـى الروابط العائليـة المقدسـة أصبحـت سـببًا مفضـلًا أثيـرًا عنـد هـؤلاء المحتالـين، وإلا فهـل يتوقـع زوج مغـرم أن تشـيَ بـه زوجـة تشـاركه لـذة الحـب، مقابـل ولاءٍ طـارئ لدعـوةٍ غريبـة أتـى بهـا رجلٌ غريب.

---

(1) يشي: من الوشاية، وهي الاتهام بالخيانة، وتحريف الكلام عن مقاصده.

ولكن أكثر ما راع وضاح، وأثار رعبه وخوفه، هو ما رأى من تلك الطبيبة العجوز، التي تعالج المرضى، وتمسح جراحهم، ثم ما تلبث أن تتجسس عليهم، وتحفظ كل حركاتهم وسكناتهم، وتخبر بها بهرام ليجهز على بعضهم بوحشيةٍ متناهية.

يا الله! لقد هم يومًا أن يجرب أمامها قدرته على الكلام، ويبوح لها برغبته في الفرار من هذا الوكر المرعب، ولو فعل هذا لحكم على نفسه بالموت.

◈◈◈◈

لقد أصبح يكره هذا الكرسي كرهًا شديدًا، لما يرى عليه من الجوانب المظلمة في نفوس البشر، فقد رأى كيف تتلاشى كل القيم، وتضمحل جميع المبادئ، أمام إغراء المال والسلطة، وكيف يستطيع الإنسان أن يجد مبررًا لكل عمل يقوم به، مهما بلغ من خسة وحقارة.

مشهدٌ ثنائي يتكرر كل يوم بين عرش بهرام وكرسي الخشب الذي يقابله، تتنوع الوجوه، وتختلف المهام والمطالب، ولكنها تتلخص في ثنائية الأهداف والوسائل، فما هم في عيون بهرام سوى أدواتٍ ينفُذ من خلالها إلى أهدافه ومطامحه، ولا يرونه هم- في المقابل- إلا نافذةً للكسب السريع، وبابًا مشرعًا لتحقيق المطامع العاجلة، أما الإخلاص للدعوة والتفاني في سبيلها فلا يعدو كونه خيطًا رفيعًا، يصل بين الأهداف والوسائل.

وهكذا مرت الأيام على المنوال نفسه، دأب فيها وضاح على القيام بما أسند إليه من مهام، دون الخوض في أي تفصيل آخر، حتى إنه لم يغادر المغارة الكبرى سوى مراتٍ معدودة، ولم يكن يختلط بأحد أبدًا.

ويبدو أن طبع العزلة هذا قد راق لبهرام، فأصبح يقربه، ويعتمد عليه أكثر من ذي قبل، حتى إنه ربما أمر بإخراج كبير معاونيه ورئيس خدمه من بعض المجالس المهمة، بينما بقي وضاح ملاصقًا لعرشه، لا يبرحه إلا بأمرٍ أو رسالة.

بقي ديدنه على هذا الحال منذ أن يستيقظ في الصباح الباكر، إلى أن يقف في مجلس بهرام، حين ترتفع الشمس، وتضئ جنبات المغارة الكبرى، وحتى يأوي إلى فراشه الملقى على الأرض في أحد التجاويف الكثيرة، التي يمتلئ بها جدار المغارة.

لا شيءَ جديدٌ هنا حتى الوشايات والشكاوي على كرسي الخشب أصبحت معادةً مكرورة.

◈◈◈◈

يعاوده فضوله القديم أحيانًا لمعرفة سر هذا الرجل المهيب، ذي اللكنة الغريبة، والسحنة الصهباء، التي لم يرها على عربيٍ قط.

إنه قليل الكلام جدًّا، وله تعليقات نادرة، تثير الأسئلة أكثر مما تحل الإشكالات.

يمنح المال بسخاء، ويعاقب بشدة مفرطة، ويشك في كل أحد، أما نومه فلا ينام إلا منفردًا في مغارة ملاصقة للمغارة الكبرى، قد نُقب لها بابٌ صغير، يؤدي إلى الباحة الرئيسة.

استيقظ وضاح ليلةً من الليالي على وقع أصواتٍ عالية، تأتي من داخل المغارة، تتخللها همهماتٌ خافتة لا يكاد يتبينها، تُسحب أشياء وتوضع أشياء أخرى في أماكنها.

هم أن يقوم من مرقده، ليعلم خبر هذه الأصوات الغريبة، فتذكر أن أدنى هفوةٍ في قلب هذا الوكر الخطير قد تودي بحياته، فقرر أن يطفئ نار فضوله، ويظل ساكنًا في مكانه، فإما أن يناديه أحد أو تشرق الشمس، فيعلم جلية الخبر.

وما أشرقت الشمس حتى رأى المغارة وقد تغير وجهها، وتبدلت معالمها، فلا عرش ولا كراسي ولا زينة، بل جلودٌ بيضاء مرصوصة على الأرض، وكأنما قد هيئت للجلوس عليها.

وقف وضاح في مكانه، يتأمل هذا المنظر، الذي أعاد المغارة إلى سيرتها الأولى، وأزاح كل ما طرأ عليها من زينة وأثاث.

كم في الطبيعة البكر من جمالٍ لا يدركه من اعتادت عينه على زخرف المتاع، وكم فيها من تناسقٍ لا يلمحه من أصابته حمى الترتيب بين الأشياء، إنه جمالٌ بتنوعه وتراكب أجزائه، تمتزج فيه الألوان بطريقة توحي بقبول أي إضافةٍ جديدة، تراعي تنوع أذواق البشر.

استغرق وضاح في تأمله الجميل، الذي هجم عليه دفعةً واحدة، ليجد نفسه وقد وقف في مكانه، الذي اعتاد الوقوف فيه كل يوم خلف العرش، بل وقف على الهيئة نفسها التي كان يقفها، وكأنه يستعد لاستقبال أمرٍ من أوامر بهرام.

كان منظره مضحكًا بعض الشيء، فهو واقف في وسط المغارة، وكأنه تمثالٌ جامد.

ولكن المنظر كان محزنًا في الوقت ذاته، فهو دلالةٌ على تقبل عقله لحال العبودية، التي أرغمته الأيام على تجرع مرارتها، والتصرف وفق ما تمليه مطالبها.

لقد اشتدت نقمته يومًا ما على ذلك العبد الذي قال له: ما أنت إلا عبدٌ مثلنا، واليوم يجد نفسه وقد قبل مضمون هذه العبارة، وهو لا يشعر.

يا لله! ما أسرع ما رضيت نفسه بالهوان، وتصالحت مع واقعها المرير، أهذه حكمة الانحناء للعاصفة؟ أم هو الذل والخنوع حينما تستكين له النفس، فيغدو علقمه[1] مستساغًا؟

لا يدري وأنّى له أن يدري، وقد سلك طريق الذل مجبرًا، وسار في درب الهوان مرغمًا؟ فإما أن يموت في أول الطريق، وفي نفسه بقية من إباءٍ وشموخ لا يدري بها سواه، أو يهوي في دركات

---

(1) طعمه المر، وأصل الكلمة مأخوذ من نبات الحنظل.

الضيم على غير هدى، لعل الأقدار أن تمنّ عليه بصدفةٍ لطيفة، تنتشله من غيابة الذل والهوان.

3

فُتح باب الغار، فخرج بهرام بهدوء وسكينة، وقد لبس الصوف، وتزيا بزي الزهاد، فارتبك وضاح، ولم يدرِ ما يصنع.

مشى بهرام قليلًا، ثم جلس متربعًا على الأرض، أغمض عينيه، وبسط يديه أمامه، وقد وضع مرفقيه على ركبتيه، ثم صمت صمتًا طويلاً.

كان وضاح يراقبه بصمت، وعينه على كبير الخدم، الذي وقف هو الآخر متحفزًا، وكأنه ينتظر أمرًا ما.

لبث بهرام مليًّا على هذه الحال، ثم فتح عينيه، وأشار لكبير الخدم إشارةً خفية، انسل بعدها إلى الخارج بلطف وهدوء، أما وضاح فقد أشار له بكفه اليسرى، وأمره بالجلوس خلفه قريبًا منه.

فُتِح باب المغارة على مصراعيه، فدخل تسعة رجال عليهم هيئة العرب وثيابهم، تقدموا قليلًا، ثم سلموا على بهرام، فرد عليهم وحياهم واحدًا واحدًا، وهو جالس في مكانه لم يتحرك.

أخذ الرجال مجالسهم في صمت وسكينة، ثم جلسوا وكأن على رؤوسهم الطير.

لبثوا قليلًا على هذه الهيئة، حتى دخل رجل أبيض، طويل القامة، حليق الذقن، يرتدي سراويل فضفاضًا، وقميصًا أحمر ذا أكمام قصيرة، وما أن رآه بهرام، حتى وثب من مكانه، وصاح بأعلى صوته: خوش آمديد بهمن[1].

مشى إليه بهرام، فاعتنقه، ثم أمسك بيده، وأجلسه عن يمينه، وتحدث معه طويلاً بلغة لا يفهمها وضاح، ولا يبدو أن أحدًا من الحاضرين قد فهمها أيضًا.

أشار إلى كبير الخدم بالخروج، فخرج مسرعًا، واغلق الباب وراءه بإحكام.

التفت بهرام بعدها إلى الرجال، وقال:

باسم الملك الأعظم قباذ بن فيروز[2]، وعلى شرف رسوله الدهقان[3] بهمن، نفتتح مجمعنا الأول بحضوركم أيها السادة النقباء.

إن الملك المبجل قد أرسل لنا رسوله، يبلغكم سلامه، ويثني على بلائكم في الدعوة، ويشكر لكم صنيعكم فيها، ويعدكم وعدًا حسنًا، جزاء ما قدمتموه في سبيلها من تضحيات.

---

(1) عبارة فارسية، تعني: مرحبًا بك يا بهمن، بهمن هو اسم رسول الملك.

(2) إمبراطور فارسي كبير، من أعظم ملوك الدولة الساسانية، وقد حكم مدة تزيد عن 43 سنة من عام 488 م إلى أن توفي عام 531م، وخلفه من بعده كسرى أنوشروان الخير.

(3) الدهقان: كلمة فارسية معربة، تعني الزعيم أو التاجر الكبير.

ولكن هذا -كما تعلمون- في سبيل بناء الوطن الذي مزقته النزاعات، وتداعت عليه أطماع الأعداء من كل حدبٍ وصوب، حتى تنكر له أهله، فهجره بعضهم، وأقام فيه من أقام، لا همّ له سوى قوت عيشه ومصدر رزقه، أما عزة الوطن ومكانته بين أمم الأرض، فلم يعد يعبأ بها أحدٌ منهم.

لقد أرسلنا الملك المعظم لنعيد لليمن مكانةً سلبت، وعزةً بادت، ووحدةً تفرقت.

تحرك الرجال من الفرح والسرور، وعلت وجوههم بسمة الرضا والغبطة، ورفع بعضهم صوته، يحيي الملك، ويشكر بهرام، ويثني عليه.

انتظر بهرام حتى هدأ المجلس، ثم استأنف حديثه قائلًا:

لقد قلت لكم سابقًا: إن أعداءنا الروم قد وضعوا أعينهم على اليمن، طمعًا في نهب خيراته، ورغبة في السيطرة على دروب تجارته، وما هم إلا أمم متوحشة، اعتنقت دينًا جديدًا، يسمونه دين المسيح، ويزعمون أنه جاءهم من السماء، ثم ما لبثوا أن أرسلوا رسلهم، ينشرون دينهم، ويبشرون بعقيدتهم، وما هؤلاء الرسل سوى طلائع الجيش وعيونه، التي تمهد له السبيل، بامتلاك قلوب الرعاع، والتحكم في عواطف الدهماء باسم الدين، حتى إذا وصل الجيش كانوا هم الأداة، التي يسيطر بها على الوطن، ويستولي من خلالها على مقاليده.

أما ملكنا المعظم قباذ فلا طمع له في بلادكم بوجه من الوجوه، وإنما أرسلنا لننهض بوطنكم، ونوحد أجزاءه على غرار ما فعل هو وأجداده العظماء بنو ساسان في بلاد الفرس، لكي يعود اليمن سعيدًا كما كان.

هز الجميع رأسه إعجابًا بمنطق بهرام وحسن كلامه، بينما سرت في أعماق وضاح عاطفة جياشة، واستخفه الطرب لسماع هذا الكلام، الذي يلهب الحماس، ويستثير المشاعر.

التفت بهرام جهة رسول الملك، وبدأ بترجمة حديثه إلى الفارسية، وما أن فرغ من الترجمة، حتى واصل حديثه قائلًا:

لقد تعمدت طوال الفترة الماضية أن التقي كل واحد منكم على انفراد، لئلا ينكشف أمر هذه الدعوة للملأ، حتى يصلب عودها، ويشتد أزرها، أما اليوم فها نحن نتنقل إلى مرحلةٍ جديدة على شرف رسول الملك المعظم.

اعلموا أني قد اخترتكم أحد عشر نقيبًا، وأرسلت كل واحدٍ منكم إلى ناحية من نواحي البلاد للقيام بأمر الدعوة السرية، وسأخبركم بعد قليل بخطتنا القادمة.

أحد عشر نقيبا! نحن تسعةٌ فقط، فأين ذهب البقية؟ سؤالٌ جاء من زاوية المجلس اليمنى، طرحه رجل كث اللحية، صغير العينين، حاد النظرات.

ابتسم بهرام قائلًا: حسنًا يا عمران! لقد غاب عنا اليوم سيف وجبار، وهما من خيار النقباء، وأشدهم حرصاً على الدعوة، وحماساً لها، وقد أرسلا لي رسالة، يعتذران فيها عن التأخر بسبب انشغالهما ببعض أمرهما، وأرجو أن يلحقا بنا قبل أن ينفض اجتماعنا هذا.

وقع الخبر على مسامع وضاح وقوع الصاعقة، فخفق قلبه خفقانًا شديدًا، وارتبك ارتباكًا واضحا، أخذ يبتلع ريقه الجاف، وقد تشتت تركيزه تمامًا، فلم يعد يعي ما يقوله بهرام، بل بقيت عيناه مسمّرتان في باب المغارة، وهو ينتظر دخول سيف وجبار في أي لحظة، وكأنما ينتظر حتفه القادم وموته المحتوم.

طال المجلس، وتداول القوم الآراء، وفؤاد وضاح كأنه هواءٌ في جوف طائر قد علق في شبكة صياد، فلا يدري أيأتيه الموت من الأرض، أم ينقض عليه من السماء.

هيــه! أنت ماذا حدث لك؟ قم وافتح الباب!

قالها بهرام بحدة، بعد أن قبض على عضده قبضةً أوجعته.

قام وضاح مدهوشًا، يكاد يسقط من الرعب، وهو لا يدري لــمَ أمره بهرام بفتح الباب.

ليس في ذهنه سوى هاجس واحد: هل يقف سيف وجبار وراء هذا الباب الذي يوشك أن يفتحه أم لا؟

هل سيهجمان عليه ويقطعانه أربًا، أم يتركانه فريسة سائغة للوحش بهرام، ليذيقه أصناف البلاء وأنواع العذاب، قبل أن يقتله شر قتلة.

فتح الباب بصعوبة، وقد أغمض عينيه، واستسلم لقدره الأليم.

لم يعد يتذكر شيئًا.. فقد سقط أرضًا، وغاب عن الوعي.

◈◈◈◈

أفاق وضاح من غيبوبته، وفتح عينيه، وإذا بالمغارة قد اتشحت بسواد الليل، انفض الجمع، وتفرق الناس، ولم يبق أحد.

وليس ثمة سوى شمعةٍ ضئيلة، تعبث بها الريح في زاوية المغارة، يتموج النور الخافت مع هبوب الريح، فيبعث في النفس رهبةً، توحي لها وكأنما الأشباح العارية، تتراقص مع ظلال الأشياء المنعكسة.

أحس بصداعٍ شديد، فوضع يده على رأسه، وأخذ يتحسس العصابة التي ربطت بإحكام، رفع يده بسرعة، وأخذ يتفحصها تحت الضوء الخافت. ما هذا البلل؟ لـمَ كل هذه العصابة؟ كيف عدت إلى مرقدي دون أن أشعر بشيء.

نهض بصعوبة لكي يجلس، فلما رفع رأسه قليلًا، لمح عينان تبرقان على ضوء الشمعة الخافت، راعه المنظر، مع ما في نفسه من خوف، فاستلقى مرةً أخرى، وأغمض عينيه بشدة.

سرت في جسده رعشة الخوف، عندما أحس بيدٍ غريبة، قد قبضت على عصابة رأسه، انتفض في مكانه، وفتح عينيه، ليرى الطبيبة العجوز واقفةً عند رأسه، وقد هيأت عدتها، وأمسكت مشرطها لتفك العصابة.

استسلم بين يديها، وبقي ساكنًا حتى فرغت من عملها، ثم أمسكت بعضديه، وساعدته على النهوض، حتى جلس مستندًا على الجدار.

وقفت أمامه، تتفحص عينيه، ثم سألته بحدة:

ماذا دهاك؟ يرسلك بهرام لتفتح الباب، فتسقط مغمى عليك عند باب المغارة، دون أن تبذل أي جهد؟ لقد فحصتك فحصًا دقيقًا، فلم أجد سببًا لهذا الإغماء، ولا أظنه سوى سرٍّ دفين، تخفيه وراء هذا الصمت المطبق!

أشاح بوجهه عنها، وقام يتحسس جرحه الغائر في طرف ناصيته اليسرى، فقامت العجوز مدبرةً، تتهادى ببطء حتى خرجت من باب المغارة، دون أن تلتفت وراءها.

لبث وضاح حتى انبلج الفجر، وبدأ نوره يتسلل إلى جنبات المغارة، فنهض من مخدعه، ليجد الزينة قد عادت، والعرش قد انتصب في مكانه من جديد. أعد نفسه، وأصلح هيئته، ثم وقف مكانه المعتاد خلف العرش، وأقام ينتظر خروج بهرام.

◇◇◇◇

خرج بهرام مبكرًا على غير عادته، يصحبه رجل قصير القامة، أبيض الوجه، عليه ثياب العبيد الداكنة، جلس على العرش، وأقام هذا الرجل عن يمينه. لم يلتفت إلى وضاح، ولم يلق له بالاً بل استدعى كبير الخدم، وقال له: أدخل ذا نواس، ثم أغلق الباب، فلا يدخلنّ عليَّ أحد بعده حتى يخرج من عندي.

امتثل الخادم للأمر، ففتح الباب، ودخل ذو نواس، يعتمر كوفية سوداء صغيرة، قد وضعها على قنة رأسه، وأسدل قرنيه على صدغيه، وجعل يلتفت يمينًا وشمالاً، وكأنه يتفقد المغارة ليعرف مداخلها ومخارجها، فبادره بهرام قائلًا: أهلًا بالقَيْل[1] ذي نواس، تأخرت علينا كثيرًا يا رجل.

تقدم ذو نواس، وصافح بهرام، ثم جلس على الكرسي، وأخذ يحادث بهرام، ويختلس النظر إلى وجه وضاح، وكأنه غير مطمئن لوجوده، ففهمها بهرام، وطمأنه قائلًا: لا يشغلنّك هذا العبد، فهو أبكم لا يقدر على الكلام، وقد اخترته فيما سبق لكيلا يستطيع أحدٌ أن يتجسس على حديثي، أما هذا الخادم، فهو فارسي من خواص عبيد الملك قباذ وقد أرسله مع مجموعةٍ من الخدم، لأستغني بهم عن خدمة من سواهم.

عدّل ذو نواس من جلسته، ووضع قدمه على حافة الكرسي، ثم قال: إني أعلم جيدًا ما تقوم به يا بهرام في جميع أنحاء اليمن، ولن أعترض طريقك، طالما أخليت لي نجران، وتركتها خالصةً لي.

(1) ملك الناحية، أو زعيم المنطقة، بلغة حِمير.

تجهم وجه بهرام، ثم قال بحزم: لقد نقلت إليَّ عيوني أن أحد رهبان النصارى قد نزل نجران، وأخذ ينشر النصرانية هناك بأمر ملك غسان، وهو-كما تعلم- عاملٌ عند ملك الروم، وأخشى إن تركت نجران لك أن يغلبك النصارى عليها، ثم يمتد نفوذهم إلى كافة أرجاء اليمن.

غضب ذو نواس، فقال بحدة:

لَعَمْري إن عجزت عن حفظ بلاد آبائي وملك أجدادي، فأنا عن غيرها أعجز، فدعها لي، وسترى ما يسرك.

أجابه بهرام بهدوء: هل لك في حل وسط، يعينك على أمرك من جهة، ويطمئن به قلبي من جهة أخرى.

لا بأس، ما هو الحل برأيك؟ قالها ذو نواس، وقد أعرض بوجهه، فبدا أنفه الأحدب الطويل، الذي يكاد يصل إلى شفته العليا.

اقترب منه بهرام، وقال له: إن لي رجلًا في نجران، قد أبلى بلاءً حسنًا، حتى صار له شوكةٌ وأتباع، فإن رأيت أن تتحالف معه فافعل، على أن يبقى هذا التحالف سريًّا، لا يطلع عليه أحد، حتى أتباعكم المقربون.

ابتسم ذو نواس ابتسامة صفراء، فقال -وكأنه يريد إكمال فكرة بهرام التي راقت له كثيرًا-: حسنًا، أما في الظاهر فنكيد

لبعضنا، وربما جرت المناوشات الخاطفة بيننا، ليتوزع الناس بين المعسكرين، وليس ثمة سوى معسكرٍ واحد على الحقيقة.

قبض بهرام على يده بقوة، وقال:

يعجبني العمل مع الأذكياء أمثالك، نعم! وعندها لا نترك للعدو خيارًا، فهو إما أن يتحالف معي، أو يضطر للتحالف معك، فنمكر به وهو لا يشعر.

أجابه ذو نواس: ولكن من يضمن لي ألا ينقلب رجالك عليَّ بعد أن تقوى شوكتهم، ويزداد سلطانهم.

ابتسم بهرام، وقال: لقد تيقنتُ أن هذا الهاجس سيخطر ببالك لا محالة، فرتبت لك ترتيبًا، يضمن لك هذا الأمر ضمانًا تامًّا، إن الرجل الذي أرسلته إلى نجران، يقال له سيف، وهو الذي تولى أمر الدعوة هناك، أما أنت فسأرسل لك أخاه جبارًا، ليكون بمثابة الرهينة عندك، فهل يرضيك هذا؟

قال ذو نواس: نعم يرضيني بشرط أن يكتم نسبه، ولا يخبر به أحدًا من أتباعي، وألا يتواصل مع أحدٍ من أتباع أخيه أبدًا.

رد عليه بهرام: اتفقنا، المهم ألا تنسى أن هدفنا المشترك هو القضاء على هذا الدين الجديد، قبل أن يستفحل أمره.

قام ذو نواس، وهو يقول: ستأتيك الأخبار فلا تستعجل.

استأذن من بهرام، ثم مضى نحو الباب، وهو يقلب بصره ذات اليمين وذات الشمال، فلما وصل إلى الباب التفت جهة بهرام، وقال: وأنت! إلى متى تظل في هذا الكهف النائي، لا يدري عنك أحد؟

أجابه بهرام: قريبًا سأختار إحدى المدن، وأنزل فيها، رافقتك السلامة.

◇◇◇◇

تريث بهرام قليلًا، حتى خرج ذو نواس، وابتعد عن المغارة، ثم نادى على كبير معاونيه، وقال له بحزم:

اذهب بنفسك الآن، وأحضر لي سيفًا وجبارًا معًا على وجه السرعة، ستجدهما في مزرعة والدهما مُرة في أسفل وادي حريب[1].

أيقن وضاح أن الأمر جِدٌّ هذه المرة، فجمد في مكانه، وكأنه تمثالٌ مجوف، يبدو للعيان صلبًا متماسكًا، ولكن أدنى هبةٍ للريح سوف تلقيه على وجهه.

غدًا يصل سيف وجبار، وينتهي كل شيء، ويموت وهو في أنظار الناس عبدٌ أفاكٌ أثيم، قد خان من أولاه النعمة، وائتمنه على حياته.

---

(1) وادي يقع إلى الجنوب من مأرب، وهو معروف بوفرة مياهه، وكثرة مزارعه، وجودة مراعيه.

غدًا.. تطوى صفحةُ حياةٍ قصيرة، بدأت بالفقر والشقاء، واختتمت بالخزي والعار، لتذهب أدراج النسيان، ويلفها الفناء.

غدا.. يموت حلم العودة إلى حضن أمه الحنونة، الذي طالما داعب مخيلته في يقظةٍ أو منام.

غدًا.. يُقتل الحنين لبيت أسرته الصغيرة في سفح الجبل، لرائحة خبز أمه الحار، لصوت أبيه المتهدج، لألعاب إخوته الجميلة.

غدًا.. يموت، وتموت معه كل الأعذار، التي كان يعدها في نفسه، كلما آوى إلى فراشه، لعل الأيام أن تجود له بمقابلة أبيه، أو لقاء حبيبته لبنى.

وا رحمةً للضعيف الذي لا حيلة له، وللعاجز الذي لا قوة لديه.

هل سيموت صامتًا على يدي سيف وجبار؟ أم يتكلم مدافعًا عن نفسه، فيموت بين براثن بهرام!!

تتابع الزوار على بهرام واحدًا تلو الآخر، حتى انقضى مجلسه، فلما همّ بالقيام، نظر إلى وضاح خلسةً، فإذا وجهه قد اصفرّ، وعيناه قد احمرتّا من الألم والسهر، فصاح بكبير الخدم، وقال له:

أخرج هذا العبد من المغارة، فلا أريد لضيوفي أن يروه بعد اليوم على هذه الحال البائسة، وليكن تحت عينك دائمًا، فقد علم من سرنا شيئًا.

فرح وضاح بهذا الأمر فرحًا شديدًا، حتى كاد أن يقبل رأس بهرام، أو يحتضن كبير الخدم، ولكنه ثاب إلى رشده، وسيطر على مشاعره، لئلا ينكشف أمره. استدعاه كبير الخدم، وساقه أمامه بشيء من الغلظة، وكأنه يتشفى منه، حتى أخرجه من المغارة، فلما جاوز الباب، واختفى عن أنظار بهرام، ركله بقدمه ركلةً شديدة، أوقعته أرضًا.

سقط على وجهه وهو يضحك! نعم يضحك، يـــــا لها من ركلةٍ رائعة، إنها ركلة الحياة!

4

استدعى كبير الخدم عبدًا آخر، وقال له: خذ هذا العبد الأبكم، وألحقه بعبيد الخدمة الآخرين، فسيدي بهرام لا يريد أن يراه بعد اليوم.

أمسكه العبد بأذنه، وقاده حتى أدخله المغارة، التي ينام فيها العبيد، ويقيلون فيها بعد العمل.

وجم الخدم لحظةً، واعتراهم ذهول الصدمة، فلما أدركوا الأمر أخذوا يكيلون له السباب والشتائم، ولولا خوفهم من بهرام لانهالوا عليه ضربًا، أراد أن يجلس، فأخذوا يضيقون عليه، حتى ألجأوه إلى الكنيف.

لم يبد وضاح أي امتعاض، بل جلس حيث أرادوا له أن يجلس، وهو يقول في نفسه: لا بأس، الكنيف خير من المقبرة!

لكن ما سر هذا الحقد؟ ولـمَ كل هذا التشفي من قبل هؤلاء العبيد؟ ولم يسبق له أن أساء إلى أحدٍ منهم، بل أن أغلبهم لم يكن قد رآه من قبل.

لم يستوعب وضاح سبب ما حدث من الخدم، حتى سمع أحدهم يقول لآخر: هذا هو الحاجب الأبكم.

لم يشأ أن يشغل نفسه بسخرية هؤلاء المساكين، فليست سوى حسد أقران وغيرة أتراب، ولو علموا الأمر على حقيقته لأشفقوا عليه ورحموه، بدلاً من هذه الشماتة المرة.

انصرف العبيد إلى أعمالهم، وبقي هو في مكانه حائرًا في أمره، لا يدري أي مهمةٍ جديدة، سيسندها له كبير الخدم، كل شيء يهون –في نظره– إلا المغارة الكبرى.

لم يطل انتظاره كثيرًا، حتى قدم أحد الخدم يطلب منه أن يرافقه لإطعام كلاب الصيد، التي تأوي إلى حظيرة ملاصقة لمغارة الخدم على جانب الطريق.

نظر الخادم إلى جرحه الغائر الذي لم يندمل بعد، فأمره بتغطية وجهه، لئلا ترى الكلاب الدم. امتثل وضاح لأمر الخادم، وبالغ في تغطية وجهه، فهذا هو الطريق الذي سيأتي معه سيف وجبار صباح الغد.

بدأ الخادم بعدها في استعراض مهارته في إطعام الكلاب واللعب معها، ووضاح يصفق له ويشجعه.

رجع وضاح مع الخادم إلى مغارة الخدم، وفي نفسه شيء من الانقباض خوفًا من سخرية العبيد، فمن شمت به وتشفى منه لمجرد إخراجه من مغارة بهرام، سيشمت به حتمًا عندما يعلم أنه وظيفته الجديدة قد أصبحت إطعام الكلاب!!

لكنّ شيئًا من هذا لم يحدث، فقد لاذ العبيد بالصمت، وكأنهم قد رضوا بما آلت إليه حاله من مساواة معهم في البؤس والذل.

رمى بنفسه على الأرض، ونام ملء جفنيه حتى الصباح.

◈◈◈◈

أشرقت الشمس فاستيقظ وضاح، وقد اجتمع الخدم، وتحلقوا حول المائدة الحجرية، ينتظرون طعام الإفطار، لم يطل انتظارهم طويلاً، حتى جاء الطباخ بقدر العصيدة، ومعه سقاء فيه لبن، فهجموا على القدر، كما تهجم الضباع على فريستها.

استطاع وضاح أن يحظى بلقمتين أو ثلاثًا وسط هذه المعمعة، ثم غطى وجهه بإحكام، واتجه نحو حظيرة الكلاب، وأقام ينتظر قدوم الخادم.

تأخر الخادم، فجلس وضاح مستندًا على جدار الحظيرة، وجعل وجهه تلقاء الطريق، وكأنه ينتظر قدوم غائبٍ قد طال سفره.

ارتفعت الشمس ولم يأت أحد من هذا الطريق، بل حتى الخادم الذي أوكلت إليه مهمة إطعام الكلاب قد تأخر كثيرًا.

يبدو أن كبير الخدم قد تركه هنا مع كلاب الصيد عمدًا، لكي يعود نسيًا منسيًّا، بعد أن كان حاجبًا موقرًا، يشهد مجالس بهرام كلها، فلا وقت للصيد هذه الأيام في خضم الأحداث المتلاحقة.

آذاه حر الشمس، وطال انتظاره، فأحس بشيء من الضجر، وهم أن يرجع لمغارة الخدم، حتى سمع جلبة من تلقاء باب المغارة الكبرى، التفت بحذرٍ شديد، ليرى سيفًا وجبارًا قد خرجا معًا، يصحبهما كبير معاوني بهرام.

انسل خفية، ودخل الحظيرة، ثم أغلقها على نفسه، وجعل يرقب المشهد من بين أعواد الخشب المتلاصقة.

ودعهما كبير معاوني بهرام، وعاد أدراجه إلى المغارة، فأقبل سيف متجهمًا، تعلو وجهه كآبةٌ غريبة، في حين تبعه جبار، وهو يلتفت يمنةً ويسرة، وكأنه يرى هذا المكان لأول وهلة.

مر المشهد بسرعةٍ خاطفة، واختفى سيف وأخوه عن عيني وضاح، فانتظر قليلًا حتى ابتعدا عن ناظريه، ثم خرج من الحظيرة، وجعل يتابعهما ببصره، حتى زال بهما السراب.

أحس بشيء من الحزن والأسى، وحلت الشفقة عليهما محل الخوف منهما. ليتهما يدركان الأمر على حقيقته، بل ليتهما يعلمان أنهما مجرد خيطٍ من خيوط الشبكة الممتدة، التي ينصبها هذا العنكبوت الفارسي الماكر.

ليته يستطيع أن يخبرهما بأنهما كمن يحرق بيته بيده، ليدل عدوه على الموضع الذي يختبئ فيه قومه وعشيرته. وأيّ خيرٍ يرجى من صيادٍ مراوغ قد نصب أحبولته في أرض غيره، فإن وقع فيها صيدٌ أكل أطيب ما فيه، ورمى بفضلة طعامه لمن رضي بها، وإن أفلس من صيده قوّض شبكته، وارتحل عن تلك الأرض، وقد نفّر صيدها، وأفسد ماءها وهواءها

هيــــه! أنت تعال! نداء قطع عليه حبل أفكاره، فالتفت مدهوشًا جهة الصوت، فإذا بالخادم قد جاء بقطعة لحمٍ كبيرة، يحملها بيده اليسرى، وهو يقول له: خذ هذه القطعة من اللحم، وضعها للكلاب على الصخرة، ثم املأ الإناء حليبًا وضعه في الحظيرة.

انطلق وضاح ينفذ الأمر بخفةٍ ومهارة، بينما بقي الخادم يراقبه باستعلاء، فلما فرغ قال له: هذا طعامها في الصباح، أما المساء فضع لها لبنًا فقط، ولا تنتظر قدومي كل مرة، فهذه قد أصبحت مهنتك منذ اليوم. هل فهمت؟

هز وضاح رأسه مبديًا الموافقة، فانصرف الخادم، فلما مشى قليلًا، التفت إليه، وكأنه قد تذكر شيئًا، ثم قال بلهجة حازمة: اسمعني، راقب الحظيرة جيدًا، فإذا امتلأت روثًا فنظفها.

استدار الخادم ومضى، فجلس وضاح يراقب الكلاب الخمسة، وهي تمسك اللحم بأيديها، وتمزقه بأسنانها، وتتهارش فيما بينها، ما عدا كلبًا واحدًا، قد أضعفه الهرم عن اللحم، فاتجه إلى اللبن، وأخذ يلعقه بلسانه الطويل.

◇◇◇◇

اعتاد وضاح على مهنته الجديدة، حتى ألفته الكلاب، وأصبحت تهش له كلما رأته قادمًا من بعيد، أما هو فما أن يفرغ من إطعامها، حتى يصعد على الصخرة المقابلة، وينظر إلى الأفق البعيد، حيث تمتد جادة الطريق المتعرجة، ثم تختفي فجأةً وراء المنحدر السحيق.

يمضي الناس معها واحدًا تلو الآخر، ثم يزول أحدهم فجأةً، وكأن الأرض قد ابتلعته.

خطر له خاطر الهروب أكثر من مرة، ولكنه أحجم خوفًا من عيون بهرام وجواسيسه، الذين تمتلئ بهم شعاب الجبل ومضائقه، حيث يبدو بعضهم على هيئة راعي غنم، والآخر بثياب درويش منقطع للعبادة، والثالث على هيئة عابر سبيل ماضٍ في طريقه.

ليس هذا كل شيء، بل ثمة سبب خفي آخر يمنعه من الهروب، وهو أنه لا يدري إلى أين يتجه، فقد أضناه الترحال، ومل من التنقل والسفر، بعد أن خرج من مأرب طريدًا، ومن مزرعة الشيخ مرة قاتلًا، فهل سيخرج هذه المرة شريدًا، تلاحقه العيون في كل مكان؟

أقام على حاله تلك في صمت مطبق، لا يسليه سوى اللعب مع كلابه في النهار، وسماع ثرثرة الخدم قبل النوم.

لم يعد يبالي بمرور الزمن، فقد استوت الأيام والليالي عنده، توالت الأشهر وربما السنون، وهو لا يدري كم لبث على الحقيقة، فلم يعد فلاحًا يراقب وقت الزرع والحصاد، وليس راعيًا ينتظر موسم الربيع، ويخشى حرارة القيظ.

كل ما يعنيه هو أن الأعين التي كانت تراقبه وترصد حركاته عندما خرج من مغارة بهرام قد انصرفت عنه شيئًا فشيئًا، وأن الناس الذين عرفوه حاجبًا ذات يوم قد ذهبوا إلى غير رجعة، وحل محلهم أناسٌ جدد، لا يعرفون عنه سوى أنه مربي الكلاب الأبكم! حتى كبير الخدم الذي عينه بهرام مؤخرًا، قد أغفله وتناسى أمره.

◇◇◇◇

استمرت حياته على هذا المنوال ردحًا من الزمن، حتى بدأ يلاحظ أمرًا يبعث على الريبة، ويثير الشك في نفسه المتوجسة، كل

من خرج مع هذا الطريق لم يرجع أبدًا، حتى كبير معاوني بهرام قد خرج قبل أسابيع يصحبه جمع من الرجال وبعض العبيد، ولم يعودوا أدراجهم.

تناقص عدد الخدم بشكل كبير، حتى اضطر أن يذهب لجلب طعام الكلاب بنفسه بعد أن اختفى الخادم الذي كان موكلًا بذلك.

في بداية الأمر كان يعود بسرعة خشية أن يفقده أحد، فيظن أنه قد هرب، ولكنه ما أن يعود أدراجه حتى يكتشف أن الكلاب وحدها هي من فقدته!

لا يفهم ما يحدث، ولا يريد أن يفكر فيه أصلًا، فما جلب له هذا الشقاء سوى داء التأمل! استغرق في مهنته التي أخذت جل وقته ومعظم اهتمامه، لا سيما بعد أن أحب كلاب الصيد وأحبته.

خرج مرةً ذات مساء بعد أن أطعم الكلاب وسقاها، فسلك طريق صيده المعتاد، وابتعد عن المغارة على مهله، دون أن يعبأ به أحد.

لم يبرح المكان بعيدًا حتى وجد غارًا صغيرًا على جانب الطريق، فجلس فيه، ثم غلبته عيناه فنام ملء جفونه، ولم يستيقظ إلا بعد حلول الظلام.

نهض فزعًا، واتجه نحو المغارة، لكنه ما لبث أن أحجم عن المضي خوفًا من الحراس الذين يرتابون في كل شيء، يقترب من

المغارة، ولا سيما في ظلام الليل البهيم، وربما رماه أحدهم بسهم يَشُكُّ به فؤاده قبل أن يتبين شخصه. قرر أن يبقي ساكنًا في مكانه، حتى ينبلج الفجر، ويبصر النور، أحس براحة عجيبة، بعيدًا عن ثرثرة الخدم وإزعاجهم المتواصل في المغارة الضيقة.

ترتفع الأصوات فجأةً من ناحية المغارة، فيرتاع قلبه خشية أن يفقده القوم، فيخرجون في طلبه، ولكنها ما تلبث أن تهدأ كهدوء ليل الشتاء البارد الطويل، الذي صفت سماؤه، وسكنت ريحه.

نام مرةً أخرى، ولم يستيقظ إلا عند طلوع الشمس، فخرج على عجل وقد انقبض قلبه، وتسارعت نبضاته، وانتابه شيء من القلق، كلما اقترب من المغارة ولم يصادف أحدًا.

صعد على صخرة مطلة فرأى منظرًا عجيبًا، لم يخطر له ببال، الإبل وقد أنيخت بساحة المغارة الكبرى، والخدم يشدون أحمالها بالحبال، ويتناوبون على حمل الأمتعة والأثقال.

حانت منه التفافةٌ خاطفة نحو الطريق فلمح قافلةً أخرى قد مضت للتو تتهادى ببطء موليةً نحو الشرق.

راق له منظر القافلة، فاستقر على صخرته العالية، وأخذ يتابعها ببصره، حتى اختفت عن ناظريه شيئًا فشيئًا، كما تختفي أعلام السفينة عن شاطئ البحر. أغمض عينيه، وأحنى رأسه قليلًا، وكأنما قد بعث هذا الرحيل في كوامن نفسه شجنًا خفيًّا لا يدري ما سببه!

إنه رحيل وكفى.. عالمٌ ينفصل عن عالم، وأقدارٌ تفارق أقدارًا.

إنه رحيل وكفى.. لمجرد اسمه هيبةٌ تأخذ بمجامع النفوس، وتذكرها بحتمية الغياب السرمدية.

كم فيه من لوعة! وكم بين طياته من فرج، يحل معضلةً لا حل لها إلا بالفراق، ثم يخلق مشكلةً ليس لها إلا الوئام.

استغرق وضاح في تأمله العميق عن حقيقة الرحيل، حتى ثارت الإبل بأحمالها، وفارقت ساحة المغارة الكبرى، وسلكت سبيل القافلة الأولى، فما راعه إلا مشهد الرحيل، يتكرر أمام عينيه مرةً أخرى.

لبث في مكانه قليلًا، حتى تلاشت القافلة في عرض الطريق، ثم نزل من صخرته، واتجه نحو المغارة، فلما وصل إليها تبين له أن المكان خالٍ بلقع، وباب المغارة الكبرى موصدٌ، قد ردمت عليه صخرةٌ كبيرة، ولا يحرسه أحد. حتى الكلاب قد فتحت حظيرتها، وحلت سلاسلها، وغادرت مع من غادر هذا المكان.

لقد رحلوا جميعًا ولم يبق منهم أحد، فليرحلوا إلى الجحيم! هذه بشارة خير لم تخطر له ببال، لقد نسوه أو تناسوه عمدًا، ليتهم لا يذكرونه أبدًا، بل ليتهم ما عرفوه أصلًا.

حسنًا! يبدو أن قدره أن يغترب طول عمره، فإما أن يرحل بنفسه عن الناس، أو يرحل الناس عنه.

الفصل الرابع

الإياب

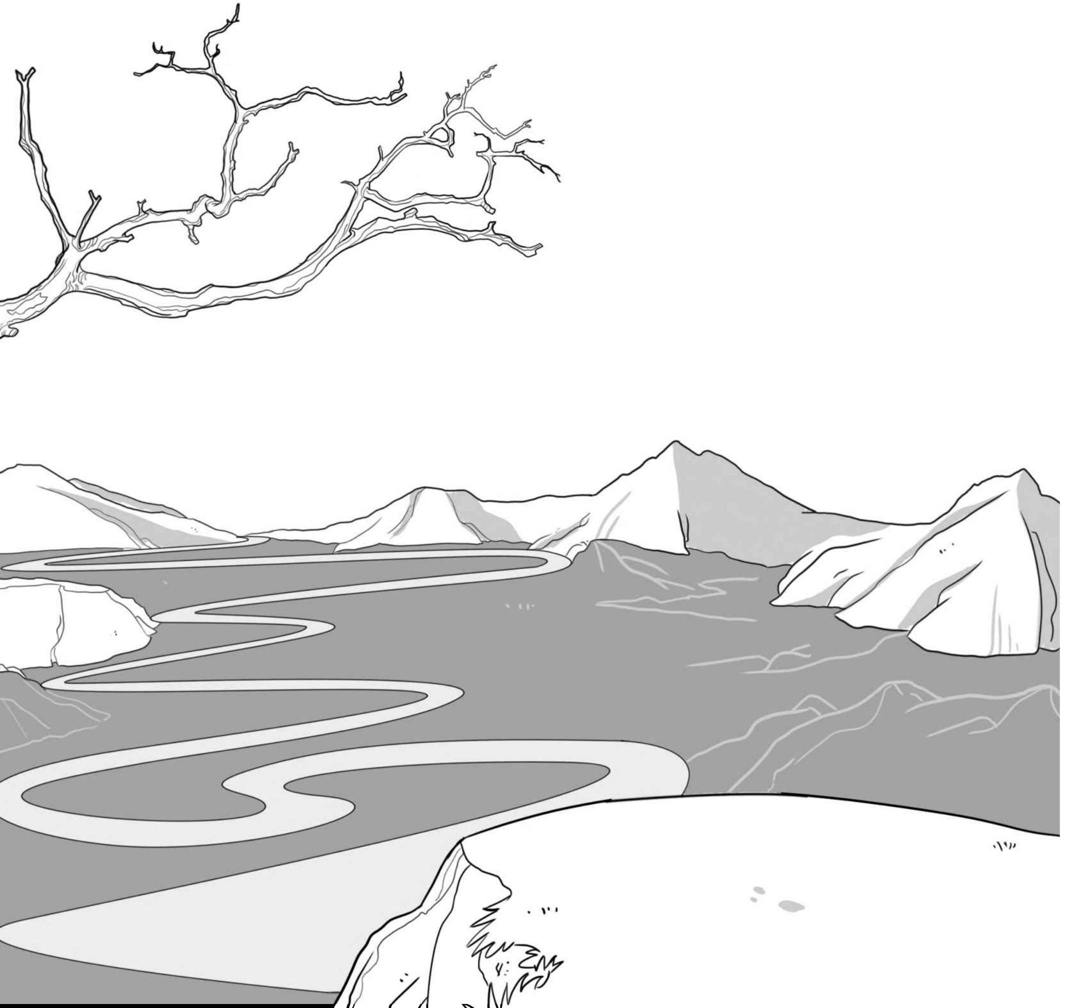

1

لا وقت للتردد والانتظار، ولا بد من الرحيل بسرعة قبل أن يرجع أحدهم إلى المكان، أو يفقده بهرام فيرسل في طلبه.

عاد مسرعًا إلى مغارة الخدم، يبحث عن شيء يعينه على السفر، فوجد مزادةً فيها حشفٌ يابس وشنة ماءٍ صغيرة[1]، فأخذهما على عجل، وسلك جهة الشمال، مبتعدًا عن طريق الشرق التي رأى القوم قد ساروا معها.

ما أروعه من فرار، وما أحلاه من هروب! لقد جرب الفرار من قبل، ولكنه هذه المرة مختلفٌ تمامًا، فهو فرار بطعم الخلاص من العبودية، إنه عتقٌ من قيود القهر والذل التي كبلته طويلاً، آه ما أجمل الحرية عندما تأتي دفعةً واحدةً بأقل ثمن!

ليس هذا فحسب، بل هذا الفرار خلاصٌ من قيدٍ ثقيل كان أشد وطأةً من العبودية وأقسى منها، إنه قيد الصمت الذي كان كشوكة السكين التي وضعت تحت حلقه، فإما أن يرفع رأسه طوال الوقت، وإلا انغرس نصلها الحاد في رقبته.

لم يستطع الانتظار حتى يبتعد كثيرًا عن المغارة، بل صعد صخرةً عالية تطل على الوادي المقابل، ثم صرخ صرخةً عالية، أودعها كل حرف حبسه في جوفه، طوال تلك الفترة من الصمت المطبق.

(1) الحشف: التمر اليابس. الشنة: قربة الماء اليابسة.

أحس بشيء من الرهبة، عندما جاوبته أصداء الجبال المتناوحة، فنزل من الصخرة بسرعة وأكمل، مسيره جهة الشمال. لم تكن الوجهة محددةً تمامًا، لكن الشوق يحدوه إلى مأرب والحنين يسوقه إليها.

تتابعت الأشواق تترى، وأقبلت أسئلة الحنين يمسك بعضها برقاب بعض:

- ما فعلت أمه سلمى؟ وماذا عن إخوته؟
- كيف حال أبيه بعد كل هذه السنين من الغربة المؤلمة؟
- مأرب كلها ماذا حدث لها بعد غيابه؟
- هل يحن إليه أحد؟ هل يذكره أحد؟ أم أنه قد صار نسيًا منسيًّا؟

◇◇◇◇

أمضى سحابة نهاره يتتبع رؤوس الجبال، ثم انحرف جهة الشمال الشرقي، حيث تنحدر الأودية بشدة نحو الشرق، حتى هبط على وادٍ ضيق، قد التف الشجر حول جنباته المتعرجة.

دخل في بطن الوادي فآنس حسًّا بين الأشجار الكثيفة، لا يدري ما مصدره، أوجس في نفسه خيفة من السباع، إذ لا سلاح معه، وقد دنا الليل، فانطلق هاربًا، فإذا هو بقطيع من الماعز، قد وقف راعيه متحفزًا عندما أحس بقدوم هذا الزائر الغريب.

توقف وضاح، وأشار بيده مسلمًا على الراعي، فرد التحية وهو قابضٌ على خنجره المعكوف.

اقترب منه وضاح، وهو يقول له: هدئ من روعك، فأنا رجل أعزل، قد ضل طريقه، وخاف من السباع.

هدأ الراعي قليلًا، فدنا منه وضاح، فإذا هو الراعي نفسه الذي لقيه أول مرة، عندما خرج من مأرب، همّ وضاح بأن يودعه، وينصرف من ساعته، لولا خشيته ألا يجد أحدًا سواه في هذا الوادي الموحش، فاضطر أن يبيت الليلة عنده، مع ما في هذا الأمر من مخاطرةٍ بحياته فيما لو عرفه الراعي فوشى به.

كان الراعي كريمًا في كل شيء، فما أن أمن جانبه حتى أطعمه وسقاه، ثم بدأ يسرد عليه قصة هذا الوادي، وكأن شيئًا لم يتغير منذ أن لقيه وضاح أول مرة، فهذا الوادي لا يزال أعلاه للرعاة، وأسفله للفلاحين.

استرسل الراعي في وصف الصراع الأزلي بينهم وبين المزارعين، ثم التفت على وضاح وسأله عن وجهته.

خشي أن يستدرجه هذا الراعي الثرثار بالكلام، ثم يتذكر ملامحه، فقال له: لقد سمعت بمأرب، فأردت أن أهاجر إليها طلبًا للرزق، هل سبق أن ذهبت إليها من قبل؟

ابتسم الراعي ببلاهة، ثم قال: أووووه! هذا حلم حياتي، الذي يأبى أن يتحقق، فقد كانت أمي تمانع ذهابي في السابق، فلما ماتت قبل أشهر عزمتُ على الرحيل، فأخبرني أحد أبناء عمومتي أن الأمور قد اضطربت في مأرب، فآثرت البقاء عند غنمي كما ترى.

قال هذا الكلام، ثم قام بخفة يصيح على غنمه، ويجمعها قبل حلول الظلام.

تغير وجه وضاح، فصاح بالراعي: اضطربت الأمور؟ هل تدري ماذا حدث هناك؟

أجابه الراعي وهو يسوق غنمه إلى حظيرتها: لا أدري، ولا أريد أن أدري، فليس لي فيها ناقةٌ ولا جمل، إنما هو حلمٌ يراود نفسي بين الفينة والأخرى، فقد مللت الحياة في هذا الوادي، وأريد أن أرى المدينة ولو مرةً واحدة في حياتي.

تبعه وضاح، وقد انقبضت نفسه، وأصابه غمٌّ شديد، لكنه آثر الصمت حتى وصل الراعي إلى حظيرة أغنامه، التي صنعها من أعواد الحطب اليابسة، ولبّدها بأغصان الطلح الشائكة.

وضع الغنم فيها، ثم أغلق بابها بإحكام، وأقبل على وضاح يتهلل وجهه بِشرًا، وقال له: مرحبًا بك، أنت ضيفي هذه الليلة، ثم أشار بيده إلى مكان قريب، وقال: هذا بيتي، حياك الله.

نظر وضاح إلى البيت فلم يجد سوى شجرةٍ يابسة، قد رصت فوق أغصانها جلودٌ مدبوغة، خيطت أطرافها بإحكام، والتف حول جذعها سترٌ مهلهل من صوف الماعز المغزول، بينما فرشت الأرض بحصباء ناعمة من مسيل الوادي.

تقدم الراعي قليلاً، ثم صاح بزوجته: يا سلمى، جاءنا ضيف فأعدِّي قِراه.

خفق قلب وضاح، وهاجت أحزانه عندما سمع اسم أمه، فسالت دمعته شوقًا إليها، وأخذ يلتفت إلى الجهة الأخرى، لئلا يفطن له أحد، بينما انشغل الراعي باستقبال ابنه ذي الثلاثة أعوام، الذي أقبل يركض حافيًا، ليس عليه ما يستره سوى قميصٍ بالٍ، لا تتجاوز أطرافه الممزقة أعلى فخذيه.

◈◈◈◈

خبز المَلّة يتقلب على الجمر، وتختلط رائحته الزكية مع دخان النار لتزيد من حرارة الجوع المتقدة في البطون الفارغة.

يتسلى وضاح بثرثرة الراعي وأحاديثه، التي لا تنقضي، فتارة يحدثه عن شجاعته في مقارعة الذئب عن غنمه، وتارة يحدثه عن الغول التي لا تخرج إلا ليلاً، فتضل السارين عن طريقهم، وربما تزوجت أحدهم أو أكلت بعضهم!

لم يشاركه وضاح في أي من أحاديثه الكثيرة، فهناك ما يشغل باله ويثير فضوله، ولا يستطيع أن يسأل عنه صراحةً، لبنى! تلك الفتاة الطيبة التي أحبها من كل قلبه، ماذا حدث لها بعد أن فجعتها الأيام بفراق أبيها وأخوتها، وربما أمها التي عهدها طريحة الفراش.

ليت هذا الراعي يكف عن حكايات الخيال، التي يكررها لطفله قبل النوم، ويتبرع بإخباره عما في نفسه دون أن يلجئه للسؤال، ولكن الراعي لم يفعل، ولا يبدو أنه سيفعل، لا سيما وقد بدأ يحدثه عن مغامرات أبيه وأجداده.

رفع الخبز من بين الجمر، ونفض عنه الرماد، فإذا نصفه قد احترق، وضعه على صفاةٍ ملساء أمام وضاح، ودعاه للأكل، وهو يعتذر عن إحراق الخبز.

قضم وضاح قطعةً من الخبز السميك، ثم خطرت له فكرةٌ ألمعية، يستدرج بها الراعي إلى ما يريد دون أن ينتبه لشيء من ذلك.

أمممممه! ما أطيب هذا الخبز، ولكنني لم أرَ مزرعة قمحٍ هنا في هذا الوادي. قالها وهو يعلج الخبز بين أسنانه.

أجاب الراعي باهتمام، وكأنه تذكر شيئًا يود الحديث عنه: مزارع! المزارع كثيرة في هذا الوادي، لكنها في أسفله، فنحن لا

نسمح لهم بالزراعة هنا، وإلا طردوا مواشينا، أما هذا الخبز فهو من مزرعة مُرّة، أووووه نسيت، لقد مات الشيخ مُرّة منذ زمن، وانتقلت المزرعة إلى غيره.

مُرّة! ومن مُرّة هذا؟ قالها وضاح باستنكار.

أجاب الراعي بحزن: لقد كان يملك أكبر مزرعة في هذا الوادي، حتى قتله رجلٌ غريب كان يعمل عنده!! أذكر أننا ذات صباح سمعنا صائحًا أسفل الوادي، فانطلقنا جميعًا حتى وصلنا المزرعة، فإذا الناس في أمرٍ مريج، وابنته تخمش وجهها، وتلطم صدرها، وتصيح بالناس: ويلكم ماذا تنتظرون؟ اخرجوا أبي! اخرجوا أبي!

فرفعناه من البئر ميتًا، قد ضربه القاتل على جبهته، وكسر رقبته، وألقاه في البئر، ثم هرب، فلم نقف له على عينٍ ولا أثر.

وضع وضاح يده على ذقنه، وقال: ولكن ألم يكن له أبناءٌ يدافعون عنه؟

أجاب الراعي: لم نجد أحدًا منهم، فأرسلنا في طلبهم، فجاء جبار بعد أن دفنا والده بثلاثة أيام، أما سيف فقد تأخر كثيرًا، ثم أتى بعد ذلك بزمن طويل.

استطرد الراعي قائلًا: إيــــــه من يصدق أن تؤول كل تلك المزرعة الكبيرة إلى الراعي الصعلوك حذيفة بعد أن تزوج ابنته لبنى أجمل بنات هذا الوادي.

وقع الخبر على وضاح وقوع الصاعقة، فحذيفة هذا كان بالفعل راعيًا صعلوكا، يكرهه مُرّة كرهًا شديدًا، مع أنه أحد أبناء عمومته الأبعدين، والأدهى من ذلك أن حذيفة يعرف وضاحًا معرفةً جيدة، فقد رآه أكثر من مرة.

لم يتكلم وضاح، بل ترك مجال الحديث للراعي، الذي استرسل كعادته:

طوال عمري أسمع عن الحظ السعيد، ولم يسبق لي أن عرفته حتى رأيت حذيفة أول النهار مسكينًا لا يملك غداءه، ثم رأيته مساء ذلك اليوم، وهو عريسٌ يملك مزرعةً وقصرًا، لقد كان هذا الصعلوك أجيرًا عندي على ملء بطنه، وكنت أمنحه المنيحة تلو المنيحة. أما اليوم فلا يكلمني إلا من طرف شدقه.

أجابه وضاح، وكأنه غير مهتم بالأمر: هذا شيءٌ عجيب، ولكن كيف حدث كل هذا في نهارٍ واحد؟

صمت الراعي قليلًا، وكأنه يستعيد أحداث ذلك اليوم، ثم قال:

نعم إني أذكر ذلك اليوم جيدًا، عندما جاءنا جبار وقت القيلولة مسرعًا، فأخذ حذيفة على عجل دون أن يكلمني، انتظرت حذيفة طويلاً، ولكنه لم يرجع، فذهبت إلى مزرعة مرة، فأبى أن يقابلني، ثم أخبرني الناس بعد ذلك أن سيفًا وجبارًا قد زوجاه

أختهما، رغمًا عنها، وسلماه كل شيء في المزرعة، ثم رحلا سويًا إلى جهةٍ غير معلومة.

صمت وضاح، وكأنه لا يريد أن يسمع شيئًا بعد هذا الكلام، الذي يبعث على الحزن والكآبة.

واصل الراعي كلامه، وأخذ يندب حظه التعيس حتى قطع عليه حديثه قدوم أحد الجيران، يسأل لبنًا. سكب له الراعي في إنائه، بينما انشغل هو بمخالسة النظر إلى وجه وضاح على ضوء النار المشتعلة.

2

أين ذهب النوم؟ ماذا ينتظر، وقد هدأ الليل، وانتظمت نجوم المجرة في كبد السماء، وكأنها عقد دُرٍّ يزين جيد المليحة السمراء؟ ولِمَ لا يأتي وقد ذهب الجوع، وبلغ الرِيُّ الضلوع؟

تململ وضاح على فراشه طويلاً، وهو يأمل أن ينام، لكي يستيقظ مبكرًا فبينه وبين مأرب مسيرة يوم وليلة، ولكن هيهات أن يداعب الكرى جفن عينه، وقد سمع كل هذه الأخبار، التي تقطر ألمًا، وتفيض حسرةً وندمًا.

واحرّ قلباه على لبنى! ليتها بقيت قصة ناقصة، يتسلى خياله بإكمالها كل ليلة، وتضيف لها أمنياته وأحلامه أحداثًا جميلة ينام على إثرها ملء جفنيه.

ليتها ظلت حوريةً تعاتبه كلما أوى إلى فراشه، تحلق في الفضاء مبتعدة عنه، فيطير خلفها، وهو يتلو عليها أعذاره، التي أعدها طول نهاره، حتى يَطيب خاطرها، فتمد له يدها، ويمسك بأطراف أناملها، ثم يحلقان سويًا بين السماء والأرض.

ليته لم يسأل وليت الراعي لم يجب! قاتل الله الفضول!

مضى أكثر الليل على هذا المنوال، فتارة يؤنبه ضميره، وتلومه نفسه لومًا شديدًا، وتارة تلجُ روحه في برزخ بين اليقظة والمنام، فيحار في أمره إذا زالت هذه الغشاوة، ولا يدري أكان نائمًا أم مستيقظًا.

انقلب على جنبه الأيمن، فرأى نجمة الصبح قد طلعت من المشرق، فأخذ يتأملها، وقد يئس من النوم، ولم يعد يفكر فيه، كان هذا اليأس بمثابة كلمة السر، التي ينتظرها النوم، فهجم دفعة واحدة، نام على إثرها وضاح نومًا ثقيلًا.

لكن! ما بال هذه الأصوات العالية التي أقلقت راحته، وأزعجت نومه؟ ألا يكف هذا الراعي عن الثرثرة قليلًا، حتى ينام ضيفه المنهك؟

لم تهدأ الأصوات ولو لحظةً واحدة، بل تزايدت وتيرتها، وصاحبها جلبةٌ شديدة.

رفع وضاح رأسه بتثاقل، فرأى منظرًا مهولًا، أفزع قلبه، وأطار النوم من عينيه...

الراعي قد وقف شاهرًا سيفه، وكأنه يستعد للمبارزة، استوى جالسًا، فسمع الراعي يقول بصوت عالٍ:

والله لن تصلوا إليه، حتى أهلكَ أنا وأهل بيتي جميعًا، ويحكم! هذا ضيفي الذي أكل من زادي، ونام على فراشي.

لم يستوعب الأمر جيدًا، حتى رفع رأسه فرأى حذيفة، ومعه رجل آخر قد أمسكا بمقابض السيوف، وهما يدوران حول الراعي.

لم يدر وضاح ما يفعل، أيهرب ويترك الراعي الذي يدافع عنه ببسالة؟ أم يهب لمساعدته، فيستثير خصومه، وينتهي الأمر بمعركةٍ دامية؟ قرر البقاء في مكانه يراقب الأمر عن كثب.

رفع حذيفة صوته، وقال للراعي:

ويحك! أتؤوي مُحدِثًا، قد قتل ابن عمي غيلةً وغدرًا، وتدافع عنه أيضًا؟ وحقِ ما أقسمت به العرب، لئن لم تسلمه لنا، لنجعلنّك صِنوًا له في جريمته، ولنأخذنّك بجريرته.

أجاب الراعي بسخرية: حنَانيك يا حذيفة، ولا تحدثني عن العرب، وقد هجمت على بيتي تريد أن تخفر ذمتي وتقتل ضيفي، ألا تعرف شيم العرب في الدفاع عن الضيف وحماية الحريم؟

رد عليه حذيفة بغضب: ثكلتك أمك! وهل ينام العربي عن ثأره؟

هدأ الراعي قليلًا، وقال له:

لم أقل لك نم عن ثأر ابن عمك، ولكني أقول لك: إن أصررت على قتله في بيتي، جعلت لي ثأرًا جديدًا عندك، وإنك لتعرفني حق المعرفة يا حذيفة، والله ما يُقَعْقَع لي بالشنان[1]، وإني لجريء الجنان، ومرهف السنان، فحكِّم عقلك، واغمد سيفك، حتى نتقاضى عند حكيم من حكماء العرب، فإن كان لك الحق أخذته كاملًا غير منقوص.

استمر النقاش الحاد بين الرجلين، بينما اقتربت سلمى من وضاح خلسةً وقالت له:

خذ هذا الخنجر، واهرب حالًا، فإذا جاوزت البيت، فانسل مع بطن الوادي، وامضِ مع أسفله جهة المزارع، وسأصرف وجوه القوم عنك.

لم يصدق وضاح بهذا الكلام، فانسلَّ من تحت الستر، يحبو تارةً، ويزحف تارةً أخرى، بينما خرجت سلمى، واتجهت إلى زوجها الذي يدافع عن ضيفه بشراسة، ثم قالت له بغضب:

---

(1) مثل عربي يضرب للرجل القوي، الذي لا يخاف من التهديد والوعيد، وأصل المثل: أن العرب إذا أرادت أن تنفر الإبل قعقعت لها قربة يابسة تسمى الشنة، فتخاف الإبل من الصوت، إلا البعير الصعب الشرس.

أتريد أن تهلكنا يا رجل؟ سلِّم القوم قاتل ابن عمهم، وإلا أصبح ثأر آل مرّة عندك.

دُهِش الراعي من كلام زوجته، الذي أخذه على حين غِرة، فصرخ في وجهها:

اغربي عن وجهي يا امرأة، ولا تتدخلي في شؤون الرجال.

رفعت صوتها، وكأنها تريد أن تستثير غضبه:

أهذا من شأن الرجال فقط؟ ألا تعلم أن الشيخ مرة من أبناء عمومتي أيضًا!

دارت الأرض بالراعي، واتجه نحوها، والشرر يتطاير من عينيه، فقال لها: ويلكِ! ادخلي خدرك، وإلا ضربت رأسك بحد السيف.

مضت المرأة تصرخ وتولول، وتدعو بالثبور وعظائم الأمور، حتى دخلت بيتها، فلما تأكدت أن وضاحاً قد جاوز الخطر، صرخت بأعلى صوتها: لقد هرب الغادر، لقد هرب الغادر.

انفض الاشتباك، وأقبل الثلاثة يشتدون ركضًا، فبادرها حذيفة بالسؤال: أين ذهب الرجل؟

أشارت بيدها إلى أعلى الوادي، وقالت: رأيته وقد جاوز أعلى الوادي ومضى يريد الجبل.

لم تكمل كلامها حتى انطلق الرجلان بسرعة البرق، بينما بقي زوجها مبهوتًا، لا يدري من أين أتاه الأمر، فأمسكت بيده، وقالت:

لا تخف، فقد خدعت عنك الرجال، وأمرت ضيفنا أن يمضي أسفل الوادي، فالحق بالرجال وشاغِلهم، لكيلا يفطنوا للخدعة سريعًا.

لحق بهم الراعي، وهو يصيح: على رِسلك يا حذيفة! فهو لا يزال ضيفي حتى وإن هرب.

لم يلتفت إليه حذيفة، بل مضى هو وصاحبه ينقبان عنه بين الصخور، ويبحثان عنه في مضائق الوادي.

◈◈◈◈

انقطع نَفَسه فلم يستطع مواصلة الهرب، بعد أن شارفت الشمس على المغيب، وهو لا يزال بين عدوٍ وهرولة، منذ أن طلع الصباح.

استند على صخرةٍ كبيرة، وجعل وجهه تلقاء الوادي، وأخذ يراقب المكان بحذرٍ شديد، وهو يتابع أنفاسه المتلاحقة.

لم ير ما يثير خوفه، فشعر بشيء من الراحة والاطمئنان، لا سيما وقد جاوز حمى وادي حريب، واقترب من مأرب بعد أن طوى مسافة اليوم والليلة في نهارٍ واحد.

أكمل مسيره جهة الشمال، محاذيًا لجادة الطريق، دون أن يسير معها، خوفا من مطارديه، توارى قرص الشمس خلف ذروةٍ من الذرى الغربية، بينما بقي شعاعها الأحمر يضيء قمم الجبال الشاهقة، التي تفصل بينه وبين مأرب.

زال خوف المطاردة من نفسه، وبقي هم المبيت في هذا المكان المقفر الذي يمور ليله بالسباع الضارية والوحوش الجائعة، وليس معه سوى خنجرٍ قديم أهدته له سلمى.

رعى الله سلمى، ليت كل النساء مثل سلمى! كيف هداها عقلها إلى تلك الحيلة الذكية في ذلك المقام الضنك، حيث تطيش حلوم الرجال. لقد حفظت ذمام ضيفها، ورعت جوار بيتها، وخلصت زوجها الشهم من أن يتحمل ما لا طاقة له به.

اقترب من الطريق، ونظر إلى الجادة، فإذا آثار جديدة لم تجِفَّ بعد، أدرك أن ثمة قافلة بالجوار، فصعد تلة قريبة، ليرى ركبًا قد أناخوا بجوار الكثيب الأحمر عن يمين الجادة.

أحس بشيء من الأنس، فقرر المبيت قريبًا من هؤلاء القوم، دون أن يخالطهم، فلا يزال في قلبه خوف من الرَّصَد(1).

عقل القوم إبلهم، وأطالوا حبالها، ثم ربطوا كل بعيرٍ بجوار شجرةٍ من الأشجار، وأشعلوا النار، فتحلق بعض القوم حولها، بينما تمدد بعضهم الآخر على الكثيب، وكأنه يستعد للنوم باكرًا.

---

(1) العيون والجواسيس.

سكن وضاح في مكانه حتى حل الظلام، ثم زحف إلى شجرة طلح كبيرة في مسيل الوادي، وهو يجمع في يده شيئًا من الأعشاب الخضراء، التي أبقاها صيف الصحراء اللاهب.

وصل إلى الطلحة فتسلق جذعها بخفة، حتى وصل إلى أعلاه، حيث يتفرع إلى ثلاثة أغصانٍ ضخمة، أعجبه هذا المكان، الذي يصلح مبيتًا عاليًا، يقيه غائلة السباع.

تحسس أحد الفروع بحثًا عن أي ثمرةٍ، يسد بها رمقه، فوخزته شوكةٌ حارة، أجبرته على أن يكتفي بما في يده من أعشاب، لف حزامه الطويل حول الجذع، ثم ربط جسده النحيل ونام.

لم يكن الوضع مريحًا أبدًا، لكنه خير له ألف مرة من أن يقدم حذيفة دمه قربانًا، يتقرب به إلى لبنى وإخوتها الموتورين[1].

◈◈◈◈

بزغ الفجر، واستيقظ وضاح، وهو يشتكي ظهره الذي أوجعته الجذوع الصلبة، وجِلده اليابس، الذي قرصه البرد آخر الليل، ولكنه نام على أي حال.

نزل من الشجرة وصعد التلة بهدوء وحذر، وأخذ يراقب القافلة التي لم يستيقظ فيها أحد سوى الإبل، التي تجتر ما التهمته من أشواك الطلح وأوراقه.

---

(1) جمع موتور، وهو الرجل الذي قتل له قتيل، فلم يأخذ بثأره.

رجع إلى شجرته التي نام فيها، يبحث هذه المرة عن الصمغ الذي رآه في أحد الغصون القريبة، ثم عاد إلى مكانه، وقد امتلأت يده من بلورات الصمغ الذهبية، وأخذ يلتهمها واحدةً تلو الأخرى، وعينه على القافلة التي بات، وكأنه يحرسها طوال الليل.

قام أحد الرجال يتثاءب، ويفرك عينيه، ثم أقبل يمشي حتى قطع جادة الطريق، واتجه مباشرةً نحو التلة التي يجلس عليها وضاح.

كتم وضاح أنفاسه، وقبض على خنجره، وأخذ يراقب المشهد بقلقٍ بالغ، بينما اقترب الرجل متمهلًا، حتى لاذ بصخرة كبيرة عند أسفل التلة، وجلس يقضي حاجته.

قام الرجل وأخذ يلتفت يمنةً ويسرة، وكأنه يتفقد القافلة، نظر إليه وضاح بتمعن فعرفه جيدًا.

قاتله الله! لا حياه الله! ماذا يريد هذا العنكبوت من مأرب. عباراتٌ يرددها وضاح، وهو ينسل من الجهة الأخرى، ويمضي هاربًا إلى الجبال مرة أخرى.

3

نعم.. إنها مأرب وهذه هي القمة نفسها، التي وقف عليها مودعًا، منذ ما يربو على اثني عشر عامًا.

ما أروع نسيمها، وما أطيب ريّــــاها.

رعـى اللّه مـأرب، كلمـا غـرد طائـرٌ علـى فـنن، وكلمـا ناحـت حمامـةٌ علـى غصـن.

رعى اللّه مأرب، ما أجملها من بلد! وما أروعها من مدينة!

حـين تـرى الكثيـب النـاعـم يصافح وجـه المـاء، والجبـل الأشـم يغـازل الحديقـة الغنـاء.. فأنت في مأرب.

عندمـا تحـار في أمـرك فـلا تـدري أأنـت واقـف علـى ضفـاف نهـر، أم بـين جنـان خضـر، أم في رمـالٍ حمـر.. فأنـت في مـأرب.

سـقى اللّه مغانيهـا التـي لا تملهـا الـروح، ومعاهـد الصبـا وملاعـب الطفولـة بـين ربوعهـا الفيـح.

ولكـنّ مـأرب قـد تغـيرت كثـيرًا في سـنوات الغيـاب القليلـة، توسـع عمرانهـا، وكـثر بناؤهـا، وازداد سـكانها.

حتـى مزارعهـا التـي كانـت تحيـط بالـوادي إحاطـة السـوار بالمعصـم، ولا تجـاوزه إلا قليـلًا، أصبحـت تجاور الصحـراء، وتزحف علـى سـفوح الجبال،

أيـن بيـت والـده الـذي عهـده وحيـدًا في سـفح الجبـل المقابـل؟ لقـد كـثرت حولـه البيـوت، حتـى مـا عـاد يمكن تمييـزه مـن أعلـى هـذه القمة؟

لقد طغى البنيان على كل شيءٍ تقريبا، حتى الذكريات لم تسلم منه أيضًا، لم يبق منها سوى ما عجزت أيدي الناس عن اقتلاعه.

هذا عرش بلقيس قد سقط عمود من أعمدته الضخمة، فأصبحت حجارته العتيقة نهبًا في أيدي الناس يرممون بها بيوتهم وأسوار حدائقهم.

يا ويح مأرب! كيف رضيت بذلك وهي ترى إرشيف الزمان وشواهد التاريخ تتهاوى بأيدي أناس يستغرقون في حاضرهم، وينسون ماضيهم، ولا يبالون بمستقبل من بعدهم.

◈◈◈◈

خواطر متضاربة، يتسلى بها وضاح، وقد جلس على صخرةٍ عالية، يراقب مأرب من قمة الجبل.

تلح عليه هذه الخواطر، وكأنه يريد أن يهرب من الحيرة التي تنتابه، كلما أراد الدخول إلى المدينة، فهو لا يدري كيف يدخلها بأمان، وقد خرج منها أشبه ما يكون بالطريد، ثم انقطعت أخباره عنها مدةً من الزمن، لا سيما وقد رأى قافلة بهرام تدخلها في رابعة النهار.

الرعـــــاة.. وجدتها أخيرًا. قالها بصوتٍ مسموع، وكأنه يخاطب أحدًا.

نعم.. فهم ينزلون أطراف المدينة، وقد رافقتهم زمنًا، فعرفتهم وعرفوني، ليتني أعثر على أحد أعرفه منهم! لا.. بل سأبحث عن ابن خالتي زيد.

نزل من القمة على عجل، وقد داخله شيءٌ من السرور، هو يثني على عقله الفذ، الذي هداه لهذه الفكرة الرائعة.

التف حول الجبل مبتعدًا عن المدينة، ثم سلك بطن الوادي، يبحث عن الرعاة، وسرعان ما عثر على أحدهم، وكان شابًا صغيرًا، فسأله عن زيد فلم يعرفه الراعي، لكنه أشار إلى غنم راتعة في سفح الجبل، وقال لوضاح: اذهب إلى تلك الغنم، فراعيها كبير السن، يعرف كل الرعاة هنا.

شكره على لطفه، ومضى يسابق الشمس، حتى وصل إلى الغنم، فوجد الراعي متكئًا على عصاه، وقد جعل يده فوق عينيه، وكأنه يدقق النظر في وجه هذا الزائر الغريب.

دنا منه وضاح، فإذا هو كهل أسمر اللون، قد اختلط شيب لحيته بسواد شعر رأسه، لم يعرف أي منهما الآخر، فسأله وضاح عن راعٍ يقال له زيدٌ، فلوى يده، ووضعها تحت ذقنه، وقال:

أعرف جميع الرعاة هنا، وليس فيهم أحد اسمه زيد.

أحس وضاح بخيبة الأمل المريرة، ومضى يجر خطاه، وهو لا يدري ما يفعل، أيكمل مسيرة البحث عن زيد؟ أم يذهب إلى بيت

أبيه مباشرةً؟ أم يرمي بنفسه في دوامة المدينة، لعله أن يعثر على أحد أصدقائه القدامى؟ ولكنها مغامرةٌ محفوفة بالأخطار، فربما ظفر به عدوٌّ، أو وشى به واشٍ، قبل أن يصل إلى مأمنه، لا سيما وهاجس الخوف من بهرام لا يزال يكدر عليه فرحته برؤية مأرب مرةً أخرى.

لبث الراعي يقلب كفه، وكأنه يستحث ذاكرته، ثم صاح قائلًا: يا هذا! لا أعرف أحدًا هنا يقال له زيد، إلا سيدي زيدٌ صاحب هذه الغنم، ولكنك تسأل عن راعٍ.

توقف وضاح عن المشي، والتفت إلى الراعي، وقال له باهتمام: ما اسم سيدك وما صفته؟

استغرب الراعي من السؤال، فأجاب: اسمه زيد بن أسلم، أما صفته، فانتظر قليلًا، فإن كنت محظوظًا فسيأتي على عادته كل مساء.

انفرجت أسارير وضاح، وتهلل وجهه، فسأل الراعي: من أي طريقٍ سيأتي سيدك؟

أشار الراعي بيده إلى جهة المدينة، ثم انطلق نحو غنمه، التي مضت مُصعِدةً في عرض الجبل.

◇◇◇◇

كمن وضاح وراء صخرةٍ كبيرة بجانب الطريق، وأقام ينتظر زيدًا على أحر من الجمر، وقد أجهد ذهنه يحاول أن يرسم صورة لزيد في مخيلته، بعد أن أصبح سيدًا يلف العباءة على منكبيه، ويكور العمامة على رأسه.

زيد أصبح سيدًا.. بخ..بخ، كل هذه المواشي له، بعد أن كان مجرد راعٍ أجير عند أحد الوجهاء. اللهم لا حسد..اللهم لا حسد.. إنه يستحق ذلك، فقد كان حريصًا على معالي الأمور، يشهد مجالس الملأ، ويخالط علية القوم، ثم هو طيب النفس، حسن الأخلاق، كريم المحتد[1].

غربت الشمس، وبدأ الظلام يخيم على الأرجاء، فتضاعف قلق وضاح، وساورته الظنون حين تأخر الوقت، ولمّا يأت زيدٌ بعد، ليت الحظ يسعفه هذه المرة، فنفسه المعذبة لا تحتمل الانتظار ليلةً ثانية.

لم يلبث طويلاً حتى قدم زيد، يمتطي بغلةً بيضاء، وقد لبس لباس السادة، وكأنه قادمٌ من محفل، لم يستطع وضاح الانتظار، وهو يرى صديقه وابن خالته، الذي فارقه منذ زمن، فقفز في الهواء، وصاح صيحةً قوية: زيد..زيد!

نفرت البغلة نفورًا شديدًا، وألقت بزيد من على ظهرها، فسقط على الأرض، يستعيذ من الجن تارةً، ويتأوه تارةً أخرى وهو

---

(1) شريف النسب.

لا يستطيع النظر إلى هذا الكائن الغريب، الذي خرج في وجهه وقت انتشار الجن والشياطين.

نهض لكي يقوم، ويلحق البغلة التي ولت، تشتد مع جادة الطريق، فبادره وضاح قائلًا: زيد! انظر إليّ، أنا وضاح.

أصابه رعبٌ شديد، فجعل يقرأ رقية الجن، ويقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، ألوذ بملك الجن من همز الشياطين ولمزهم.

لم يستطع القيام، فأخذ يزحف زحفًا، فاتجه وضاح نحوه، وقال بإحباط: زيد ماذا دهاك! أنا ابن خالتك.

تماسك زيد، ثم قال برعب: يا هذا إن كنت من سكان الأرض فانصرف عني راشدًا، فإني لم أوذكم يومًا قط، وسأرتحل عنكم بغنمي حالاً.

جلس وضاح على الأرض، وقد استبد به الإحباط، فقال: ويحك يا زيد! ماذا حدث لعقلك؟ أتحسبني من الجن والعفاريت، وأنا ابن خالتك سلمى؟ حتى أنت تريد أن تتنكر لي أيضًا.

نظر إليه زيد، فرأى رجلًا نحيلًا قد طال شعره، وتمزقت ملابسه، فقال وقد اعتراه ذهول الصدمة:

حقًّا إنك تشبه وضاح، ولكن وضاح قد مات منذ زمن!!

أنـــــا ميتٌ منذ زمن! ما هذا الكلام يا زيد؟ لقد أجهدت نفسي بحثًا عنك، ولم يَدُرْ في مخيلتي أن استقبالاً كهذا سيكون بيننا بعد أن طالت غربتي وتضاعفت وحشتي.

أجابه زيد بحزم: لن أكلمك حتى تقسم لي أيمانًا مغلظة: أنك ابن

خالتي وضاح، ولست جنيًا، يوشك أن يتلبسني.

رفع وضاح سبابته إلى السماء، وقال:

أقسم برب جدتنا بلقيس، الذي سخّر لها الجان، وصَفّد لها المردة، وأعلى لها صروح البنيان، أنني وضاح بن صخر.

قام زيد من مكانه، ثم اقترب من وضاح بحذر بالغ، وهو يقول: هذا أمر عجيب! فأين كنت طوال هذه المدة؟

أجابه وضاح بلهفة: إنها قصةٌ طويلة، سأقصها عليك لاحقًا، ولكن أخبرني أنت أولًا عن حال أبي وأمي!

أجابه زيد بحزن: لقد مر زمنٌ طويل على غيابك، ولولا أنك سألتني لما كنت أول من يخبرك إنهما قد ماتا منذ زمن في الوباء، الذي عم مأرب قبل ثلاث سنين.

وضع وضاح وجهه بين كفيه، وأخذ يبكي بكاءً مرًّا، بينما اقترب منه زيد، وجعل يربت على منكبه النحيل.

4

وضاح..قصتك عجيبةٌ فعلًا ولكن..أنت ميتٌ في حساب أهل مأرب، ويجب أن تبقى كذلك. قالها زيد بحزن، وهو يمسك بلجام بغلته.

صمت وضاح طويلاً، ثم قال:

ومن قال لك: إنني كنت حيًّا، الغربة موتٌ بطيء، يتجرعه الغريب كل يوم، وأشد منها أن يتنكر لك الوطن، الذي تحن إلى ترابه، وتهفو صبابةً إلى أهله.

واحرّ قلباه! ليتني وجدت أمي وأبي على قيد الحياة لهان عليَّ كل شيء.

انخرط وضاح في بكاءٍ مرير، ثم التفت إلى زيد، وقال له: وأين أخواي؟ هل ماتا أيضًا؟

لا إنهما بخير، وقد هاجرا منذ سنتين إلى نجران، ثم انقطعت أخبارهما عنا، وانشغلنا نحن بما نزل بنا من نوائب الدهر. أجابه زيد، وهو يربت على كتفه.

هدأ وضاح قليلًا، وقال- وكأنه يعزي نفسه- هذا أهون الشر، ولكن أخبرني ما الذي أصابكم بعدي، فقد نُقل إليَّ أن أموركم قد اضطربت، وأحوالكم قد اختلت.

تنهد زيد بعمق، ثم قال:

إيــــــــه يـا وضـاح، حقًّـا إن الزمـن مـا نُحِسُّ بـه لا مـا نحسبه، كأنها كانت قرنـًا كاملًا، ولم تكن اثني عشر عامًا. لقد تغير فيها كل شيء، أتذكر حين ضاعت غنم أبيك، فخرج الناس يبحثون عنها؟

نعم أذكره وكأن الشمس لم تغب دونه يومًا واحدًا. قالها وضاح بحسرة.

نظر زيد إلى السماء الصافية، ثم قال:

عاد الناس من رحلة البحث تلك، وقد أصابهم الذعر، وحل بهم الفزع، ولا حديث لهم سوى أنهم رأوا الجن، وقد اختطفتك على باب مغارة الهول، ثم شاع الخبر في مأرب كلها، فزعم بعض الناس أنه رأى الشياطين تطير بك ليلًا إلى جو السماء، حتى اختفيت عن الأنظار، فلبثنا على ذلك أيامًا حتى أرجف الناس بالجن والعفاريت، وخاف منها النساء والأطفال في البيوت، ووصل الأمر بالرعاة أن تركوا الرعي بعيدًا عن المدينة، فجمعنا الكاهن الأكبر -كنانة بن عوف- وخطب فينا خطبةً بليغة، أكد فيها ما كان يقوله لنا عن مردة الشياطين في مغارة الهول، وحذرنا منها مرارًا، وأخبرنا أنه قد عين حارسًا يحرس المغارة، لكي لا يضل أحدٌ طريقه، فيقع فيها وهو لا يشعر.

ثم بشرنا أنه قد أعاد الرقية على المدينة كلها، وتحدث إلى ملك الجن في وادي مأرب، وأمره أن يكف شره وأذاه عنا، فاستجاب لطلبه، ومنع سفهاء الجن من التعرض لنا.

أما أنت فقد أخبرنا أن الجن قد لبستك، حتى صرت واحدًا منهم، ولا سبيل إلى عودتك، إلا بعد أن يرضى عنك ملك الجن.

فتح وضاح فاه، وهو يسمع هذه الحكاية الغريبة، ثم قال: زيد ما هذه الخزعبلات؟

أجابه زيد: هذا ما كان يخبرنا به الكاهن الأكبر، وقد أجمع الناس على تصديقه، وحين طالت غيبتك، لم يشك أحد في هلاكك.

ولكنها محض هراءٍ وكذب. قالها وضاح بشيء من الغضب.

قال زيد: ثمة هاجس مقلق كان يراود نفسي بين الفينة والأخرى، ولم أبح به لأحد، بل كنت أرده وأدفعه، حتى لا يستولي على عقلي، أما اليوم فقد تأكد لي أنه لم يكن هاجسًا فحسب، بل كان حقيقةً تطل برأسها من وراء حجاب التقديس وهالة العظمة.

أجابه وضاح: صحيح! كثيرًا ما كانت القداسة حاجبًا دون وجه الحقيقة، ولكن ما هذا الهاجس الذي بعث الريب في نفسك؟

التفت زيد يمنةً ويسرة، وكأنه يخشى أن يسمعه أحد، ثم قال بصوتٍ خافت:

يساورني الشك أن الكاهن الأكبر يخفي شيئًا خلف هذه الهالة، التي يصنعها لمغارة الهول.

قال وضاح بضجر: لا بارك الله فيها من مغارة، كادت أن تذهب بعقلي، حين دخلتها وأنا لا أشعر، ولكنك لم تخبرني ما الذي حدث لمأرب، حتى تضطرب أمورها، ويتكدر صفو عيشها؟.

قال زيد: لقد ساءت العلاقة بين عدي بن عمرو الذي أصبح قَيْلًا لمأرب بعد مرض عمه، وبين الكاهن الأكبر، حتى بلغت حدًّا خشينا فيه على المدينة بأجمعها، ولولا وجود الشيخ رياح بن قيس لنشبت الحرب العضال بينهما.

صعق وضاح، فقال بدهشة: ويحك يا زيد ما هذا الكلام، ألم يكونا حليفين منذ أن نزلت قبيلتنا في مأرب.

أجابه زيد: على كل حال الأمور هادئةٌ هذه الأيام، ولكني أرى وميض الجمر خلل الرماد، وقد قدم علينا بهرام يوم أمس، ولا أدري كيف ستنتهي بنا الأمور.

هذا العنكبوت الخبيث! والله ما جاء إلا لشر، فكيف رضيتم أن يدخل مدينتكم، ويقيم بين ظهرانيكم؟ قالها وضاح بغضب.

أجابه زيد: لقد فرح الناس بمقدمه، فهو كما يظنون تاجرٌ كبير يقرضهم الأموال، ويشتري بضاعتهم بأغلى الأثمان، ولولا ما أخبرتني به آنفًا لخفي عليَّ أمره، كما خفي على غيري من أهل مأرب.

أجابه وضاح بحزم: والله لا يدخل مثل هذا العنكبوت في بلد ويصلح شأنه أبدًا، فأخرجوه من بينكم وإلا فسد أمركم، واختل نظامكم.

قهقه زيد قائلًا: ومن قال لك إن الأمر صالح أصلًا، إن أتباع الكاهن قد أشاعوا بين الناس أن عدي زنديق يحارب دين جدتنا، ولا يبالي بتعاليمه، والقَيْل عدي ومن معه يتهمون الكاهن بالمتاجرة بهذا الأمر، والتدليس على الناس به، وأخذ أموالهم دون وجه حق، والعامة قد انقسمت بين هذا وذاك.

أكمل زيد كلامه، ثم قام وهو يقول:

لقد تأخر الوقت كثيرًا، ولا بد أن أعود الآن إلى منزلي، أما أنت فلا بد أن تمكث في هذا الجبل، وتقيم فيه حتى نحتال لك حيلةً ندخلك بها المدينة، وإياك أن تخرج أمام الناس فتحرج الكاهن الأكبر، فإني لا آمن عليك غائلة أتباعه.

قهقه وضاح بصوت عالٍ، ثم قال:

ومن قال لك إنني سأبقى ليلةً واحدةً في مأرب، سألحق بإخوتي في نجران، أنسيت أن بهرام فيها أيضًا؟ أتظنه يتركني حيًّا، وقد عرفت أسراره كلها؟

تمسك به زيد، وقال له: وضاح أرجوك أن تبقى هنا، فمأرب في أشد الحاجة لك، أرجوك ألا تتخلى عنها في هذا الظرف الحالك.

رمى وضاح بيد زيد، وقال له:

أتهزأ بي يا زيد؟ ومن أنا حتى تحتاجني مأرب؟ وكيف أسكنها وأنا لا آمن على نفسي فيها؟

أمسك زيد بيده مرة أخرى، ثم قال: وضاح! ستعلم غدًا كل شيء، فبحقي عليك ألا ترحل حتى تسمع مني.

أشار وضاح بيده، قائلًا: لك يا زيد ليلةٌ واحدة فقط، فإن تأخرت عني رحلت عنكم، وبقيت ميتًا في أعينكم كما تريدون.

أجابه زيد: أحسنت يا وضاح، ولكن احذر أن يراك أحد، وخصوصًا هؤلاء الرعاة، فلا شأن لهم هذه الأيام سوى نقل الأراجيف، وبثها بين الناس.

مضى زيد يقود بغلته مع جادة الطريق، فلما سار قليلًا التفت إلى وضاح، وقال له: موعدنا غدًا بعد غروب الشمس عند هذه الصخرة.

◈◈◈◈

ارتفع وضاح قليلًا حتى بلغ رأس الجبل، وجلس ينتظر الصباح، لم يستطع النوم من مرارة الأسى ولوعة الحزن، وكأنما ضاعف سواد الليل أحزانه ومصائبه، انتابته موجةٌ سوداء من الاكتئاب، أحس معها وكأن نفَسَه قد وقف في صدره.

ماذا بقي له في مأرب سوى حسرة الذكريات المؤلمة، التي تقض مضجعه كلما أوى إلى فراشه، وماذا يصنع بالحنين لرؤية أمه وقد قطع الموت حبل الرجاء بينهما، وأبدله بمرارة يأس قاتلة، يتجرع غصتها مع الماء القراح، ويتنفسها مع الهواء حتى لو كان عليلًا رقراقًا.

لم يحتمل الجلوس فقام مسرعًا، وقد أجمع أمره أن يغادر مأرب ويتركها وشأنها. ماذا يريد زيد؟ أيريد أن يتخذ منه وسيلةً يتقرب بها إلى علية القوم، وينال بها حظوةً وجاهًا على حسابه، أفي كل مرةٍ يكون قربانًا يقدمه لصٌّ للصٍّ آخر؟

ألا يكفي ما فعل به جحدر وهمام عندما قدماه عبدًا لبهرام، أو ما أراده حذيفة عندما هجم عليه ليضحي به في سبيل لبنى.

أسرع في مشيه، وقد عزم على أن يلحق بإخوته في نجران، فلما بلغ بطن الوادي توقف فجأةً، وكأنه تذكر شيئًا مهمًّا، استدار من لحظته وعاد أدراجه إلى الجبل، وهو يقول لنفسه:

ماذا حل بعقلك يا وضاح؟ أتريد أن تذهب إلى نجران، وقد رآك ذو نواس واقفًا عند رأس بهرام؟ لن تكون في نظره سوى جاسوسٍ من جواسيسه الذين ملؤوا البلاد، وأرعبوا العباد، أتذهب للعذاب بقدميك كرةً أخرى؟

الفصل الخامس

ملك الجن

1

انتظر زيد حتى غابت الشمس، ثم أقبل يحث الخطى خوفًا من أن يرحل وضاح، وصل إلى الصخرة فوجده قد سبقه إليها، وجلس صامتًا ينكت الأرض بعصا كانت في يده، وكأنه غاضبٌ من شيءٍ ما.

لم يكلمه زيد بل جلس أمامه، وكشف الغطاء عن قدر الثريد[1] الذي تفوح رائحته الزكية، ثم قال له: منذ متى عهدك بالثريد يا وضاح.

رمى وضاح بالعصى، واقترب من القدر، وهو يقول:

آه لا تُذكِّرني يا زيد، فآخر مرةٍ ذقت فيها الثريد كان من يد لبنى قبل سنوات. آه يا زيد ليت الزمن توقف بي عند تلك اللحظة، فلم يتقدم ساعةً ولم يتأخر، يا لها من ليلةٍ ما رأيت السعادة بعدها ولو ساعة واحدة.

ابتسم زيد ثم قال له: دع عنك كلام العشاق هذا، وكل حتى تشبع فلدي ما أخبرك به.

أكل وضاح قليلًا، ثم التفت إلى زيد، وقال له:

---

(1) الثريد: أفضل وجبات العرب على الإطلاق، لأنها تتكون من خبز مفتوت في مرق ولحم وخضار.

هيا ماذا تنتظر؟ قل ما أردت قوله، وتذكر أنني لن أقيم هنا إلا ليلةً واحدة، ولولا العهد الذي قطعته على نفسي لما وجدتني هنا أبدًا.

سكت زيد قليلًا، وكأنه يريد لوضاح أن يكمل عشاءه، ثم قال: إذا فرغت من عشائك فسأخبرك بكل شيء.

أكل وضاح بسرعة ثم صاح: ها قد فرغت يا زيد، فأخبرني بما تريد.

أجابه زيد وهو يبتسم: لا، لست أنا من سيخبرك.

أمسكه وضاح بيده، وقال له بقلق: ويحك فمن سيخبرني إذًا؟

التفت زيد إلى الوراء، وقال: هذا الذي سيخبرك بكل شيء!

نظر وضاح فإذا رجلٌ ملثم، قد وقف قريبًا منهما، وكأنه كان يستمع لحديثهما، لاذ بزيد، وهو يقول: الويل لك من هذا؟

تقدم الرجل الملثم نحو وضاح، وقال له بهدوء:

أهلًا بوضاح..هدئ من روعك يا رجل، ولا تخف، فقد أمنت على نفسك ما دمت في ذمتي وفي حماي.

اقترب الرجل قليلًا، ثم أزاح اللثام عن وجهه، وقال: أنا عدي بن عمرو!

وضع وضاح يده على فمه، وهو يقول: القَيْل عدي.. وجعل يشير نحو زيد بذهول، ويقول: أهذا هو القَيْل عدي حقًّا؟

أجابه زيد وهو يبتسم: نعم إنه زعيمنا المبجل عدي، وقد أخبرته بأمرك، فآثر أن يأتي إليك بنفسه، فما تريد أكثر من هذا؟

صافحه عدي، ثم قال بهدوء: وضاح! لقد جئتك بنفسي لتعلم مدى عظم المهمة التي أريدك من أجلها.

◈◈◈◈

جلس القَيْل على الصخرة، ومد قدميه، بينما جلس وضاح وزيد أمامه على الأرض، ثم نظر إلى وضاح، وقال له:

لقد تجاوز هذا الكاهن حده، فأصبح يتدخل في كل شيء باسم دين جدتنا بلقيس، الذي يفسره كما شاء، ويؤول نصوصه كما أراد، مستندًا في ذلك على أتباع مخلصين، يرون أن الحق المحض قد تجسد في شخصه، وأن الصواب يدور معه حيثما دار.

صمت عدي بن عمرو قليلًا، ثم استأنف كلامه بشيء من الحسرة:

لماذا كان لزامًا علينا أن نراعي عقول رجال لا يعرفون من العلم سوى نقش يقرؤونه، أو مخطوطة يكررونها كل صباح، وأغلبهم لا يعرف من العالم سوى حيِّه الذي لم يخرج منه يومًا قط؟

رد عليه وضاح: أنا طوع بنانك، ورهن إشارتك يا سيدي، ولكنني لم أفهم إلى الآن ما الذي تريده مني على وجه التحديد.

ضحك القَيْل عدي، وقال: لا تستعجل يا وضاح، فلابد أن تفهم كل شيء قبل أن تقوم بهذه المهمة.

استأنف عدي حديثه قائلًا:

إن هؤلاء يجيدون تنظيم أنفسهم، وترتيب أمورهم، وقد أخذت أهبتي لهذا الأمر من جميع نواحيه، ولكنني أحتاج إلى رجلٍ مثلك يدخل إلى وكرهم دون أن يشك به أحد.

انقبض قلب وضاح وتغير لونه، عندما سمع هذه العبارة، وقال برعب: أي وكرٍ تعني؟

تدخل زيد- الذي ظل صامتًا طوال الجلسة- وقال: سيدي يريد أن يدخلك إلى المعبد الذي يقيم فيه الكاهن الأكبر.

قاطعه عدي قائلًا: نعم يا وضاح لقد أخبرني زيد بقصتك العجيبة مع بهرام، وكيف استطعت أن تخدعه زمنًا طويلاً، وأريدك أن تكرر التجربة مع الكاهن.

اقترب منه وضاح، وأمسك بيديه، وهو يقول: يا سيدي أرجوك أعفني من هذه المهمة الخطرة، فلم يعد لي قدرةٌ على ذلك، أما ما فعلته مع بهرام، فقد كان حفاظًا على حياتي.

ربت عدي على كتفه، وقال: وهذا المرة تفعلها حفاظًا على مدينتك وطاعةً لأمر مولاك.

أجابه وضاح: ولكن يا سيدي كيف لا يشك الكاهن بي وقد علم الناس كلهم بخبري، وأنا في نظرهم شابٌّ قد اختطفته الجن.

صمت عدي بن عمرو قليلًا ، ثم قال: هذه دعها لي، أما والله لأمكرنّ بهذا الكاهن وأتباعه مكرًا ما سمعت به العرب قط.

أحس وضاح أنه قد وقع في الفخ، فأراد أن يرمي بآخر سهم في كنانته، فقال: ثمة مشكلةٌ أخرى لم نحسب حسابها إلى الآن؟

وما هي يا وضاح؟ قالها عدي، وهو يمد راحة يده.

أجاب وضاح: بهرام يا سيدي، إنه يعرفني جيدًا ، وإن رآني سيقتلني لا محالة.

أجابه عدي: صحيح هذه مشكلة، وسوف أجد لها حلًا ، فلا يهمّنّك بهرام فهو طوع أمري.

زحف وضاح نحوه، ثم قال: يا سيدي أريد أن أحذرك من بهرام هذا ، فهو والله أخبث مما يتصوره أي عقل، وقد خبرته وعرفت باطن أمره وظاهره، وليس من رأى كمن سمع.

قبض القَيْل يده بعنف، ثم قال: ليس أمام عيني في هذه اللحظة سوى هذا الشيطان الأكبر -كنانة بن عوف- فإذا فرغت من شأنه، فلكل حادثٍ حديث.

قام عدي من جلسته ثم قال -وهو يلف عمامته السوداء على وجهه-: زيد سيكمل المهمة معك، فنفذ ما يقوله بالحرف الواحد،

وإياك أن يشعر أحدٌ بوجودك، فلا يعلم عن هذا الأمر إلا أنا وزيد فقط، أفهمت؟

◈◈◈◈

ويحك يا زيد أتريد أن تقنعني بأن أدخل السجن، وأمكث فيه شهرًا كاملًا. قالها وضاح، وهو يمسك بتلابيب زيد.

أجابه زيد بهدوء: نعم سندخلك إلى السجن الذي بداخل القصر، وسيحملك العبيد في صندوقٍ مغلق من صناديق البضائع التي تدخل القصر، ولكن لا تخف لن تكون بمفردك.

سيكون معي أحد؟ يا زيد ما هذه الخطة الغبية؟

ضحك زيد حتى كاد أن يستلقي، ثم قال: ألا يُطمئنك أن يكون صاحب الخطة معك في السجن؟

ومن صاحبها؟ أنت؟ سأله وضاح بتهكم.

عدل زيد من جلسته، ثم قال:نعم أنا، اسمعني جيدًا، ولا تقاطعني حتى اشرح لك الخطة كاملةً.

في مساء الغد ستصل القافلة التي أرسلها القَيْل إلى ظفار[1]، وسوف أفتعل شجارًا مع أحد الحراس، يؤخر دخول القافلة إلى الليل، ثم تدخل أنت في أحد الصناديق الكبيرة، وتغلقه

(1) منطقة عمانية، تشتهر بإنتاج اللبان الجيد، وعاصمتها صلالة.

على نفسك جيدًا، فإذا دخلت القافلة للقصر، يكون عدي في استقبالها، فيأمر الخدم بإنزالها في غرفة يكون لها باب من جهة السجن، أما أنا فيغضب القَيْل مني ويدخلني السجن قبلك، فإذا هدأت العيون، وانشغل الناس بالعشاء، أخرج إليك مع ذلك الباب، ثم أدخلك عندي.

ثم ماذا أيها العبقري؟ قالها وضاح، وكأنه يستعد للاعتراض على الخطة.

قال زيد: أكون معك في أدنى السجن، وأنت في أقصاه، وأستلم عنك طعامك وشرابك فلا ينتبه لوجودك أحد، أرأيت كيف أحكمت الخطة؟

هز وضاح رأسه، وقال:لا بأس! المهم هو دقة التنفيذ، ولكن لـمَ هذا السجن؟ وماذا بعده؟

أجابه وضاح: سنكون معا شهرًا كاملًا في السجن، فلا تستعجل! ستعلم كل شيءٍ في حينه

◇◇◇◇

تأخرت القافلة عن موعدها المحدد، ولم تصل إلا قبيل الغروب، لتجد وضاح قد كمن وراء صخرةٍ، يستعد للقفز في الصندوق متى حانت اللحظة المناسبة.

أما زيد فقد أقبل راكبًا على بغلته، يجر خلفه فصيلا[1] قد نزعه من أمه، فهو يتلكأ في مشيه، ويخور خوارًا يملأ الفضاء.

دنت القافلة من السور، فتعرض لها زيد، وأخذ يزاحمها على الطريق، فلما اقترب من الباب اقتحم وسط القافلة، فنفر الفصيل وانطلق هاربًا نحو أمه، صرخ زيد بالناس، ووقف أمام القافلة، وجعل يضرب وجوه الإبل، ويصيح بالحراس: ويحكم الحقوا بفصيلي، أنتم من نفرّه مني.

تقدم إليه أحد الحرس، وقال له: ابتعد عن طريق القافلة، فهي للقَيْل عدي.

أمسك زيد بتلابيبه، وهو يقول: وهل أمركم القَيْل بأن تنفروا فصيل زيد؟ ويحكم أنتم على خيل وأنا على بغلةٍ ثقيلة، فالحقوا به قبل أن يحل الظلام.

صاح به الحارس، وقال: لم يبق إلا هذه! أتريدنا رعاةً عندك؟

غضب زيد، وقال له: لا تسخر مني يا هذا، فأنا أطالبكم بحقي الذي أضعتموه بأنفسكم.

طال الجدال بينهما، حتى كاد أن يتحول إلى عراك بالأيدي، فتدخل قائد القافلة، وأمر زيد أن يمضي لحال سبيله، وإلا أرسل إلى القَيْل عدي يخبره بأن زيدًا قد قام بقطع الطريق على القافلة.

---

(1) الفصيل هو ولد الناقة بعد فطامه مباشرة.

صرخ زيد في وجهه: أيها المفتري! أتضيع فصيلي، ثم تهددني بعدي بن عمرو؟ والله لا أذهب من هنا حتى لو جاء بنفسه، ما لم يرجع فصيلي.

أشار القائد لأحد الحرس، وأمره بإخبار القَيْل عدي، ثم صاح بالحرس: أنيخوا الإبل وقدموا لها العلف، ولا تنزلوا أحمالها، أما أنت يا زيد فستكون عبرةً لكل معتبر.

بقي زيد على حالته، يصيح بالناس تارةً، ويهدد الحرس تارةً أخرى، حتى جاء الحارس من عند القَيْل، يأمرهم باعتقال زيد وربطه بالحبال، وأن يمكثوا في مكانهم، حتى يقدم عليهم بنفسه.

لم يصدق القائد بهذا الأمر، فهجم هو وحرسه على زيد وطرحوه أرضًا، ثم أوثقوه بالقيود، وجلسوا ينتظرون قدوم القَيْل وحاشيته.

تأخر عدي قليلًا حتى استولى النعاس على بعض الحرس والعبيد المنهكين من طول السفر، ثم قدم تصحبه حاشيةٌ كبيرة، ووقف على باب المدينة، فأقبل الناس يسلمون عليه، ويهنئونه بوصول هذه القافلة الكبيرة.

حانت اللحظة المناسبة، فتسلل وضاح بخفة، واختار صندوقًا كبيرًا في أخريات القافلة، وقفز داخله، ثم أغلقه على نفسه، بينما أخذ عدي يطيل اللقاء، حتى تأكد بأن الأمور قد سارت كما خطط لها، ثم اتجه إلى زيد، وقال له:

أيها المجترئ على قافلتي، أغرّك حلمي وكرمي؟ ستعلم اليوم كيف يكون عقابي، خذوه ثم ضعوه في سجن القصر منفردًا.

صاح زيد: الرحمة يا مولاي...لا تجمع عليَّ بين السجن وضياع الفصيل.

صد القَيْل عنه، والتفت نحو قائد القافلة، وقال: سيروا وادخلوا المدينة على بركة جدتنا العظيمة.

2

كم أنا محظوظ هذه المرة...حتى الصندوق الذي قفزت فيه تفوح منه رائحة اللبان القوية. لا يهم إن كان هذا فأل خير أو طالع نحس، الأمر سِيَّانٌ هذه المرة، إنها رائحةٌ جميلةٌ وكفى.

خواطر يتسلى بها وضاح، ومشي الجمل الوئيد[1] يخضه خضًّا، ثمة شعور خفي بالإثارة لإكمال هذه المغامرة الخطرة، مع يقينه أن مصيره لن يكون أحسن من مصير اللبان الذي يشاركه الصندوق نفسه فيما لو فشلت المغامرة.

ترتفع الأصوات أحيانا حول القافلة، ويركض خلفها الأطفال، وربما ضربوا الصناديق بأيديهم، فينال وضاح شيئًا من الإزعاج والأذى.

---

(1) البطيء.

هدأت أصوات الناس حول القافلة، ولم يبق سوى وقع أخفاف الإبل وجلجلة الصناديق، عرف وضاح أنه قد دخل القصر، فأطبق فمه وعض على أسنانه بقوة، استعدادًا للسقوط على الأرض.

لم يطل انتظاره طويلاً حتى بدأ العبيد برمي الصناديق وإنزال الأحمال بسرعةٍ وعنف، وكأنهم يريدون اللحاق بالعشاء قبل أن يفوت عليهم. وقع صندوق وضاح على الأرض بشدة، حتى كاد أن يتفكك من بعضه، وأوشك وضاح أن يصرخ من شدة الألم، لولا أنه قد وطّن نفسه جيدًا لهذه اللحظة القاسية.

عاد الهدوء مرةً أخرى، فخرج زيد يبحث في الصناديق المقفلة، وكأنه فأرٌ ينقب عن عكة السمن في المخزن المظلم، عثر على وضاح أخيرًا، وقد دخلت إحدى قطع الخشب في وجنته، وسال دمه على أكياس اللبان، ونزلت قطرات منه على الأرض.

لم يستطع النهوض فحمله على كتفه، ووضعه في أقصى غرفة من السجن، ثم رجع بأقصى سرعته، ليمسح أثر الدم على الأرض، سمع صوتًا خارج الغرفة، فاضطر إلى الرجوع إلى السجن دون إتمام المهمة، وفي نفسه شيء من القلق على هذه الثغرة، التي قد تهدد بفشل الخطة كاملة.

عاد إلى السجن فوجد وضاح، وقد تمدد على الأرض، وهو يئن أنينًا متقطعًا، فأمسكه بعضده، وقال له بسرور: وضاح لقد نجحت الخطة، ولم يبق سوى أثر الدم، وسأعود له قريبًا.

التفت إليه وضاح ببطء، ثم قال: لا بارك الله فيك، ولا في خطتك، كدت أن أفقد عيني بسببها.

ابتسم زيد وهو يقول: هون عليك! حتى أنا قد نالني من الأذى مثل ما نالك، فأنا ضربت وأوثقت بالحبال، وطيف بي في المدينة محمولاً على حمار، أما أنت فتستحق ما أصابك، من قال لك أن تختار صندوقًا متهالكًا؟

◈◈◈◈

استيقظ زيد وقد أشرقت الشمس وانعكس ضوؤها على جدران السجن، فمشى نحو وضاح ليجده متكئًا على الجدار، وقد انتفخت وجنته اليمنى، وبدا جرحه مفتوحًا، وعليه علامات السهر والاكتئاب.

تأمله قليلًا، ثم قال: هل تصدق أن يد القدر قد ساعفتنا هذه المرة، حتى فيما نكره؟

التفت إليه وضاح، وقال: ماذا تقصد؟

أجابه زيد: جرحك هذا سيضفي على قصتنا لمسة خداع أخرى، تجعل كل من رآك يصدق أن الجن قد خطفتك حقًّا.

الجن قد خطفتني؟ أليس هذا هو كلام الكاهن؟ أتريدون تكرار خدعته؟

تحسس زيد جرح وضاح بيده، فلم يجده عميقًا، ثم أشار إلى طرف الغرفة الذي تدخله الشمس، وقال: نعم سنسقيه من الكأس نفسه التي أسقى منها أهل مأرب، وسنخدعه بالخدعة ذاته، التي يستخدمها في إثارة الرعب عند الناس، لكن يجب عليك الآن أن تمكث في الشمس وقتًا طويلاً، حتى يتغير لون بشرتك، وأن تطيل شعرك وأظفارك، ولا تغتسل أبدًا، حتى الأكل والشرب لن تأخذ منهما إلا بمقدار ما يقيم صلبك، ويبقي على حياتك.

أمسكه وضاح، وقال له: ويحك يا زيد! أتريد أن تخطفني الجن فعلاً، كيف لا أغتسل ولا أقص شعري وظفري شهرًا كاملاً؟

ضحك زيد وقال: لا تخش على نفسك، فحتى الجن تخاف من نحسك، وما هو إلا شهرٌ واحد، حتى تعود إلى مأرب من بابها الواسع، ثم تقيم في معبدها المقدس الذي حرّمه الكاهن الأكبر على جميع أهلها، سوى عدة نفرٍ اصطفاهم وقربهم وأمن مكرهم.

أشاح وضاح بوجهه، وأخذ يتلمس وجنته المنتفخة، ثم قال بصوتٍ ضعيف: نعم تريدون أن يحل نحسي بالمعبد أيضًا، أبشروا سيحل به ما حل بغنم أبي، أو ما أصاب الشيخ مُرة ومزرعته.

لم يجبه أحد، فالتفت نحو زيد، فإذا هو قد مضى إلى الباب يستقبل الأكل الذي جاء به السجان. لم يبالِ وضاح بذلك، فهو يعلم نصيبه من الأكل جيدًا.

مرت أيام السجن الأولى كئيبةً متطاولة، لا فرق فيها بين الليل والنهار، ولا يتسلى فيها وضاح سوى بالنظر إلى شعر جسده، الذي أخذ في الطول، وتراكمت عليه الأوساخ بطريقة تبعث على الاشمئزاز. تتقصف أظافره الطويلة أحيانًا، فيمضي وقته في تقليم أطرافها بأسنانه، وقد استبد به السأم.

◈◈◈◈

الوقت قريبٌ من الزوال.. والشمس في كبد السماء، لا يحجبها قترٌ[1] ولا غيم، تهب نفحات البرد المنعشة بين الفينة والأخرى، كلما اشتد هبوب الريح، ودوّى زئيرها في جدران السجن العالية.

جلس وضاح شبه عارٍ يستمتع بدفء الشمس، الذي يبعث في جسده قشعريرةً لذيذة.

أحس وضاح بحركة خلف ظهره، فالتفت إلى الوراء فإذا رجل طويل القامة أبيض الوجه، ينظر إليه عن كثب، أحس بشيء من الحرج فغض طرفه، وجعل يتلمّس الأرض حوله، وكأنه يبحث عن ثوبه. اقترب الرجل منه بهدوء، وقال: أهلًا بوضاح..

تعرف عليه وضاح من صوته المميز ونبرته الواثقة. ثم قال: أهلا بمولاي، اعذرني فلم أعلم بقدومك.

---

(1) غبار.

ارفع رأسك ولا تخجل، فأنت في طاعة مولاك. قالها عدي، وهو ينحني على ركبته، ويربت على كتف وضاح العاري.

نظر إلى وضاح نظرةً فاحصة، ثم قال: يبدو أن الأمر سيتم أسرع مما كنت أتصور، هذه التشوه في صدرك مع كل هذه الندوب القديمة في جسدك، ستجعل الخدعة تنطلي على الناس كلهم.

أجابه وضاح وهو يشير إلى صدره: هذا التشوه معي منذ أن خرجت إلى الدنيا، أما تلك الندوب فأكثرها من رفيقك الجديد بهرام قبحه الله.

بهرام.. الرجل الطيب يفعل كل هذا، لا أصدق أبدًا، ولكنني أظنك كما قالت العرب: «إن الشقي بكل حبل يخنق» قالها عدي وهو يبتسم.

بهرام رجلٌ طيب!؟. ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلًا. قالها وضاح بسخرية، وهو يكتم غيظه.

اضرب عن هذا الأمر صفحًا[1]، وأعرض عن ذكر بهرام، واسمع ما جئت لك من أجله، فلن تراني بعد اليوم إلا في ليلة التنفيذ. قالها عدي وهو يشير إلى زيد بأن يقترب منهما، ثم استأنف كلامه، وقد بدى الجد على نبرة صوته:

ستدخل إلى المعبد عمّا قريب، فإياك أن تستهين بالكاهن، وتقول: شيخٌ كبير لا يكاد يبصر، فهو والله كالأفعى ذات القرون، لا

(1) مثل عربي يعني تجاهل هذا الأمر، ولا تنشغل به.

تفوته شاردةً أو واردة، فعليك بالاحتياط منه، كما كنت تحتاط من بهرام، ثم ارعني سمعك جيدًا، وافهم ما أريده منك تمامًا.

رفع وضاح رأسه قليلًا، وشخص ببصره في وجه عدي، وأخذ يهز رأسه مبديًا الاهتمام والموافقة.

رفع عدي بن عمرو كفه اليمنى، وقد قبض إبهامه وسبابته، ورفع الثلاثة الأصابع الأخر، ثم قال:

أريد منك ثلاثة أمور: أولها أن تعلم من أين يأتي الكاهن بالأموال، وكيف ينفقها، فقد منعت الناس من دفع الزكاة له، وضيقت على أتباعه تجارتهم، فلم يؤثر عليه ذلك في شيء، بل انقلب الأمر عليَّ نقمةً بين عامة الناس، أما ثانيها فأريدك أن تخبرني بمن يتواصل معه سرًّا من وجهاء المدينة، هل فهمت الأمرين السابقين؟

نعم أيها القَيْل، تريد معرفة المال من أين يكتسبه وفيمَ ينفقه، وتريد أن تعرف من يتواصل معه مباشرة من الأعيان، فما هي الثالثة؟

أحسنت يا وضاح، ثالثة الأثافي[1]، هي أخطر الأمور كلها، فالكاهن قد كبرت سنه، وهو الآن يُعدُّ ثلاثةً من خواص تلاميذه،

---

(1) مثل عربي، يضرب للأمر الكبير، والداهية العظيمة، وأصل ذلك المثل: أن الأثافي هي الحجارة التي توضع تحت القدر، فإذا رمى الإنسان بالحجر الثالث، فقد أخرج كل ما في قلبه من شر وعداوة.

لكي يخلفوه من بعده، وأريدك أن تعرف أيهم أقرب مودة وألين عريكة، ومن هو أشدهم عداوةً، وأصعبهم مراسًا.

وجم وضاح برهة، ثم قال: يا مولاي كيف لي أن أعرف طبائعهم وأنا لا أتحدث معهم ولا أكلمهم أبدًا، ثم إن طبائع البشر تتغير دائمًا ولا تثبت على حال، فأخشى إلا أستطيع القيام بذلك.

رد عليه عدي: كل ما أريده منك أن تحفظ كلامهم، وأن تراقب تصرفاتهم، أما طبائعهم الكامنة فدعها لي.

لكن يا مولاي ثمة أمر يقلقني، وأخشى إن بحت به أن تغضب مني. قالها وضاح، وكأنه يستجدي عطف القَيّل.

أجابه بلطف: قل يا وضاح ولا تخش شيئًا، أريدك أن تذهب للمهمة وأنت مطمئن البال.

ماذا لو انكشف أمري وعلم الكاهن أنني عينٌ عليه وعلى أتباعه، كيف سيكون مصيري؟

ضحك عدي، ثم قال: لست أنا من يتخلى عن أتباعه، فقرَّ عينًا، ثم إني سوف أصنع لك هالةً في أعين الناس، تجعل الكاهن يتمسك بك، ويحرص عليك حتى لو انكشف له شيء من أمرك.

فتح وضاح عينه، ثم قال بفضول: كيف ذلك يا مولاي؟!

قال عدي: سأجعل الناس يختلفون فيك، ويتنازعون لأجلك بين من يعظمك ويقدسك لتعظيم الكاهن لك، وبين من يزدريك

ويرى أنك لا تستحق أن تكون في المعبد بعد أن كنت رفيقًا للجن والشياطين، فإذا اشتد النزاع، وانقسم الناس أوحيت إلى اتباعي بأن يزدادوا غلوًّا فيك، وأن يبالغوا في تمجيد الكاهن وتعظيمه من أجلك، وعندها لن يتخلى عنك أبدًا، فهو مولع بتقديس العامة له.

قام عدي ثم التفت نحو زيد، وقال: أما بقية الأمور فسوف يشرحها لك زيد.

◈◈◈◈

وضاح يدور في الغرفة الصغيرة، ويكلم نفسه بصوت مسموع، وقد بلغ به القلق كل مبلغ، اتجه نحو زيد فوجده نائمًا على جنبه، لم يشأ أن يوقظه من سباته، فوقف بجانبه لا يحرك ساكنًا.

استيقظ زيد فرأى وضاحًا واقفًا قد استبد به القلق، فبادره بالسؤال: ما بك؟ ما الذي أسهرك حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

هجم عليه وضاح، وهو يقول: زيد لقد اكتشفت ثغرةً خطيرة، نسيت أن أسأل القَيّل عنها، ولكنها قد تنسف خطتنا نسفًا.

وما تلك الثغرة؟! أجابه زيد، وهو يفرك عينيه.

ماذا لو رآني بهرام أو أحدٌ من أتباعه في المعبد؟ قالها وضاح بقلقٍ ظاهر.

جلس زيد وهو يقول: أوووه يا لهذا الفارسي الغريب!!كيف أرعبك وأطار نومك، يا رجل! أتظن أن ثغرة كهذه تفوت على عدي؟ ويحك إنه يعرف عنه كل شيء، وما استضافه في مأرب إلا ليضيق به الخناق على الكاهن، ويسعر به نار حربٍ أخرى يشغل بها أتباع الكاهن بعد أن اشتدت وطأتهم عليه.

ضاق وضاح ذرعًا بهذا الكلام، فقاطعه قائلًا: كفى سخريةً يا زيد، منذ أن عرفتك وأنت تكثر الكلام، وتلف وتدور، دون أن تجيب على سؤالي، أقول لك: من يضمن لي ألا يراني بهرام عند الكاهن؟ وتقول لي: إنهما سيصبحان عدوين لدودين، أنا أعلم منك بهؤلاء! فهم يتحاربون في العلن، ويتهادنون في السر، والمساكين أمثالك هم وقود الحرب!

هدأ زيد، ثم قال: على كل حال، بهرام رجل مجوسي يعبد النار، وديننا يحرم على أمثاله دخول المعبد، ولن يسمح له الكاهن الأكبر بدخوله أبدًا.

أشاح وضاح بوجهه، وكأنه لم يرض هذا الجواب، فقام إليه زيد، وأمسك بيده، ثم أجلسه وقال له:

أعلم أنك متوترٌ بعض الشيء، ولكن ثق أن الأمور سوف تسير على ما يرام، وإن انكشف أمرك فلن يتخلى عنك عدي بن عمرو أبدًا حتى لو اضطر أن يقتحم المعبد بخيله ورجِله.

هدأت نفس وضاح قليلًا، ورجع إلى مخدعه بحثًا عن النوم، الذي حارب عينيه منذ أن علم بتفاصيل الخطة العجيبة.

سارت بقية الأيام على المنوال نفسه، لم يتغير فيها سوى هيئة وضاح، التي أصبحت تثير الرعب والاشمئزاز، حتى عند زيد الذي يرافقه في السجن نفسه، وإن كان يملك مفاتح الباب، ويخرج بين الفينة والأخرى في ظلام الليل الدامس.

قدم ذات مرةٍ من خارج السجن، وهو يتصبب عرقًا، فاتجه نحو وضاح وهو يقول: هنيئًا لك أيها الجني، لم يبق سوى ليلةٍ واحدة، ثم تجد نفسك خارج هذا السجن، وأمكث أنا وحدي بين أسواره، فكن على أهبة الاستعداد.

التفت إليه وضاح، وقال بذهول: لم يبق سوى ليلةٍ واحدة! لقد مللت الترقب والانتظار، حتى لم أعد أفكر سوى في الخروج على أي هيئة.

قال زيد: سيقيم عدي مساء الغد حفلًا بهيجًا بمناسبة ختان ابنه، وسيحضره الكاهن وخواص أتباعه ليباركوا الختان، فإذا حضر الجميع وحل الظلام، ستبدأ لعبتنا.

لعبتنا؟ وهل دخلنا السجن لنلعب؟ قالها وضاح بذهول.

سوف ترى يا وضاح.

3

جانب السد.. حيث القصر الجديد، الذي فرغ عدي من بنائه مؤخرًا، ليكون منتزها له يستجم فيه، كلما ضاقت نفسه من ضوضاء المدينة المتزايدة.

مدت البسط الناعمة، ووضعت عليها النمارق الوثيرة في الباحة الجانبية بين القصر والجبل، ووضع كرسيه في صدر المجلس، الذي يواجه الماء، بينما فُرِش الحصير الذي اعتاد الكاهن الأكبر أن يجلس عليه تحت الصخرة الكبيرة، التي تقع أسفل الجبل مباشرة.

قدم الكاهن يصحبه لفيفٌ من أصحابه، بعد أن فرغوا من قداس الغروب، استقبله عدي بن عمرو بحفاوةٍ وتكريم، ورحب به ترحيبًا زائدًا، وأخذ بيده إلى صدر المجلس، وطلب منه أن يجلس بجانبه على الكرسي.

وضع الكاهن يده على صدره، وشكر القَيل على حسن ضيافته، واستأذنه أن يجلس على حصيره الذي أعد له.

وما هو إلا أن جلس الكاهن، واستقر الناس في أماكنهم، حتى أمر القَيْل بمد السماط وتقديم العشاء، وكان قد بالغ في كل شيء، فلم يدع صنفًا من أصناف اللحم، إلا أمر بإعداده: إما مشويًا أو مطبوخًا، ولا نوعًا من أنواع الفاكهة، إلا أحضره على المائدة الكبيرة التي تزينها أطباق الحلوى اللذيذة.

رحب القَيْل عدي بالجميع، فهجم الناس على المائدة، وبدأوا بالأكل بشراهة، والخدم فوق رؤوسهم، يزيدون في الأكل مرةً تلو أخرى. حتى الكاهن تخلى عن وقاره، فأكل حتى ضاق به النفس.

شبع القوم فرفعوا أيديهم وجعلوا يثنون على القَيْل، ويدعون لابنه بالبركة وطول العمر.

أخذ الناس مجالسهم مرة أخرى، فيما جعل الخدم يرفعون ما بقي من الأكل، ويدور بعضهم بكؤوس النبيذ وأقداح الخمر، ثم بدأ العزف على أوتار العيدان والطنابير، والضرب على الدفوف والطبول، وأخذ المغنون بالغناء والرقص.

كان الصوت شجيًّا مطربًا، يأسر القلوب، ويستولي على الأسماع، ويُصبي الشيخ الوقور. يصعد الصوت الجميل إلى السماء، فيخيل للسامع أن الجبال قد طربت، وأن الأشجار قد تمايلت على نغماته الشجية في ليل مأرب الندي.

استخف بالناس الطرب، وأخذوا يرقصون، ويتمايلون على ضوء النار، الذي يشتد تارةً، ويخبو تارةً أخرى، حتى الكاهن لم يستطع إخفاء طربه، فأخذ يصفق للمغني كلما اقترب منه.

أما الدراويش وخفاف العقول الذين استضافهم القَيْل طلبًا للبركة وإظهارًا لبره بضعفة الناس فقد ملؤوا المكان رقصًا وصراخًا، بل إن بعضهم غشي عليه من الطرب أكثر من مرة.

◊◊◊◊

فجـأةً!! في هـذا الجـو المفعـم بالطـرب والرقص، زأر الجبـل زئـيرًا منكـرًا، وقهقـه قهقهـةً عـاليـة، تلتهـا صـرخـاتٌ مفزعـة، تـردد صداهـا في جميـع الأنحـاء.

تسـاقط النـاس بـين مغمـى عليـه، وهـارب قـد انقطـع نَفَسُـه، واعتُقِلت رجلاه، فهو يدور في مكانه، وما هي إلا برهة يسيرة، حتى انبعـث الزئـير والصـراخ مـرة أخـرى، كأقوى صوت سـمعته أذن، ثم بدأ الـكلام المرعب:

أنا مررررجان... وما أدراكم ما مرجان!

ملك الجـان... الذي خضعت له البلدان!!

وأتبعها بصرخةٍ عالية، تقطع معاليق القلوب.

ذهـل الجميـع، وتسـاقطوا علـى الأرض، وهـرب مـن اسـتطاع الهـرب مـن الدراويش والضعفـاء، بينمـا تماسـك الكاهـن، ولاذ بـه عـددٌ مـن تلاميـذه، أمـا عـدي فقـد أظهـر شيئًا من الخـوف والجزع، وكأنـه يهـم بالهـرب، ثـم تماسـك، وثبـت في مكانـه.

وفي لحظـةٍ خاطفـة، جـاءت صـرخـةٌ مخيفـة مـن أعلـى الصخـرة، التي يستند عليها الكاهـن، فارتبك ارتباكًا عظيمًا، وكاد أن يهـرب، لـولا أن جـاءه الصـوت المرعـب مـن أعلـى الجبـل:

يا كنانة.. يا كنانة.... يا كاهن زمانه

أعدت لك وضاح.. سالمًا من الجراح..

وقد عشقته ابنتي مرجانه..

فإن مسه شيء أخذنا أحدكم مكانه.

وفي تلك اللحظة المرعبة هوى وضاح من أعلى الصخرة، وسقط بين يدي الكاهن، وكأنه ثوب خَلِق[1].

هرب الناس سراعًا لا يلوون على شيء، وتفرقوا في سواد الليل البهيم بين من رمى نفسه في الماء، ومن وقع في قلب شجرة، ولم يثبت سوى القَيْل والكاهن، وعددٍ قليل من شجعان أصحابهما.

عادت القهقهة مرةً أخرى بوتيرة أقل، ثم ما لبثت أن ذهبت بالتدريج، حتى انقطع الصوت تمامًا.

◈◈◈◈

ارفعوه.. ارفعوه، فهو ينزف دمًا. قالها عدي وهو يشير إلى وضاح، الذي ما زال مُكبًّا على وجهه على طرف الحصير.

اقترب منه أحد أتباع الكاهن بحذرٍ شديد، ثم قلبه على ظهره، فتوقف رعاف أنفه، الذي يكاد يخفي ملامح وجهه البائسة، التي تبدو من وراء شعر وجهه الكثيف.

تحلق القوم حوله، وقد امتزجت مشاعر الشفقة مع شيء من الرعب، الذي لا زال بداخل النفوس بعد هذه الصدمة العنيفة.

---

(1) قديم بالٍ.

كان وضاح في منظر يدعو للرثاء، ويبعث على البكاء، جسمٌ هزيل تبدو عظامه البارزة من وراء أسمال ثوبه البالية، وشعرٌ متلبد يمتلئ بشوك الحسك[1]، الذي يملأ رأسه وبعض أنحاء جسده، أما رائحته النتنة فلا يكاد يشمها أحد إلا ذرعه القيء. أي بؤسٍ قد تجرعه هذا المسكين طوال سنين الشقاء والعذاب منذ أن خطفته الجن.

بدأ وضاح يحرك يديه وقدميه، فالتفت عدي إلى الكاهن، وقال بحدة: ما دام أنه قد بقي على قيد الحياة، فإني لا آمن عليه أي أحد، ولا بد أن آخذه عندي.

نظر إليه الكاهن بحدة، ثم قال بغضب: ولكن ملك الجان، قد ذكرني باسمي، وهددني من أجله، ولن أفرط فيه أبدًا، مهما كانت الظروف.

أراد عدي أن يستفزه، فقال بسخرية: ما أنت إلا شيخٌ هرم لا يستطيع دفع البلاء عن نفسه، فكيف يدفعه عن غيره؟

حمي الشيخ وثارت ثائرته، فقال: أما والله لأضعنّه في مكانٍ تعجز أنت وأمثالك عن الوصول له.

ثم التفت إلى أتباعه الذين استفزهم كلام القَيّل، فقال لهم: احملوه على أكتافكم، وامضوا به إلى المعبد، وسألحق بكم عمّا قريب.

---

(1) ثمرة شوكية مستديرة، تعلق في أصواف الماشية وأشعارها.

حمله أربعةٌ من أتباع الكاهن، وهم يهمسون لبعضهم: والله ما نخاف عليه إلا من عديٍ نفسه.

رد عليه الآخر: نعم، لقد ساءه أن سمع ملك الجان ينادي باسم سيدنا الكاهن الأكبر.

اتجه الكاهن نحو القَيّل، وقال بهدوء: يا بني إني أرعى فيك ذمام عمك رياح، فأمسك لسانك عني، فإني أخشى أن تثير حفيظة تلاميذي، فيبدر من أحدهم ما يسوؤك.

أجابه عدي: لا بأس اعذرنا، فلم نرِد الإساءة لك، وإنما أردنا الاحتياط لأهل مأرب.

لم يجبه الكاهن بل مضى موليًا نحو المعبد، وقد انحنى ظهره قليلًا، بينما تبعه تلاميذه، الذين أحاطوا به، والتفوا حوله.

وقف عدي مكانه، وجعل يُتبِع الكاهن النظر، وقد عض على شفته السفلى، وهو يقول في نفسه: لقد ابتلعت الطعم أيها الشيطان الهرم، أما تلاميذك الأوغاد الذين تهددني بهم دائمًا فسأريك فيهم يومًا أسود.

◇◇◇◇

وضاح وقد حمله أتباع الكاهن على محفةٍ[1] صغيرة وضعوها على أكتافهم، وهو يهذي طول الطريق:

(1) سرير خاص يحمل عليه المرضى.

اتركيني..أمممه.. لا أريدك...ابتعدي عني.

يزبد فمه أحيانًا، وكأنه قد شرق بريقه، وأغمي عليه، فيقرؤون عليه الرقى والتعاويذ، وربما وضعوا على جسده شيئًا من التمائم التي صنعها الكاهن بيده. يهدأ قليلًا ثم ما يلبث أن ينتفض انتفاضةً قوية، يكاد يسقط بسببها من المحفة.

وصل الموكب إلى المعبد، فانتفض وضاح، وتشنجت أعصابه، ثم صرخ صرخةً قوية، غاب بعدها عن الوعي.

لم يدرِ التلاميذ كيف يصنعون به، فأنزلوه على الأرض في طرف المعبد، ووضعوا عليه لحافًا، ثم جلسوا ينتظرون الكاهن الأكبر، الذي أقبل يمشي الهوينى، يحف به جمع من أتباعه.

نظر إلى وضاح وهو مسجىً على الأرض، ووضع يده على صدره ورأسه، ثم قال: لا بأس عليه، أدخلوه إلى المعبد، وليتناوب على حراسته اثنان منكم كل مرة، حتى نرى فيه رأينا في صباح الغد.

أشرقت الشمس فانتظم الناس صفوفًا، ينتظرون خروج الكاهن ليؤمهم في قداس الشروق، بينما جلس اثنان من كبار التلاميذ بجانب وضاح في الغرفة المجاورة لمسكن الكاهن الأكبر.

استيقظ وضاح ونهض ليجلس، فعضده واحدٌ منهم، وأجلسه على طرف المحفة. أشار بيده إلى فمه اليابس، وكأنه يطلب ماءً،

فسقاه أحدهم فشرب حتى ارتوى، ثم جعل وجهه بين كفيه، وكأنه لا يريد أن ينظر في عيون الناس.

خرج الكاهن من مسكنه، وقد لبس عباءته، وكوّر عمامته، وأرخى ذؤابتها على رقبته، فتوجه نحو وضاح، وجعل يتفحص وجهه الممتلئ بالندوب، وعينيه الزائغتين، وجسمه الذي تبدو عليه آثار الحروق.

تأثر الكاهن كثيرًا من هول ما رأى، وأخذ يمسح دمعته بطرف كمه، ثم قال لتلاميذه: أطعموه حساءً ساخنًا، ولا تكثروا عليه، فإن أبى فلا تكرهوه على الأكل.

قام إلى القداس بخشوع، فخطب فيهم خطبةً بليغة، وقص عليهم قصة وضاح العجيبة، وكيف أن ملك الجن قد أعاده سالمًا لأجل الرقى والتعاويذ التي كان يتلوها.

ثم قال لهم: إن هذا الفتى رجلٌ مبارك قد نالته بركة المعبد المقدس، ولولا ذلك ما تعلقت به ابنة ملك الجن مرجانة، ولما تركه ملك الجن حيًّا.

نزل من المنبر، فتدافع الناس خلفه، يريدون النظر إلى وضاح والسلام عليه، فصاح بهم، قائلًا: إنه لا يزال مريضًا، وسنبذل قصارى جهدنا في المحافظة على حياته، أما أنتم فسترونه حالما يتماثل للشفاء.

انفض الناس وتفرقوا في السكك والميادين، ولا حديث لهم سوى هذا الفتى الأعجوبة، الذي رجع من عالم الجن بعد أن عشقته مرجانة!

◈◈◈◈

أين أنا؟ من أنتم؟ من الذي جلبني إلى هذا المكان؟

أسئلة يوجهها وضاح بإلحاح للرجل الذي يحرسه داخل المعبد، يجيبه الرجل بأعلى صوته، ويقول أنا فلان! وأنت في المعبد يا وضاح..

يضع وضاح يده على أذنه، ويقترب من فم الرجل، ثم يكرر السؤال، فيصرخ الرجل بالجواب مرة أخرى، دون أن يفهم وضاح شيئًا.

أقضّت هذه الأصوات مضجع الكاهن، الذي أوى إلى غرفته الملحقة بباحة المعبد، فأرسل إليه ثلاثةً من خواص أتباعه، وأمرهم أن ينظروا في حاله، ويتحروا عنه بدقة.

تقدم عاصم بن أدهم- وكان أكبر الثلاثة سنًّا- فنظر إلى وضاح نظرةً فاحصة، ثم أمر الحارس بتجريده من ملابسه، فنزع عنه كل شيء، ولم يدع له سوى ما يستر به عورته.

لم يحتمل منظر الضلوع العارية والآباط السوداء، فأرجع له ثيابه مرةً أخرى.

سألوه عن اسمه فلم يرد عليهم، وكأنه لا يسمعهم، فقال الربيع بن سعد -وكان قد حضر مع الكاهن-: لقد رأيت الدم يدخل في أذنه، عندما قلبناه على ظهره ليلة البارحة، فلو نظفنا أذنه فربما تحسن سمعه قليلاً.

استحسن عاصم بن أدهم هذه الفكرة فأشار للحارس بأن يدخله إلى الحمام، لكي يستحد ويتنظف.

لبث وضاح في الحمام مليًّا، بينما انهمك الثلاثة في مراجعة نقش أثري، يحوي بعضًا من التراتيل الدينية، وشيئًا من الأدعية القديمة، جلبه أحد الرعاة مؤخرًا.

وكان عاصم أكثرهم اهتمامًا، وأحرصهم على دقة الفهم، فهذه هي المراجعة الأخيرة قبل أن يكتب مضمون هذا النقش في الكتاب الجامع، الذي يعد دستورًا لديانة جدتهم العظيمة، فكل ما يكتب فيه يصبح دينًا لا يقبل الأخذ والرد.

خرج وضاح من الحمام، وقد تغيرت هيئته تمامًا، حتى سمعه قد تحسن قليلًا، فأصبح يلتفت عند سماع الصوت القوي، وإن كان لا يزال ثقيل السمع، لا يكاد يميز بين الأصوات.

ضاقت أنفسهم قليلًا، فقرروا الخروج من المعبد والتنزه قريبًا منه، واصطحبوا وضاحًا معهم، ولكنه ما كاد يخرج من باب المعبد حتى صرخ بأعلى صوته:

مرررجانـة، إنهـا مرجانـة، ألا ترونها! عودوا بي وإلا خطفتني. ثم بدأ بالتشنج والإغماء.

صاح بهم عاصم بن أدهم: ويحكم من مرجانة هذه؟

قال أحدهـم برعب شديد: إنهـا ابنـة ملـك الجن التـي خطفته أول مرة، وقد أخبرنا ملك الجان بنفسه أنها لا تزال تعشقه.

غضـب عاصـم، وقـال: الويـل لكـم! كيـف لم تخـبروني بهـذا، كادت الجنية أن تخطفه من بين أيدينا، عودوا به، ولا تخرجوه من المعبـد أبدًا.

◈◈◈◈

عـادوا بـه إلى المعبـد بسـرعة البرق محمـولاً علـى الأكتـاف، ليجـدوا الكاهـن الأكبـر ينتظرهـم في الباحـة الكبـرى للمعبـد، وقـد تحفـز لرقيتـه والنفـث علـى صـدره.

استغرق الأمـر شيئًا مـن الوقـت، حتـى اسـتقر وضعـه أخيـرًا، ونـام نومًـا عميقًـا، فاطمئـن القـوم، وارتـاحت نفوسـهم.

بـدأ عاصـم في إخبـار الكاهـن بمـا توصـل إليـه الثلاثـة بشـأن وضـاح، فقـال وقـد انتابـه شـيء مـن الحيـرة:

ليس ثمـة مـا يدعـو للريبـة، ومـع ذلـك فـلا بـد مـن أخـذ أقصـى درجـات الحيطـة والحـذر حتـى من وضـاح نفسـه.

أجابه حُجر بن أوس، وكان رجلًا مهيبًا عظيم اللحية، ظل صامتًا طوال الجلسة: ليس عندي أدنى شك في أن هذا الفتى سيعيننا كثيرًا على تثبيت الدين في قلوب الناس، ألم تروا كيف تزاحم العامة من أجل رؤيته والسلام عليه، وسيأتون عمّا قريب يتبركون به ويقدسونه، ولذا فلا ضير من بقائه في المعبد، لا سيما وهو ثقيل السمع، لا يكاد ينتبه لصراخنا، فضلًا عن همسنا الخافت عند مداولة أمور الدين بيننا.

هز الكاهن رأسه مبديًا إعجابه بهذا الكلام، فاستأذن الربيع بن سعد -وكان أصغر الثلاثة- ثم قال: في حقيقة الأمر أنا لا أخاف على وضاح من أحد، كما أخاف عليه من عدي نفسه، فما أظنه سيتركه لنا وحدنا، بعد أن علا شأنه عند العامة، لقد حاول أن يأخذه من أيدينا ليلة البارحة، فلما منعناه حاول الإساءة إلى سيدي الكاهن، ولذا فأنا اتفق مع أخي حُجر بن أوس في كل ما قال.

نظر الكاهن إلى السقف، ثم قال بهدوء:

بارك الله فيكم، نعم إن هذا الفتى منحة إلهية جاءت في وقتها المناسب تمامًا، لكي تزيد الناس إيمانًا بدينهم، ويقينًا بصحة ما أسلفنا لهم من القول، إن رجوع هذا الفتى المبارك من عالم الجن بفضل رقيتنا وتعاويذنا لهو أبلغ رد على هذا القَيّل المتخاذل، الذي رضي بدخول تجار المجوس إلى أرضنا، وأطلق لهم العنان في التمويه على الناس وإغرائهم بالأموال والهدايا،

وما هؤلاء التجار- على الحقيقة- إلا دعاة يحترقون شوقًا لإخراج الناس من دين جدتهم العظيمة، وإدخالهم في دين المجوسية وعبادة النار، ولكننا- ورب جدتنا العظيمة- لن نسمح لهم بذلك أبدًا مهما كلف الثمن، ومهما بذلنا في سبيل ذلك من تضحيات، وسيعلم هؤلاء جميعًا أننا لن نتنازل عن شعيرةٍ من شعائر ديننا، ما دام فينا عين تطرف.

طغى الحماس الملتهب على نفوس الرجال الثلاثة، وازدادوا حنقًا على هؤلاء المجوس، ومن سمح لهم بدخول مأرب.

4

ثلاثة أسابيع قد مرت منذ أن دخل وضاح إلى المعبد بحيلةٍ عجيبة رسم القَيّل فصولها، ونفذها زيد ووضاح بمهارةٍ وإتقان، فاقت تصور عدي نفسه.

رجع بعدها زيد وتسلل تحت جنح الظلام إلى السرداب الخفي الذي يؤدي إلى إحدى الغرف السرية للقصر، ثم دخل السجن بهدوء ونام ملء جفنيه.

أما عدي فقد أقام ليلة أخرى في قصره الجديد، لكي يخفي آثار الحيلة الذكية، التي انطلت على الجميع، بما في ذلك جمع الأبواق الكبيرة التي جلبها من الحبشة، خصيصا لهذه المهمة السرية.

رجع إلى قصره وهو يصطنع الدهشة، لما حدث في حفلة الختان، ويستعيد الحكاية مرةً بعد مرة، فيرد عليه جلساؤه، بأن رجوع وضاح في حفلة ختان ابنه الصغير طالع سعد وفأل خير له، بأنه سوف يعيد ملك أجداده التليد وسلطانهم القديم.

دخل القَيّل عدي على زيد في السجن بعد ثلاث ليال، فتذاكرا ما حدث تلك الليلة، وضحكا منه طويلاً.

ثم قال عدي: ويحك يا زيد لقد كدت أصدق أنك ملك الجن!!

ضحك زيد، وقال: أما أنا فقد خشيت أن يصدقني الجن، فيجتمعون حولي!!

ضحك عدي حتى كاد أن يستلقي على ظهره، ثم قال لزيد: سأعفو عنك أمام الملأ، فإذا خرجت من السجن فأظهر السخط عليَّ والغضب مني، ثم راسل بعض الوجهاء، فمن أجابك للخلاف فأرسل بردِّه إليَّ.

أجابه زيد: سمعًا وطاعة، ولكن أخبرني عن وضاح ماذا صنع؟

ابتسم عدي، وقال: لقد انطلت الحيلة عليهم تمامًا، حتى وضعوه في داخل الباحة الصغرى في المعبد بجوار غرفة الكاهن نفسه، وطفقوا يحرسونه ليل نهار، ولكنني لم أتصور أن يقدسه

عامة الناس، ويعظم أمره بينهم إلى درجة التبرك به وبآثاره، ولا أخفيك أن هذا الأمر بدأ يثير قلقي، فهل لديك حيلةٌ لهذا الأمر؟

أجابه زيد: لقد توقعت هذا الأمر لطول معاشرتي لهؤلاء السُّذّج، ومعرفتي بعقولهم الصغيرة، التي تصدق الخرافة أكثر من تصديقها للحقيقة، وقد أعددت لهم حيلةً تشتت رأيهم في وضاح، وتجعلهم خصومًا متنازعين من أجله، كما خططنا لذلك من قبل.

ابتسم عدي، ثم قال وهو يهز رأسه:

يا زيد! لم تخب فراستي فيك منذ رأيتك في مجلس الكاهن قبل أربع سنين، وفي كل مرة ازداد إعجابًا بحنكتك ودهائك.

◈◈◈◈

وضاح يدور في الباحة الصغرى للمعبد، وقد ارتاحت نفسه قليلًا، وأحس بشيء من الزهو، بعد أن رأى الناس يكاد يقتل بعضهم بعضًا لمجرد التمسح به والسلام عليه.

لم يستطع بعضهم الانتظار حتى يفرغ الكاهن من القداس، بل كان يرفع صبيته أمامه، أملًا في أن تقع عين وضاح عليهم، فتحل أجسامهم شيئًا من بركته، حتى قبل أن ينفث عليهم، ويرقيهم من الجن والعين، والبعض الآخر يكشف عن بطنه، ويرجو حرس المعبد أن يقدموه على غيره عند وضاح، فمرضه لا يحتمل التأخير.

لم يقتصر هذا الأمر على عامة الناس أيضًا، بل شمل حتى الحرس أنفسهم، وبعض تلاميذ الكاهن.

ما أجمل أن يعيش الإنسان في هذا الوهم اللذيذ، الذي يضفي على النفس راحةً عجيبة، تمنعها حتى من التفكير في وجه الحقيقة!

وما له ولعناء البحث والتأمل وإجهاد الفكر ما دام أن الناس قد شفي بعضهم بسبب رقيته، وحلت مشكلات البعض الآخر بمجرد لمسةٍ مباركة من يديه.

بالأمس يقسم أحدهم أمام الملأ في الباحة الكبرى: أنه قد وجد ماله الضائع منذ سبع سنين، بعد أن مسح وضاح على رأسه.

يكاد وضاح أن ينسى المهمة التي جاء من أجلها في خضم هذه الهالة، التي أحاطه بها الناس، وأضفت عليه شيئًا من القداسة.

تبدو المهمة أسهل بكثير مما كان يتصور، فالناس هنا طيبون جدًّا لدرجة السذاجة، ولكنهم -وفي الوقت نفسه- متعصبون جدًّا لدرجة التطرف.

يجتمع كبار التلاميذ كل يوم، ويتدارسون تعاليم الدين وشعائره، ثم يعرضون ما تعلموه على الكاهن الأكبر، الذي يقرهم على ما يفعلون في أغلب الأحيان، وينقح لهم المسائل أحيانًا.

يقضي هؤلاء جل وقتهم في جمع كل ما وجدوه من تعاليم وشعائر دينية في بطون المخطوطات القديمة وظهور النقوش الأثرية، ثم يضعونها في الكتاب الجامع، لتكون دينًا يتبع، وشريعةً ماضية، لا يجوز مخالفتها أو الاعتراض عليها.

بدأ وضاح يدرك أن المشكلة الجوهرية تكمن في أن هذه الشعائر قد كتبت في أحقاب مختلفة وظروف متباينة لأناس مختلفين في كل شيء، بينما يسعى الكاهن وأتباعه جهدهم لتطبيقها كلها على شخص واحد في وقت واحد، فيعود المرء مكبلًا بهذه التعاليم، التي ترسم له كل خطوة يمشيها، وكل كلمة يقولها، وعليه أن يطبقها بحذافيرها وإلَّا عاد مذنبًا.

ينتابه الغضب أحيانًا عندما يسمع سائلًا يسأل عن ظرفه الخاص الذي لا يعلم تفاصيله سواه، فيبحث له أحد أولئك التلاميذ عن نصٍّ أثري في مخطوطة قديمة، فيرضى السائل ويسلم دون نقاشٍ أو جدال، وينقلب إلى أهله راضيًا مسرورًا.

◈◈◈◈

لم يعد لدى وضاح أدنى شك في أن الربيع بن سعد هو مفتاح الحل، فعلى الرغم من صغر سنه مقارنة بصاحبيه الآخرين، إلا أن له سحرًا خاصًّا يؤثر في قلوب الناس ويلامس مشاعرهم، ثم هو جريءٌ في اتخاذ المواقف، وتبني الآراء الجديدة، التي تختلف عما اعتاد عليه الناس هنا في هذا المعبد الذي، يشبه القلعة المغلقة.

والأهم من ذلك -بالنسبة لوضاح- أنه أحرص الثلاثة عليه، وأشدهم رعايةً له، فبينما يبعده عاصم بن أدهم، ويقصيه عن مجالسه، وكأنه يشك فيه، لا يرتاح الربيع إلا إذا كان وضاح قريبًا منه، ولا يبالي أن يتحدث أمامه بأي سر من أسرار المعبد، وكأن الحيلة قد انطلت عليه تمامًا.

أما الرجل الثالث حُجر بن أوس فهو طويل الصمت، بارد المشاعر لا يتكلم كثيرًا، وليس فيه مزيةٌ عن صغار التلاميذ، سوى أنه يحفظ المخطوطات عن ظهر قلب.

يدور وضاح في الباحة الصغرى ويخاطب نفسه: رائع! لقد أنجزت ثلث المهمة بنجاح، الربيع هو أنسب الثلاثة لخلافة الكاهن، لم يبق سوى التحري عن أموال المعبد، فهي أخطر الأمور على ما يبدو، أما علاقات الكاهن وأتباعه، فالزمن كفيل بإظهارها واحدةً تلو الأخرى، لا سيما وهم على قدرٍ كبير من الغفلة، التي تصل أحيانًا إلى السذاجة.

لم يلبث وضاح طويلاً حتى ساعفه القدر، وأعد له مفاجئةً رائعة لم يكن يتوقع حدوثها أبدًا، فقد أمر الكاهن بأن يتناوب الثلاثة على إدارة المعبد، بحيث يقضي كل واحدٍ منهم أسبوعًا كاملًا، لا يفارق المعبد، بينما يُمضي الآخران وقتهما خارج المعبد، ولا يحضران حتى القُدّاس.

لم يجد وضاح تفسيرًا لهذا التغير المفاجئ، سوى أن ثمة أمورًا طارئة قد حدثت في المدينة تتطلب وجودهما باستمرار.

مر أسبوعٌ كئيب صامت كصمت صاحبه حجر بن أوس الذي يقضي وقته في مراجعة محفوظاته الكثيرة، دون أن يختلط مع بقية الناس هنا. كان وضاح يمضي وقته في النوم أو في التأمل وحيدًا. وما هو إلا أن دخل الربيع بن سعد حتى تغير كل شيء، وأصبح المعبد شعلة نشاط لا يهدأ حماسها أبدًا، فتارة يجمع الحرس، ويعلمهم القراءة والكتابة بخط المسند، وتارة يتطبب في أذن وضاح، ويحاول علاجها بشتى الطرق.

فإذا فرغ من ذلك كله، دخل على الكاهن ودارسه العلم وقتًا طويلاً، كان وضاح خلالها يسند ظهره على جدار غرفة الكاهن، وربما وضع أذنه على الأرض دون أن يشك في أمره أحد.

يبدو أن الحيلة قد انطلت على الجميع، فحتى عندما تواردت الأنباء من نجران بغدر ذي نواس[1] بأهلها، وكيف نكل بهم نكالاً ما سمع البشر بمثله قط، كان ذلك اليوم حزينًا كئيبًا على وضاح لوجود أخوته في نجران، ومع ذلك فلم ينتبه لحزنه أحد.

◈◈◈◈

---

(1) ملك يهودي، اسمه يوسف أسأر ، وهو صاحب قصة الأخدود الذي أحرق نصارى نجران بالنار.

سبعة أشهر مرت منذ أن دخل وضاح إلى المعبد، أصبح الوضع مملًا والأحاديث متكررة، ليس فيها ما يشد الانتباه أو يساعد وضاح في فهم لغز الأموال الطائلة، التي يغدق بها الكاهن على أتباعه.

لم يخطر ببال وضاح أن يكون حل اللغز على يد عاصم بن أدهم في ليلةٍ باردة من ليال الشتاء الممطرة.

لم ينم وضاح تلك الليلة لشدة ما أصابه من الحمى، بعد أن تزاحم الناس عليه في المساء حتى عجز الحرس عن تنظيمهم، بقي طويلاً يمسح على رؤوسهم، وينفث على صدورهم، حتى أنهكه التعب، وتزايدت به الحمى فغشي عليه.

حمله حجر بن أوس مع بعض الحرس، ووضعوه في إحدى الغرف، وهو يهذي من شدة الحمى، أفاق بعد ساعةٍ خائر القوى، لا يستطيع حراكًا، فلبث هامدًا في لحافه، تشتد به الحمى تارة، وتخف وطأتها تارةً أخرى.

وفي ساعةٍ متأخرة من الليل البارد دخل رجلٌ ملثم، قد بلله المطر، فاتجه نحو الغرفة التي ينام فيها وضاح، وهو لا يشعر بوجوده، جلس في الزاوية، ثم نادى على حجر بن أوس بصوت خافت.

عرف حجر الصوت فأتى بسرعة، وقد أخذته المفاجأة، فقال بذهول:

عاصم! ما الذي جاء بك في هذه الساعة المتأخرة؟

أجابه عاصم، وهو يناوله صندوقًا صغيرًا:

لقد ذهبت للتو إلى مغارة الهول، وجلبت منها ما نحتاجه من الذهب والمجوهرات لمدة ثلاثة أشهر.

أخذ حجر الصندوق من يده، وقال: ولكن لمَ ذهبت في هذا الوقت دون أن يأمرك سيدي الكاهن؟

أجابه عاصم، وهو يتلثم بعمامته:

أبلغ سيدي أن عيون القَيْل عدي قد أصبحت تحاصرنا في كل مكان، فلم أجد أنسب من هذه الليلة الممطرة لجلب المال، فالمطر يخفي الأثر ويبعد الشبهة، والبرد يمنع الناس من الحركة، لكن أخبر سيدي أن يحتاط جيدًا، فالمدينة أصبحت تغلي كالمرجل.

قام عاصم، وهو يلتفت يمنةً ويسرة، فوقعت عينه على اللحاف الذي ينام فيه وضاح، فأمسك بلحية حجر، وقال بحدة: ويحك من هذا؟!

أبعد حجر يده بلطف، ثم قال: هون عليك! هذا وضاح قد أصابته الحمى، حتى أغمي عليه وهو نائمٌ منذ المساء.

حبس وضاح أنفاسه، وأغمض عينيه، بينما اتجه إليه عاصم بهدوء ورفع الغطاء، وجعل يدقق النظر فيه، ثم وضع يده على جبهته.

قام بسرعة، ثم رجع إلى حجر، وهو يقول: لا بأس، إنه لا يزال محمومًا. ولكن إياك وهذه الغفلة مرة أخرى.

هز حجر بن أوس رأسه، وودع زميله الذي غادر مسرعًا كما جاء، ثم عاد إلى مكان نومه.

◈◈◈◈

طار النوم من عيني وضاح، وانتابه فزعٌ شديد من هول ما سمع آنفًا، يكاد يكذب سمعه وبصره، ويتهم الحمى الشديدة التي لا تزال تعوده بين الفينة والأخرى.

ولكنه قد أحس بيد عاصم الباردة على جبهته، ولا يزال البلل نديًّا على طرف ناصيته، فالأمر حقيقةٌ إذًا وليس أضغاث أحلامٍ سببها هذيان الحمى.

مغارة الهول!!! نعم مغارة الهول هي مستودع الأموال والكنوز!

يا ويح ذلك الكاهن الداهية، كيف استطاع أن يخدع مدينة كاملة ردحًا من الزمن، وكيف اخترع هذه القصة المرعبة، لكي يبعد الأنظار عن كنوزه وخزائن أمواله.

لقد خدع حتى زعيم القبيلة رياح بن قيس وابن أخيه القَيْل عدي بهذه الحيلة العجيبة، فكيف بعامة الناس.

أخذ وضاح يستعيد ذكرى دخوله المغارة قبل عدة سنين، ويسأل نفسه بإلحاح هل رأى على الحقيقة شيئًا غريبًا لم يعتد رؤيته في المغارات الأخرى التي دخلها من قبل؟ أم أن الهلع والخوف هو الذي صور له الأشكال المرعبة التي شعر وكأنها تطارده عندما خرج مذعورًا من المغارة.

وما هذا الصندوق الذي جلبه عاصم؟ أليس من الممكن أن يكون هو نفس الصندوق النحاسي العتيق الذي أخبره زيد أن مردة الجن قد صفدت فيه، ثم رآه رأي العين تحت الصخرة التي قلبها في أقصى المغارة؟

استغرق وضاح في تأمله طوال الليل حتى وصل إلى تساؤلٍ مرعب، ارتعدت له فرائصه، وارتجف له قلبه: إذا كانت قصة مغارة الهول كلها مختلقة، فمن الذي خنق الراعي عندما تجرأ ودخل المغارة، ثم رمى بجثته من أعلى الجبل إلى أسفل الوادي؟

تحسس وضاح رقبته، وهو يخشى أن يكون هو الآخر ضحيةً للعبةٍ كبيرة يلعبها الكاهن، الذي يتظاهر هو وأتباعه بالسذاجة والغباء أحيانًا؟

أليس الكاهن هو المستفيد الوحيد من إبقائه في المعبد لكي لا يختلط بعامة الناس، فيخبرهم بحقيقة ما رأى في المغارة؟

من يضمن له ألا يتخلص منه الكاهن، ويقتله شر قتلة، كما قتل الراعي خنقًا بمجرد أن تنتهي مصلحته منه أو يحس بوجود أي خطر عليه.

أغمض عينيه بشدة وهو يتابع هذه الأسئلة المرعبة التي أقضت مضجعه، وحرمته النوم حتى بعد هدوء الحمى.

◈◈◈◈

لم يكد يمضي أسبوعٌ واحد على هذه القصة، حتى تأكد وضاح من قصة مغارة الهول، عندما رأى حجر بن أوس يحمل صندوقًا أصفراً يشبه الصندوق الذي رآه في المغارة تمامًا.

يبدو أن أشهر العسل في هذا المعبد قد ولت إلى غير رجعة، وحل محلها الشك والارتياب في نفس وضاح، كلما ازداد تأملًا واستغرق تفكيره في هذه الأحجية الكبيرة التي توصل إلى حلها فجأة دون أن يحيط بتفاصيلها وأبعادها.

احتشد الناس في الباحة الكبرى، وأقاموا ينتظرون خروج الكاهن الأكبر، الذي أقبل يمشي بهدوءٍ وسكينة، حتى جلس على منبره، وأجلس وضاحًا عن يمينه، يحيط به اثنان من حرس المعبد.

ابتدأ الكاهن خطبته العصماء، التي شرح للناس فيها جوانب من سيرة جدتهم بلقيس، بينما أخذ وضاح يختلس النظر إلى الناس، وقد أصابه الملل من كثرة ما سمع هذا الكلام.

التفت ذات اليمين، فرأى زيدًا قد جلس متوثبًا، يحيط به جمع من الرجال، شعر بشيء من الخوف، وأحس أن حضور زيد نذيرٌ بتفاقم الأمور.

وما إن فرغ الكاهن من خطبته، حتى وثب رجل من أقصى المجلس، وخاطب الكاهن بحدة، ورفع صوته قائلًا: كيف تدخلون رجلًا جاء من عالم المردة والشياطين إلى معبدنا المقدس؟ إنكم بهذا تناقضون دين جدتنا، الذي قام على محاربة أولئك المردة، وما أظن هذا الرجل إلا شيطانًا مريدًا، قد تشكل على هيئة وضاح.

- إنه شيطان. اخرجوا هذا المارد! صاح بها رجل من ناحية زيد.
- لا..لا.. هذا رجلٌ مبارك.. لقد شفي والدي من مسحة يده. قالها رجل آخر من الناحية الأخرى.
- صحيح! لقد جاء من عالم الجن، فكيف أدخلتموه المعبد؟

ساد الهرج وعمت الفوضى، واختلف الناس فيما بينهم، حتى علت أصواتهم، فغضب الكاهن غضبًا شديدًا، وخطب فيهم خطبةً طويلة، يلومهم على رفع الأصوات في المعبد، ويوبخهم على جرأتهم في إظهار الخلاف بينهم وهو حاضرٌ موجود.

لم يتطرق لأمر وضاح، بل لامهم كثيرًا على الاختلاف في الدين بحضرة العلماء.

سكت الناس على مضض، وإن كان في أنفسهم ما فيها، بينما انسل زيد وأتباعه في هدوء وخفية، وتركوا الناس، وقد التبس عليهم الأمر، لدرجة أن الحرس خافوا على وضاح، فمنعوا الناس من الاقتراب منه.

الفصل السادس

الأوهام المتحاربة

1

دار بهرام على ضفاف الوادي.. وقد غدت قبلةً لوجهاء المدينة وعلية القوم، يقيم فيها الموائد الباذخة كلما قدمت قافلةٌ من قوافله الكثيرة التي تجوب أنحاء اليمن.

أما عامة الناس في مأرب فهم يلعنونه جهارًا، ويسبون دينه نهارًا، ولكنهم لا يقاومون إغراء موائده الشهية، فضلًا عن دنانيره ودراهمه، فيتسلل أكثرهم ليلًا لحضور حفلاته الصاخبة التي يتفنن فيها ويحضر لها الجواري الفارسيات ذوات الدل والجمال وآلات الطرب التي لم يسمع بها الناس من قبل.

لم يحضر القَيْل أي حفلة من تلك الحفلات، ولكن الناس في مأرب يهمسون بينهم همسًا خفيًّا، وربما تحدث بعضهم عن الليالي الملاح التي تُقام داخل القلعة المغلقة بعيدًا عن أعين الرقيب.

لم يفتتح بهرام دكانًا، ولم يمتلك عقارًا منذ أن قدم إلى مأرب، ولكنه يفيض سماحةً وكرمًا، وقد أقرض أغلب التجار في السوق قروضًا حسنة لا تثقل كواهلهم، بل تعينهم على التوسع في تجارتهم مقابل أوراق بيضاء يضعون أختامهم عليها، وهو يرهن بها تجارتهم، لكي يستوثق من سداد دينه.

لم يكن التجار يبالون بهذه الأوراق، ولم يساورهم أدنى خوف على متاجرهم، فهم مطمئنون إلى سماحة بهرام وكرمه من

ناحية، وهو حتمًا لا يحسن الحدادة أو النجارة، فضلًا عن دباغة الجلود من ناحيةٍ أخرى.

يجتمعون في داره أحيانا، فيحدثهم عن جمال بلاد فارس، وكيف توسعت تجارتها وعظمت صناعتها، وكيف استتب الأمن في أرجائها الشاسعة، ويثني كثيرًا على حكمة ملكها الأعظم قباذ بن فيروز وعلى وزيره الداهية أنوشروان الخير[1].

يتعمد أحيانًا إطالة الحديث، ليحط من قدر أتباع الكاهن تلميحًا في ثنايا كلامه، دون أن يصرح بذلك مباشرة.

سأل التجار مرة عن أكبر ما يعترض طريق تجارتهم من عقبات ويحول بينهم وبين التوسع مع البلدان الأخرى، فخاضوا في كل واد، وذكروا أمورًا كثيرة. كان بهرام في أثناء الحديث يهز رأسه، ولا يتكلم، حتى قال أحدهم: إن الكاهن الأكبر يوصينا بأن لا نتاجر إلا مع منهم على شاكلتنا في الدين، وأن نقاطع بضاعة كل من خالفنا، وأبى أن يدخل في ديننا.

قبض بهرام يده، وقال بحزم: نعم هذا هو سبب ضعفكم وقلة تجارتكم، فهو يأمركم أن تقطعوا صلتكم بالحاضر رعاية للماضي الغابر، وأي رأي هذا الذي يمنعكم من التجارة مع غيركم، وأنتم أقل الأمم عددًا وأكثرها اختلافًا؟

(1) هو كسرى أنو شروان الأول، كان عالمًا وفيلسوفًا، حكم بعد وفاة قباذ سنة 531 م، فسار بالناس سيرة حسنة، وأقام العدل في الناس حتى توفي سنة 579م، وهو أعظم الملوك الذين حكموا فارس، وأكثرهم شعبية، واشتهر بالألقاب الحسنة كالخير والعادل.

أجابه أحد التجار مؤيدًا كلامه: ومع هذا فهو يفرض علينا مقدارًا من المال، ندفعه للمعبد كل حول.

اندفع بهرام قائلًا: وهذا سببٌ آخر لضعف تجارتكم، فهو يستولي على أموالكم دون حق، فإما أن يصرفها على أتباعه الحمقى، الذين لا يعملون شيئًا، أو يكنزها في خزائنه.

قطع بهرام كلامه، ثم استدعى خازنه، وكلمه بالفارسية التي لا يفهمها سواه، ثم التفت إلى التجار قائلًا:

لقد أمرت خازني أن يسقط عنكم عشرةً في المئة من الديون، فاذهبوا وتاجروا مع من شئتم، ولا يهمنّكم أمر هذا الكاهن وأتباعه.

علا وجوههم البشر، وانفرجت أساريرهم، وقاموا يشكرون بهرام، ويتحدثون عن شدة كرمه وحصافة عقله.

◇◇◇◇

عاصم بن أدهم والربيع بن سعد قد اجتمعا مع ثلة من كبار التلاميذ في بيت أحد الأتباع المخلصين، لتداول الرأي والمشورة بعد أن ظهر أمر بهرام، وعلا شأنه في المدينة.

افتتح عاصم الجلسة بالثناء على جدتهم العظيمة، وحث الناس على التمسك بدينها، الذي كان السبب الرئيس في نهضة أجدادهم وعلو شأنهم بين الأمم.

ثم قال بشيء من الحسرة:

إن أتباع ديننا لا يزالون في زيادةٍ مُطّرِدة منذ أن أحيا رسومه مولانا الكاهن الأعظم، وساعده على ذلك زعيمنا رياح بن قيس -شفاه الله- ولكن أكثر الأتباع كما تعلمون من الضعفاء، الذين لا مال لهم ولا تجارة عندهم، وإنما هم عالةٌ على الأغنياء منا، وقد تغير التجار علينا منذ أن قدم هذا المجوسي الماكر، فقطعوا صِلاتهم ومنعوا زكاتهم، وما اجتمعنا اليوم إلا لنتداول الرأي قبل أن يستفحل الداء ويستحيل الدواء؟

ساد الصمت برهة، ثم استأذن أحد الشباب المتحمسين وقال: إن هذا المجوسي ما قدم إلا بأمر عدي بن عمرو، ولن نتخلص منه ما دام القَيْل في قلعته وبين جنوده.

وجم عاصم مرةً أخرى، وكأنه قد أحس بشيء من الرهبة لهذا الجرأة، التي قد تجلب عليهم المصاعب، وتزيد النار اشتعالاً، فتدخل الربيع بن سعد، وقال بحنكته المعهودة:

لا خير لنا في استعداء القَيْل عدي، وهو ابن أخي رياح الذي أعان مولانا أول الأمر، ومكنه من جمع النقوش والمخطوطات، ثم ساعده في نشر الدين بين الناس، وجمع القلوب عليه، والحل في نظري أن نأخذه بالصبر والمطاولة، لعله أن يثوب إلى رشده، ويرجع إلى صوابه.

رد عليه عاصم، وقد أدركته حدته في تقدير الأمور:

يا ربيع أنا أعلم بهؤلاء الأقيال[1] منك، إنهم يريدوننا كالعباءة التي يلبسونها متى شاءوا، ويخلعونها متى شاءوا. ورب جدتنا العظيمة لا نحيد عن شعيرة واحدة من شعائر دين بلقيس، ولو هلكنا جميعًا.

تحرك الناس من الحماس عندما سمعوا هذا الرأي الحاد، فسكت الربيع وأظهر الموافقة لهم.

تقدم أحد الشباب، وقال لعاصم: لدي رأيٌ يحسم الأمر قبل تفاقمه، ويستأصل الداء قبل استفحاله، نرسل الليلة إلى أتباعنا، ونجمعهم غدًا صباحًا أمام دار بهرام، ثم نحاصره في بيته، فإما أن يرحل عنا، وإما أن نوثقه بالحبال، ونأتي به إلى سيدي الكاهن فيحكم فيه برأيه.

أمسك عاصم بلحيته، وقال: هذا هو الحزم بعينه! وهذا ما كنت أفكر فيه منذ وقت، سنأخذه على حين غرة ثم نضع عدي أمام الأمر الواقع، فإما أن ينحاز لنا ويتخلى عن بهرام، وإلا أخذنا نحن زمام المبادرة، وطردنا هذا المجوسي من بلادنا.

رأى عاصم الحماس في وجوه القوم، فأكمل كلامه قائلًا: لقد تعلمت من سيدي أن النجاح وليد المغامرة، وأن الفشل قرين الخوف والتردد، فلنُعدَّ أنفسنا لمفاجأة عدونا.

---

(1) جمع قَيل.

تحلق الجميع حول عاصم الذي شرح لهم الخطة بإيجاز، ثم طلب منهم تجديد البيعة للكاهن، وتأكيد قسم الطاعة وحفظ الأسرار.

انصرف الجميع وتفرقوا في طرق المدينة وبين دورها يبثون روح الحماس والتحدي، ويستجمعون ما في أنفسهم من حمية متأصلة لدين جدتهم العظيمة.

◈◈◈◈

الفجر.. وقد خرجت جموع الأتباع، وسالت بهم سكك المدينة وأزقتها، ثم ساروا جميعًا يقصدون دار بهرام على ضفاف الوادي، انتظمت صفوفهم الطويلة، وكأنها صفوف النمل المتجهة نحو مزرعة القمح التي صرمت[1] بليل.

يزداد الحنق ويشتد الهتاف كلما اقتربوا من الدار، يسري الحماس في الجموع وتزداد الثقة، كلما انضمت لهم فرقةٌ من أحد الأحياء.

يتقدمهم الربيع بن سعد، وهو يحفزهم، ويتلو عليهم كلمات الكاهن، ويقرأ عليهم رسائله:

- أبشروا يا من نصرتم دينكم بالبركة في أعماركم وأموالكم.
- روح جدتكم تحف بكم، وتؤيدكم، وتبارك مسعاكم.

---

(1) صرمت: حصدت.

انبرى عاصم بن أدهم من بين الصفوف، وأشار جهة دار بهرام، وكان حاد الصوت قوي اللهجة:

- أيظن هذا المجوسي أن نترك له دار آبائنا وأجدادنا، وهو يسب ديننا ويسفه أحلامنا.
- لا ورب جدتنا، لن يقيم فيها بعد اليوم.

طغى الحماس، وازداد الحنق، وتوافد الناس من كل حدب وصوب، حتى امتلئ الطريق، خشي الربيع من فورة غضب هذه الجموع الهائلة، فقال لهم: سيدي الكاهن الأكبر يقول لكم: لا تدخلوا بيته، ولا تؤذوه، أو تؤذوا أهل بيته، وسنحمله إلى المعبد، ثم نرى رأينا فيه.

صرخ عاصم بن أدهم، وقال بشيءٍ من الزهو والغرور: إلا إذا حاول المقاومة، فلن يفلت منا، حتى لو اضطررنا إلى قتله.

سار الجميع وقد امتلئ الفضاء بصراخهم، وضجت الأرض من وقع أقدامهم، فلما اقتربوا من الدار انكشفت لهم المفاجأة، التي لم يحسبوا حسابها..

القَيْل عدي بن عمرو! وقد حال بينهم وبين دار بهرام بحرسه وجنوده، الذين تسربلوا بالدروع السوابغ، وامتشقوا السيوف اليمانية، ورفعوا رؤوس الأسنة[1] على صدور الخيل، ومن

(1) جمع سنان، وهو الرمح.

ورائهم بهرام، ومعه جمع غفير من الرجال، قد تمركزوا في فناء الدار، وفوق الأسطح، وفي أيديهم القوس والنشاب[1].

توقفت الجموع، والتف بعضها على بعض من هول المفاجأة، بينما وقف القَيْل عدي وجنده، وقد أفزعتهم الجموع العظيمة، التي تكاد أن تحيط بهم. ولبرهة قصيرة ساد الصمت الحذر، الذي ينذر بتفجر الأمور وخروجها عن السيطرة، لولا هيبة كل فريقٍ من الآخر.

تقدم عدي قليلًا، ثم اتجه نحو عاصم، وقال: إيــه يا عاصم! أتريد أن تشق عصا الطاعة وتفرق الجماعة؟ وهل تظنني غافلًا عما تدبر أنت وأشباهك؟

تقدم عاصم وقد أحاط به جمع من أتباعه، خوفًا عليه من سهام الجند، فقال بغضب: لقد كنت في غنىً عن هذا أيها القَيْل، أخرج هذا المجوسي من بين أظهرنا، إن أردت أن تعيد الأمور إلى نصابها!

غضب القَيْل غضبًا شديدًا، فقال: أتأمرني يا عاصم؟ ألم يكن أبوك دباغًا يخرز الجلود؟

رد عليه عاصم، وقد أخذته الحمية: دعك من هذا الكلام الذي مضى وقته وفات أوانه، أما ترى كل هذه الجموع التي تأمرك بنفس الأمر.

---

(1) نوع من الأقواس الطويلة، بعيدة المدى، برع الفرس في صناعتها والرماية بها.

صاح به عدي: الويل لك! أتهددني برعيتي أيها الوغد الحقير؟ ثم زجر فرسه، ووقف على تلة قريبة، وصاح بالناس:

يا أهل مأرب! أنا زعيمكم عدي بن عمرو، فمن سمع وأطاع فليخرج ذات اليمين.

اضطرب الناس اضطرابًا شديدًا، واختلت صفوفهم، فخرج زيد من بينهم، ووقف ذات اليمين، ثم صاح بأعلى صوته: أيها الناس! أنا زيد ابن أسلم الذي سجنه القَيْل عدي، وطاف به جنده على حمار، ومع ذلك فأنا أقول لكم: لا خير لنا في معاداة زعيمنا والخروج عن طاعته، فهو أولى بالسمع والطاعة من هؤلاء، هلموا إليَّ، هلموا إليَّ..

اضطرب الناس مرة أخرى، ثم خرج له جمعٌ غفير، يناهز ثلث الناس تقريبًا، ووقفوا ذات اليمين، وهم يعلنون السمع والطاعة لعدي بن عمرو، بينما وقف عاصم يحث بقية الناس على الثبات، ويذكرهم بوصية الكاهن، ويحذرهم من مغبة التراجع، وترك هذا المجوسي يعبث بدينهم ومدينتهم.

◇◇◇◇

أشار القَيْل عدي إلى الجند، فاصطفوا للحرب، ورفعوا الرايات، وتقدموا نحو الجموع، ينتظرون الأمر بالهجوم.

تريث قليلًا، ثم تقدم نحو عاصم، وقد وضع المغفر[1] على رأسه، وقال له بسخرية وتهكم: أيها الخائن المغرور! أتريد أن تحارب الجند بالحجارة والصدور العارية.

صاح به عاصم قائلًا: أيها الصابئ المرتد أتظن أنك قد أخذتنا على حين غرة؟ ثم التفت إلى أصحابه، وقال لهم: البسوا الدروع، واحملوا السيوف، ثم دافعوا عن أنفسكم وعن دينكم ومدينتكم.

بُسطت الأنطاع[2]، وفتحت الصناديق وسط الجموع، فازدحم أتباع الكاهن عليها، يلبسون الدروع ويسلون السيوف ويتقدمون إلى الصفوف الأمامية، وقد أخذتهم الحمية، وغلت الدماء في عروقهم.

وفي تلك اللحظة الحرجة، وقد اقتربت الصفوف من بعضها، واستعدت الأبطال للنزال، فهم ينتظرون النداء الأخير لكي ينشبوا الحرب العضال، وثب الربيع بن سعد، ووقف بين الصفوف، وصرخ بأعلى صوته:

أيها القَيْل، سيدي عاصم! يا عقلاء مأرب وحكماءها! ما نصنع بإراقة دماء بعضنا؟ أتريدون أن يجتمع شملنا مرة أخرى، وأحدنا ينظر إلى من قتل أباه أو أخاه؟

---

(1) خوذة من حديد، توضع على الرأس، وتغطي العنق وأطراف الوجه.

(2) جمع نطع، وهو بساط من الجلد المدبوغ.

يـا أهـل مـأرب! ألسـتم إخـوة في الديـن والنسـب واللسـان؟ فلمـاذا تجيبـون داعـي الشـيطان؟

يـا أحفـاد بلقيس! أيـن ضل حلمكم، وأين ذهبت عقولكم؟ هل تفقأ العين أختها؟ أو تقطع اليد ساعدها؟

اغمـدوا سـيوفكم، واخفضـوا صـدور رماحكـم قبـل أن تزهـق أول نفس ويسيل أول دم، فثـم لا حسـرة تغنـي ولا نـدم.

هـدأ النـاس وتراجعـوا إلى الـوراء، وتوقـف الجنـد عـن التقـدم، فقال عدي بهدوء:

بـارك الله فيـك يـا ربيـع، أنـت والله أقربهـم رحمًـا، وأرجحهـم عقـلًا، فَمُـرْ هـؤلاء السـفهاء أن يتراجعوا إلـى بيوتهم، قبل أن أبطش بهـم، وأجعلهم عبرةً ونكالًا.

أجابـه الربيـع: أيهـا القَيْـل ليـس هـذا مقـام التهديـد والوعيـد وتسـفيه الأحـلام، وقـد صفـت الجمـوع، واسـتعدت الأبطـال للحـرب، فاخفض من جنـاحك قليلًا، ولا تغلق أبواب الصلح في وجوه النـاس.

رد عليـه عـدي، وهـو يخلـع المغفـر عـن رأسـه: حسـنًا يـا ربيع لك هذا على أن يتفرق الجمع، ويعود كل واحد إلى بيته، فإذا حل المساء فأرسـلوا وفدكم، ولتكن أنت على رأسـهم وأبعدوا، عنـي رأس الأفعى عاصم، فإني لا أحتمل كلامه.

أجابه الربيع: بارك الله فيك أيها القَيْل، سأبذل وسعي في إصلاح ذات البين.

مشى الربيع بن سعد إلى أتباع الكاهن، واقترب منهم والعيون ترمقه، وكأنهم يتوجسون خيانة من جانبه، فقال لهم: لقد صرفت عنكم بأس عدي وبطش جنده، فامضوا من هنا صفًّا واحدًا، وإياكم أن تتفرقوا فيتخطّفكم جند القَيْل واحدًا تلو الآخر.

رد عليه عاصم بن أدهم: لقد أشرت بالرأي، وأمرت بالحزم، ولو قلت غير هذا لشككنا في أمرك.

غضب الربيع بن سعد، وقال بحزم: ويحك يا عاصم! لقد كدت تهلك أتباعنا، وتلقي بهم في لهيب حرب غير متكافئة، وما تصرفت أنا في هذا الموقف الحرج إلا لكي نلتقط أنفاسنا، ونعد عدتنا.

لم يكد الربيع يكمل كلامه، حتى قدم الصارخ من جهة المعبد: النجدة، النجدة.. هجمت الخيل على المعبد، وعاثت فيه فسادًا.

قفز عاصم من مكانه، وأمسك بتلابيب الرسول، وقال له: هل أصاب سيدي مكروه؟

رد الرسول وهو يلتقط أنفاسه: لا، سيدي بخير، وقد دافعنا عنه دفاعًا مستميتًا، فلم يقدروا عليه، ولكنهم سرقوا بعض المتاع، وخطفوا وضاحًا، ثم مضوا هاربين جهة الغرب.

صرخ عاصم بأعلى صوته: اتبعوني إلى المعبد، اتبعوني إلى المعبد.

تحرك الناس على عجل، والربيع يمشي في أخرياتهم، ويصيح بهم: امضوا على تعبئتكم، ولا تختل صفوفكم، فتقعوا بين فكي الكماشة.

مضى الجميع حتى وصلوا المعبد، وقد اضطرب أمره، واختل نظامه، وقد أشرع الحرس رماحهم، ووقفوا يحرسون أبوابه.

تقدم عاصم والربيع ودخلوا على الكاهن الأكبر، فوجدوه واقفًا في الباحة الكبرى، بيده حربة عريضة، وقد حزم ظهره بنطاق أسود، والجند محيطون به.

قبّل عاصم رأسه، وهو يقول: كيف حالك يا سيدي؟ هل أصابك مكروه؟

رد الكاهن: أنا بخير، ولم يصبني أذى، وقد رددنا اللصوص على أعقابهم، ولكنهم خطفوا وضاحًا، وهربوا به فلم نستطع اللحاق بهم، فقد كانوا خيالة، وليس معنا خيل.

التفت الربيع إلى الأتباع، وقال لهم: هل سرقوا شيئًا؟ هل دخلوا الباحة الصغرى؟

أجابه الكاهن: لا تخف لم ينالوا شيئًا يستحق الاهتمام، سوى بعض الصناديق الفارغة، التي يظنون فيها مالًا، ولكنهم قد خطفوا ضيفنا وأمانتنا.

صرخ عاصم في وجوه الجند، وقال لهم: ماذا كنتم تفعلون؟ أكنتم نائمين؟ وهل عرفتم منهم أحدًا؟

رد عليه قائد الجند: يا سيدي لقد كانوا أكثر منا عددًا وعدة، وأخذونا على حين غرة، ونحن نتابع أخباركم. قاطعه الكاهن قائلاً: لا تعاتبهم، فقد أبلوا بلاءً حسنا في الدفاع عني وعن المعبد، وقد أصيب أحدهم إصابةً بالغة، فعالجوا جراحه، وأوقفوا نزيف دمه.

قال عاصم للكاهن: يا سيدي، كاد عدي بن عمرو أن يهجم علينا بخيله، لولا ما رأى من كثرة جمعنا وقوة بأسنا، والرأي عندي أن نقيم معسكرنا بجوار المعبد، وأن نقتني الخيل ونعد العدة، فقد كشفت الحرب عن ساقها، وكشّرت عن أنيابها.

أجابه الكاهن: لا بأس، أقيموا الليلة بجوار المعبد، حتى نتشاور في أمرنا ونرى رأينا.

2

وقف القَيْل في مكانه طويلاً حتى انصرف جمع الناس، ثم نزل عن فرسه، واستدعى زيدًا واعتنقه أمام الجند، وقال لهم: احملوه على جواد مُطَهّم[1]، وليكن من خاصتي، فهو أولى الناس بذلك.

(1) هو الفرس الأصيل، تام الخلقة، حسن المنظر.

دنا زيد من القَيْل فقبل يده، وهو يظهر فروض الشكر والامتنان، ثم ركب بجواره، بينما سار الجند جهة القصر، وتركوا حاميةً قليلة من الخيل ترابط بجانب دار بهرام.

ما لبثت الرسل أن توالت على عدي تخبره بما حدث للمعبد فاستدعى أحد القواد، وقال له: انتخب كوكبة من الفرسان، وامض بهم إلى المعبد، فإذا لقيت الكاهن فقل له:

يُقرئك مولاي السلام، ويقول لك: كف أتباعك عن الشغب، فقد أشغلونا عن حماية المدينة، حتى تجرأ اللصوص علينا، فإذا فرغت من الرسالة، فاركب أنت وجندك وكونوا بإزاء المعبد من جهة الغرب، ولا تسمحوا لأحد أن يتجاوزكم كائنًا من كان، وراقب ما يدور حول المعبد، ثم وافني به.

انطلق الفرسان تتعادى بهم خيولهم جهة المعبد، بينما مضى عدي إلى قصره، وقد انقبضت نفسه وتغير مزاجه، فلما دخل القصر خلا بزيد، وقال له: لقد حدث مالم يكن بالحسبان يا زيد!

اقترب منه زيد، وقال: هل تقصد كثرة جموعهم يا مولاي؟

أمسك عدي برسالة وصلته للتو من قصره الآخر بجانب السد، ثم قال: لا يا زيد، لا أقصد أتباع الكاهن، فقد قدّرت أن يكون عددهم كبيرًا، ولكن ما أعنيه أمر بهرام.

بهرام؟ ما به يا سيدي؟ قالها زيد، وقد أخذته الدهشة.

أجابه عدي: لقد فاجأني بكثرة أتباعه وقوة شوكته وسلاحه، والأدهى من ذلك أنه علم بالمؤامرة، واستطاع أن يجمع أتباعه قبل أن أخبره بجلية الأمر، لا أشك أن له عيونًا بين حاشيتي، وربما من أتباع الكاهن أيضًا.

عجيب! كل أولئك الرجال الذين كانوا في الفناء وفوق الأسطح هم رجال بهرام؟ قالها زيد باستنكار.

رد عليه عدي: نعم يا زيد، فما الحيلة فيه قبل أن يستفحل أمره، ويستغل صراعنا مع أتباع الكاهن؟

أجابه زيد: ابعث له رجلًا حاذقًا يحسن تقدير الأمور، ثم اطلب منه أن يأتيك به من ساعتك هذه، فإن أبى وامتنع فخذ حذرك منه، فإنه عاصٍ لا محالة.

استدعى عدي أحد جنوده، وأمره أن يحمل الرسالة إلى بهرام، وأن يتحرى الأمور بدقة، وأن يراقب كل شيء بحذق ومهارة.

ذهب الرسول بسرعة، بينما انشغل القَيْل عدي بقراءة الرسالة العاجلة، التي جاءته من قصره الآخر، ابتسم ثم رماها إلى زيد الذي قرأها وابتسم هو الآخر، ثم قال: سآتيك به حالمًا يطبق الظلام.

ابتسم عدي ابتسامة خفيفة، ثم قال: أحسنت يا زيد، على ألا تسأله عن شيءٍ أبدًا، اذهب الآن واسترح في إحدى الغرف، وسأبلغك بالأمور لاحقًا.

غاب الرسول ساعة ثم جاء متغير الوجه، واستأذن على القَيْل، فأذن له فدنا منه، وقال: يا مولاي، لقد امتنع عن المجيء، وقال: إن الطريق غير آمنة، ثم أمرني بالانصراف بسرعة.

تغير وجه عدي، ثم قال: وكيف رأيت أتباعه؟

أيها القَيْل: رأيته على عرش كعرش الملوك، يحيط به الجنود، وتطيف بداره الخيل.

وثب عدي من كرسيه، وقال: ويحك ما هذا الكلام؟ عرشٌ وخيل؟

نعم أيها القَيْل! ولقد رأيت الغدر في وجهه.

جلس عدي على كرسيه، ثم أشار للجندي بأن ينصرف، وصاح بزيد، فأقبل بسرعة، وكأنه قد استعد للنداء.

ويحك يا زيد! غدر بنا بهرام، وجمع خيلًا ورجالًا، وقد اتخذ عرشًا وأبهة في داره. قالها عدي وعلامات الذعر باديةٌ على وجهه.

أجابه زيد: لقد حذرنا وضاح منه مرارًا، فلم نسمع قوله.

ضرب عدي كفًّا بكف ثم قال: نعم وضاح هو من يعرفه حق المعرفة، أريده حالًا في هذه الساعة، اذهب الآن واحضره ولا تتأخر مهما كانت الظروف.

أجابه زيد: أمرك سيدي، ولكن إن أذنت لي فسأحضره متخفيًّا فليس من الحكمة أن نكشف كل أوراقنا في ساعة الغضب هذه.

افعل ما بدا لك، المهم أن تأتي به الآن. قالها عدي ثم انصرف نحو قادة جنده.

◈◈◈◈

وضاح وقد تنكر بلباس الخدم، وسوّد وجهه، وغيرّ ملامحه، ثم أقبل مع مجموعة من العبيد والجواري، يسوقهم زيد وبعض الجند، حتى دخلوا القصر، وتفرقوا في غرف القصر وحجراته.

لم يكد وضاح يستقر في إحدى الغرف، حتى قدم إليه عدي بصحبة زيد، ثم قال له باقتضاب:

ماذا لديك يا وضاح؟

ابتسم وضاح، ثم قال: أبشر أيها القَيْل، فقد أحطت بخبرهم، وجئتك منهم بنبأٍ يقين.

اقترب منه عدي، ثم قال: هات فلعمري إن لديك خبرًا.

أجاب وضاح: أما تلاميذ الكاهن، فأظن أن أفضلهم هو الربيع بن سعد على أنه أصغرهم سنًّا، وأقلهم خبرةً، ولكنه شاب عاقل يقدر المصلحة، ويسعى لها حتى لو خالفت مألوف الناس.

أما المفاجأة الكبرى فهي أموال الكاهن وخزائنه!!

تحرك زيد وقفز أمام وضاح، ثم قال بلهفة: قل بسرعة هل عرفت مكانها؟

صمت وضاح قليلًا، ثم قال: نعم لقد عرفت مكانها جيدًا، إنها في مغارة الهول!!

مغارة الهول!! أيُعقل هذا؟ قالها عدي، وهو ينظر إلى زيد.

أجاب وضاح: نعم والله، إنني لعاقل، ولقد أصابني ما أصابكم حين وقفت على جلية الخبر، ولم أصدق أذناي حتى رأت عيناي صناديق النحاس التي سبق لي أن رأيتها عندما دخلت المغارة.

يا له من ماكر! كيف خدعنا بهذه الحيلة العجيبة. قالها زيد وقد وضع يده على فمه.

قال عدي والشرر يتطاير من عينيه: إنه لم يخدعنا فحسب، بل خدع المدينة كلها زمنًا طويلاً، لكن وحق ما أقسمت به العرب، لأرينّه في خزائنه يومًا أسود، يعض فيه أصابع الندم على كل كلمةٍ تفوه بها عن هذه المغارة.

قال وضاح: إنْ أذنَ لي القَيل فلدي رأي أظنه حصيفًا.

هز عدي رأسه مبديًا الموافقة، فقال وضاح: الرأي عندي أن تهادنهم، وتظهر لهم الموافقة، ثم تتفرغ لبهرام، فهو- والله- أشد من الليث، وأمكر من الثعلب، وأعدى من الذئب، وأخشى أن يثب على المدينة حالما تنشغل أنت بقتال أتباع الكاهن.

قال زيد: لقد أشار بالرأي يا مولاي، وسيعينك أتباع الكاهن على قتال بهرام، وتعظم في أعين الناس، فإذا فرغت من شأنه لم يبق للكاهن وأتباعه حجةٌ يؤلبون بها الناس ضدك.

هدأت ثائرة عدي، ثم قال: سيقدم عليَّ الربيع بن سعد هذه الليلة على رأس وفد منهم، وسأعرض عليهم الهدنة، ثم أتفرغ لهذا الثعلب الخائن.

◈◈◈◈

الربيع بن سعد وقد أشرق وجهه، وارتسمت على ملامحه ابتسامة الغبطة والرضا بعد أن عاد للتو من عند القَيّل عدي بن عمرو بوفادةٍ ناجحة، حقق فيها كل يصبو إليه.

لقد قبل عدي الهدنة، ووافق على طرد بهرام وأتباعه من المدينة، وأصدر عفوًا شاملًا عن جميع أتباع الكاهن.

وأهم من ذلك أنه سمح للناس بدفع زكاتهم للكاهن الأكبر، وأعلن أنه سيزور المعبد بعد يومين، ويدفع ما عليه من زكاة.

اجتمع كبار التلاميذ وخواص رجال المعبد مع الكاهن الأكبر يناقشون الأمر، ويتداولون الرأي، فقال الكاهن: إني لأرجو أن يكون قد رجع إلى صوابه، وثاب إلى رشده، حينما رأى شدة تمسككم بدينكم وقوتكم في الذب عن حياضه.

تكلم عاصم بن أدهم، وقال: لن نخرج عما تقول يا سيدي، ولكنني لا آمن غدر هذا الرجل، وأخشى أن يقصد بذلك خداعنا حتى نأمن جانبه، ثم يأخذنا على حين غرة، فإن قبل بأن نقيم معسكرنا حول المعبد فلا بأس، أما أن يسعى إلى تفريق جمعنا فهذا هو الغدر بعينه.

رد عليه الربيع بن سعد: لقد سألته عن ذلك بالتحديد، فقبل بذلك على أن يكون المعسكر حول المعبد فقط، ولا يجاوزه لطرق المدينة وأسواقها، وعلى أن نعينه بالرجال على قتال بهرام إن احتاج إلى ذلك.

رد عليه عاصم بهدوء: ما دام أن الأمر كذلك فلا مانع لدي من الصلح والمهادنة مع القَيِّل، أما إعانته في قتال بهرام، فما أراه إلا واجبًا، يحتمه الدين ويمليه العقل.

قال الكاهن -وكأنه يريد حسم النقاش- ما أراه هذه المرة إلا صادقًا، وإني لأرجو أن تكون دعوات عمه رياح قد أصلحت قلبه، فعمه -كما تعلمون- له قدم صدق في نصرة ديننا وتأييده.

وثب حجر بن أوس -وكان صامتًا طوال الجلسة، يتابع المتحدثين بعينيه- وقال بحرقة: يا سيدي ليس هذا برأي، وما رضي القَيْل بالهدنة رجوعًا إلى الحق، ولا عن توبةٍ نصوح، وإنما أراد أن يفرغ من بهرام، ثم يهجم علينا بحده وحديده، وقد انصرف الناس عنا، وعظم هو في أعينهم.

وضع الكاهن يده على ذقنه، وقال: فما الرأي إذًا يا حجر؟

الرأي عندي أن نذكي نار الحرب بينهما، ولا ننحاز لطرف دون طرف، بل نقف على الحياد، حتى ينجلي غبار المعركة عن مهزومٍ قد كفينا شره، وعن منتصرٍ قد أنهكته الحرب.

وثب عليه الكاهن، وأمسكه بلحيته الطويلة، وقال له بغضب:

ومنذ متى نخلط بين الدين وبين مطالب الحكم والزعامة يا حجر بن أوس؟ إننا طلاب حق، ندور معه حيثما دار. أما أولئك الزعماء فحقهم المطلق هو مصلحتهم، التي بدأوا منها، وإليها يعودون.

استأذن الربيع في الكلام، ثم قال: إن الحزم في اتخاذ المواقف خيرٌ من التردد والحياد في حرب نحن من أول من أضرم نارها ورفع راياتها، ماذا عسى أن يقول عنا أهل مأرب، وقد تركْنا عدي بن عمرو يفوز بشرف قتال بهرام وحده؟

قام حجر بن أوس غاضبًا، وهو يقول: لقد قلت أشرت عليكم بالرأي، ومحضت لكم النصيحة، وستعلمون عواقب الأمور غدًا.

التفت عاصم نحو الكاهن الأكبر، وقال له: لا تؤاخذه يا سيدي، فبيت أهله قريب من دار بهرام، و هو يخشى أن يصيبهم ضررٌ من هذه الحرب.

أعرض الكاهن عنه، ثم قال: أرسلوا لعدي بن عمرو بالموافقة، وادعوه لزيارة المعبد مساء الغد.

◈◈◈◈

بهرام وقد اجتمع رجاله حتى غصت بهم الدار، وملؤوا الساحات القريبة، لم تكد الشمس تغيب حتى بدأ الجند بتعزيز أسوار البيت، وحفر خندقٍ عميق يحيط بفنائه.

استمر العمل طوال الليل، ولم ينقطع لحظةً واحدة، إلا عند قدوم فلول أتباعه من نجران، وعلى رأسهم سيف بن مرة، اعتنقه بهرام وحياه على صبره وثباته، ثم أدخله إلى مقر عرشه، وأمر الجند بإكمال العمل بجدٍّ واجتهاد.

جلس بهرام على العرش، وأذن لسيف وعددٍ قليل من خواص أتباعه بالجلوس، ثم نظر إلى سيف، وقال له: أخبرني ما الذي أصابكم؟

تنهد سيف وزفر زفرةً حرّى، ثم قال: لقد غدر بنا ذلك الوغد الحقير ذو نواس ، حالما فرغ من أعدائه النصارى بعد أن فتك بهم فتكًا ما سمعت العرب بمثله قط، فقد حفر لهم الأخاديد

وأضرم فيها النار ثم أمر زبانيته فألقوا بهم في سعيرها وهم أحياء، فلما فرغ منهم هجم علينا وقد ذُعِر أصحابنا من وحشيته، ولم يستطيعوا المقاومة، بل هربوا في كل وجه، وتفرقوا في كل واد.

تغير وجه بهرام، ثم قال: وما فعل أخوك جبار؟

ذرفت عينا سيف، ثم قال: لقد أحرقه اللعين بالنار، عندما رفضت الاستسلام، وآثرت المقاومة بمن ثبت معي من شجعان أصحابي.

أجابه بهرام: أقدم لك أحر التعازي في أخيك البطل، وسنأخذ بثأره قريبًا، أما أنت فقد عينتك قائدًا لجندي، فاذهب الآن للراحة، فأمامنا عملٌ شاق وطويل.

رد عليه سيف: إن أذنت لي في البقاء، فليس ثمة وقتٌ أضيعه في الراحة، وقد أحاطت بنا الأعداء من كل جانب.

ربت بهرام على كتفه، ثم قال: أحسنت يا سيف، لقد نقلت لي عيوني: أن عدي يسعى للتحالف مع أتباع الكاهن، لكي يتفرغ لقتالنا بعد أن رأى قوتنا وكثرة سلاحنا، ولا بد أن نمنع هذا التحالف بأي وسيلة، وقد أعددت للأمر عدته، فاذهب الآن ودرب الجنود على مهارات المبارزة بالسيف، فأنتم أفضل من يتقنها يا معشر العرب.

قال سيف وهو يستعد للنهوض: إذا أتقن الجند مهارة العرب في المبارزة بالسيف وخبرة الفرس في رمي النشاب فلن يهزمهم أحد.

3

لم تكد الشمس تغرب حتى وصل القَيْل عدي إلى المعبد في أبهة عظيمة، وقد أحاط به الجند، وحف به القواد والوجهاء.

استقبله الكاهن الأكبر عند باب المعبد، واحتفى بقدومه احتفاءً زائدًا، ثم سأله عن صحة عمه، فقال عدي: لقد ساءت حاله منذ أن أصابه الفالج[1] قبل عدة أشهر، وامتنع عن الأكل مؤخرًا، سوى ما نضع في فمه من حساءٍ ونحوه، وقد قدمت بزكاة ماله التي أوصاني أن أخرجها للمعبد قبل أن يشتد به المرض.

تغير وجه الكاهن وتأثر تأثرًا شديدًا، ثم قال: إني لأرجو له الخير على ما قدم لدين جدتنا العظيمة من نصرة وتأييد، فقد آسانا بنفسه وماله، وأمدنا برأيه ورجاله، ونحن نأمل منك أن تحذو حذوه وتسير بسنته.

أجابه عدي بأدب: أرجو أن أكون عند حسن ظنكم أيها الكاهن الأعظم، ولقد جلبت لكم هدية نادرة، يسعدني أن تقبلوها.

أشار القَيْل بيده إلى أتباعه فقدم زيد يحمل صندوقًا فاخرًا به عدة نقوشٌ أثرية، أمسك عدي بأحدها، ثم قال للكاهن: لقد عثر عليها البناؤون الذين بنوا لي القصر بجوار السد، وحين رأيتها علمت أنها لا تقدر بثمن بالنسبة لكم، فآثرت أن أهديها لكم بنفسي.

---

(1) هو الشلل النصفي.

أخذها الكاهن من يد عدي، وقربها من عينه، وجعل يتأملها بدقة، ثم قال: نعم إنها نقوش سبئية، قد كتبت فيها بعض التعاليم، حفظك اللّٰه كما حفظتها لنا.

أمر الكاهنُ عاصمَ بن أدهم أن يأخذ النقوش من يد زيد ويحتفظ بها، ثم أمسك بيد القَيْل ومضى به نحو الباحة الصغرى.

نظر عاصم بن أدهم إلى زيد نظرة المغضب، ثم تلّ النقوش من يده تلًّا عنيفًا، وهو يقول: ما يفعل الخونة في المعبد المقدس؟

غضب زيد وقال له: أتريد أن تفرق الجماعة أيها الأحمق المطاع؟

اقترب منه عاصم، وكأنه يريد أن يضربه فاستعد له زيد فحال الرجال بينهما، وأبعدوا كل واحدٍ عن الآخر.

◇◇◇◇

جلس عدي على الكرسي الذي أعد له مسبقًا في الباحة الصغرى بينما جلس الكاهن على الدكة المقابلة، فقال عدي على هيئة المعتذر: لقد سمحت لبهرام بدخول البلد رغبةً في تنشيط التجارة، وحرصًا على توثيق العلاقات مع الفرس، فهم- كما تعلم- يملكون نصف الدنيا، وليس من الحكمة أن نستجلب عداوتهم، أو نقطع صِلاتنا بهم، ولكن الأيام كشفت لنا غدره وسوء طويته فعزمنا على استئصال شأفته وقطع دابره.

أجابه الكاهن وكأنه يريد أن يلقنه درسًا: أيها القَيْل، لقد رأيتك تسارع في مودته وقربه، فأيقنت أنه سينقلب عليك يومًا ما، فأعددت أتباعي لذلك اليوم، وأنا أعلم أنك لن ترضى عن هذه العدة، ولكنني اخترت أن أغضبك بالحق على أن أرضيك بالباطل، وها أنت اليوم قد رجعت إلى الحق فوجدتنا أمامك.

أجابه عدي وهو يتظاهر بالرضا: بارك الله لنا في علمك وفطنتك، وقد رأيت أن أُجهِز عليه قبل أن يستفحل شره ويكثر أتباعه.

لم يكد القَيْل يكمل كلامه حتى صاح الصائح:

قُتِل زيد.. قُتِل زيد.. لقد قتله عاصم.

اضطرب المجلس، وهاج الناس، وقام عدي مغضبًا، فأحاط به حرسه، ومضى نحو مصدر الصوت، فوجد الجنود قد تحلقوا حول زيد وهو يجود بنفسه.

أمسكه بعضديه، ونظر إلى جرحه على ضوء المشاعل، فإذا الطعنة قد اخترقت صفاق قلبه.

فار الدم في عروقه، فسل سيفه وهو يقول: أين عاصم؟ دلوني على عاصم؟

تراجع الكاهن للوراء وحف به تلاميذه وقد أمسك كل واحد منهم بمقبض سيفه ثم قال لعدي: اغمد سيفك يا بني، ولا تأخذ

الناس بالتهمة، فإن كان الذي قتله عاصم دفعناه لك أو أرضينا أهله بالدية.

هز عدي سيفه فتطاير الناس عنه يمنة ويسرة، ثم قال بغيظٍ وحنق: وحق ما أقسمت به العرب لا أبرح مكاني هذا حتى أعلق رأسه على طرف رمحي.

تدخل الربيع بن سعد فقال: أيها القَيْل لقد سألت عاصمًا فأقسم لي بأغلظ الأيمان أنه لم يقتل زيدًا، فاغمد سيفك، وهدئ من نار غضبك، ودعنا نحقق في الأمر.

التفت عدي نحو جنوده، وقال لهم: الويل لكم! من الذي قتل زيدًا؟

انبرى له أحد صغار القادة، فقال بنبرة الواثق: نعم أيها القَيْل لقد هدده، وحاول أن يعتدي عليه أمام الجميع فمنعناه من ذلك، ثم غافلنا وجاءه من الخلف، فطعنه طعنةً غادرة.

هز الجنود رؤوسهم موافقةً للقائد، وتكلم بعض الحاشية، فأكدوا أنهم سمعوا عاصمًا يهدد زيدًا، ويغلظ له في الكلام.

التفت عدي نحو الكاهن، وقال له بغضب: ماذا تنتظر؟ هل تنتظر أن يأتي ويسلم نفسه؟ اخرجه لي، وإلا نشبت الحرب بيني وبينك.

رد عليه الكاهن: يا عدي لا تهددني بالحرب وأنت في معسكري وأمام أتباعي، فإن أردت الهدنة والصلح فاغمد سيفك وأمسك لسانك، لكي ننظر في الأمر سويًا، فإن كان لك حق أعطيتك إياه، ولو كان من نفسي، وإن أردت الحرب وأصررت عليها فشأنك بها.

كاد القَيْل أن يهجم على الكاهن لولا ما رأى من قلة جنوده وضعف استعداده، فآثر الانسحاب وقد صمم على أن يكر عليهم بجيشه وجنده. مضى نحو قصره، والغيظ يأكل قلبه، بينما تبعه الجنود يحملون جثة زيد حتى دخلوا بها القصر.

◈◈◈◈

عدي وهو يلبس لأمة الحرب[1]، ويستحث قادته على سرعة الإعداد لهذه الحملة الخاطفة تحت جنح الظلام، الوقت ضيقٌ جدًّا، ولكن الخطة محكمةٌ تمامًا، وكأنها قد أعدت مسبقًا.

انتخب القَيْل سبعين فارسًا من خيرة جنده، وأمرهم بركوب الخيل وانتظاره خارج القصر، بينما أمر قادة المشاة بالتوجه ناحية المعبد، وحذرهم من الاشتباك المباشر مع أتباع الكاهن، وأمرهم بالاقتصار على المناوشات الخفيفة، مع إحداث أكبر قدر ممكن من الجلبة والصياح، حتى تشرق الشمس أو يأتيهم أمره.

---

(1) عدتها، من درع، وخوذة، ونحوهما.

لم ينتظر الفرسان طويلاً، حتى قدم عليهم عدي، ومعه رجل ملثمٌ لا يعرفه أحد، وفي لحظةٍ خاطفة انطلق بفرسانه تحت جنح الظلام والتف بهم حول المعبد من بعيد.

اتجه ناحية الشرق، وأخذ يساير الجبال، ثم انعطف بشدة نحو الجنوب الغربي، وسار بهم في طرقٍ وعرة ومسالك ضيقة، فلما وصل السفح توقف عن المسير، وأمرهم بالنزول من ظهور الخيل، ثم ترك عشرين رجلًا يحرسونها.

سبق الرجل الملثم القوم، وأخذ في صعود الجبل بخفةٍ ومهارة، فتبعه عدي ومعه خمسون رجلًا، يحملون الفؤوس والرماح.

سقط أحد الرجال من صخرةٍ عالية، فمضى القوم ولم يلتفتوا إليه، فالأوامر صارمةٌ ومحددة: لا تتوقفوا لإنقاذ أي أحد كائنًا من كان.

مرت نصف ساعة تقريبًا دون أن يصل الرجال إلى القمة، فلما اقتربوا منها صرخ إنسانٌ من جانب الجبل صرخةً مرعبة، قطعت هدوء الليل، وأرعبت قلوب الرجال.

لم يمهله القَيْل أن يصرخ مرةً أخرى، بل رماه بسهم صدع به قلبه فمات من ساعته، وأكمل الرجال سيرهم حتى وقفوا بباب مغارةٍ كبيرة.

انتخب عدي خمسة منهم، ودخل بهم فم المغارة، ثم قدح بزنده وأشعل النار في مشعل كان معه، وأعطاه للرجل الملثم، ساروا جميعًا خلف الرجل، وتوغلوا وسط المغارة المخيفة، التي تتطاير منها الخفافيش، وتخرج منها رائحةٌ نتنة.

وصل إلى آخر المغارة، ثم طلب من الرجال أن يحركوا الصخور الكبيرة التي تقع في جنبات المغارة.

اجتمع الرجال على الصخور وأزاحوها بصعوبةٍ بالغة، ثم ابتعدوا قليلًا، فوقفوا في منتصف المغارة، بينما أقبل الرجل الملثم وأخذ يجمع الصناديق النحاسية التي تلمع أطرافها بين الشقوق.

فتح عدي واحدًا منها، ثم ابتسم ونادى على الرجال: أدخلوا عشرةً معكم، واحملوا هذه الصناديق، ثم أنزلوها إلى أسفل الجبل، وإياكم أن تفتحوها.

جمع القَيْل ورجاله قرابة عشرين صندوقًا، ثم أمر بالصخور فأرجعت كما كانت، وأطفأ المشعل وخرج من المغارة.

وصل إلى الباب فاستراح قليلًا لكي يلتقط أنفاسه التي كتمها جو المغارة الخانق، ثم أخذ ينظر إلى المدينة التي تلوح نيرانها من بعيد.

وفجأةً ودون سابق إنذار اشتعلت نار في منتصف الجبل من جهة المدينة، ثم تلتها نار قريبةٌ منها.

عرف عدي أن الخطة قد انكشفت، وأن العدو قد علم بالأمر فنزل بأقصى سرعته، ووصل إلى رجاله أسفل الجبل فوجدهم قد ركبوا خيولهم ووضعوا الصناديق على ظهورها وأقاموا ينتظرون أمره.

عاد بهم القَيْل مع طريق آخر، ودخل المدينة من غربها، حيث جهة السد، وقد علت أصوات الاشتباكات مع أتباع الكاهن.

لم يكد يستقر في قلعته حتى أرسل أمره لقادة المشاة بالتراجع المنظم وفك الاشتباك.

◈◈◈◈

كان العقاب مؤلمًا والنكاية مريرة، جعلت الكاهن يشك حتى في أقرب الناس إليه، اجتمع مع عاصم بن أدهم وحجر بن أوس، ثم قال لهما والغيظ يكاد يقتله:

اسمعاني جيدًا، لا يعلم بسر هذه المغارة إلا نحن الثلاثة فقط، حتى الربيع بن سعد لم أطلعه على هذا السر أبدًا، فمن أفشاه منكما؟

أقسما له جميعًا بالأيمان المغلظة أنهما لم يخبرا به أحدًا فأمسك بتلابيب عاصم، وقال له: فأين الحراسة التي تزعم أنك وضعتها على المغارة.

أجابه عاصم: لقد قُتل الرجل الذي كلفته بحراسة المغارة بسهمٍ غادر اخترق أضلاعه، أما الرجال الذين كلفتهم بحراسة

الجبل فقد تركوا مواقعهم، وانضموا لنا عندما هجم جنود المشاة علينا، فلم ير أحدٌ منهم النيران المشتعلة.

وضع الكاهن رأسه بين كفيه، ثم قال بأسى:

ويحكم! لقد جمعت تلك الأموال منذ عشرين سنة لكي تغنينا عن الحاجة إلى زعماء المدينة ووجهائها.

ويحكم! ألم أقل لكم إن عزة المعبد مرهونة بغنى رجاله عن أموالهم وهداياهم، فإذا مالت أنفسكم إليهم وقبضتم شيئًا من دنانيرهم وقعتم تحت سلطانهم، وجرى عليكم ما يجري على الجنود، وصاروا هم رجال المعبد على الحقيقة، فإذا أرادوا شيئًا أو اعتنقوا مذهبًا يوافق مصلحتهم، فإن قصارى جهدكم أن تبحثوا لهم عن تأويلٍ سائغ تقبله التعاليم والشرائع، ثم ما يلبث الناس أن يكتشفوا حقيقة الأمر، فيهون المعبد المقدس في أعينهم، ويزول أثره في أنفسهم.

قام الكاهن بسرعة ثم قال بحزم: لكن.. لا. لست أنا من يستسلم عند أول صدمة، هل تشكّان في أحد؟

أجابه عاصم بن أدهم: سيدي، لقد تذكرت شيئًا أظن أن له علاقة بما حدث.

هز الكاهن رأسه، وكأنه يستحثه على إكمال فكرته.

وضاح.. أنا أشك في وضاح، لقد كان نائمًا في الحجرة عندما جلبت صندوق الذهب من المغارة، ولم يخبرني حجر بن أوس بذلك.

قال حجر: وضاح؟ مستحيل.. لقد كان يهذي ليلتها من الحمى، ثم هو ثقيل السمع، وقد كشفنا عنه الغطاء فوجدناه نائمًا.

رد عليه عاصم: إذا فلمَ خطفه الفرسان الملثمون، وتركوا من عداه؟

تدخل الكاهن قائلًا: فبمن تشك يا عاصم؟

قال عاصم بثقة: ليس شكًّا وإنما هو يقين، فقد كان جاسوسًا للقِيل عدي أو لبهرام.

أجاب الكاهن: نعم هذا ما ساورني حين اختطفه الرجال، وما ظننت أن تكونا بهذه الغفلة، فتتحدثان بأعظم أسرارنا أمامه. وعلى كل حال لن ندافع بعد اليوم، ولم يعد أمامنا سوى الهجوم، فأعدا الجيش وجهزا الرجال.

4

لم تمض سبعة أيام حتى اجتمع للكاهن جمع غفير لا يحصيه العدد على الرغم من كثرة العراقيل التي وضعها جنود القَيْل أمام الكاهن وأتباعه.

لاحت نذر الحرب في سماء المدينة، وأصبح شبحها غولاً يوشك أن ينقض على مأرب في أي لحظة.

أحس عدي بالخطر الداهم فجمع جميع فرسانه وجنوده، حتى أولئك الذين جعلهم حرسًا على الطرق، أو عيونًا على أنقاب السد، ومع ذلك فقد كان عددهم ضئيلًا، مقارنة بأتباع الكاهن الذين انضم إليهم حتى الرعاة وبعض البوادي.

آثر عدي أن يلجأ إلى أسلوب الدفاع، لكي يطيل أمد الحرب، فينفض جمع الكاهن ويتفرق أتباعه، ولم يشأ أن يهاجمهم في أرض مكشوفة خوفًا من أن يحيط به جمعهم الهائل.

حان المسير ودقت الطبول، فخرج الكاهن وقد وضع على رأسه عصابةً سوداء يحيط به جمع من كبار تلاميذه عليهم الدروع السابغة.

التفت إلى الربيع، ثم قال له: أقم أنت بالجند هنا لحراسة المعبد وحماية ظهورنا، وسأخرج أنا وعاصم بن أدهم وحجر بن أوس.

امتثل الربيع للأمر، وصاح بجنده يطلب منهم الثبات في المعسكر، بينما استعد الجميع للهجوم على قصر القَيْل وقلعة جنوده.

تقدم الكاهن الأكبر، فخطب فيهم خطبة قصيرة، حثهم فيها على الصبر في الحرب وعلى طاعة القادة، ثم أشار بيده نحو دار بهرام، وقال: سيروا بنا إلى دار ذلك المجوسي اللعين.

سرت ضجة بين أتباع الكاهن وكأنهم لم يتوقعوا ذلك، فذهب حجر ابن أوس إلى الكاهن، وقال له: يا سيدي لعلك تقصد قصر عدي؟ غضب الكاهن غضبًا شديدًا، ثم قال: لا تراجعني يا حجر، فأنا أعني ما أقول.

التفت إلى الجيش ورفع صوته: سيروا بنا إلى بهرام، فهو عدو ديننا، ودعوا عنكم عدي بن عمرو، فهو طالب دنيا إن تركناها له ترك ديننا لنا.

أرسل عاصم رسله إلى قادة الجيش، وأمرهم أن يلعنوا بهرام، وأن يستنهضوا همة الأتباع لقتاله، فسرت عصبية الدين في نفوسهم، وساروا وهم يتحرقون شوقًا لقتال بهرام.

وصل الكاهن وأتباعه إلى دار بهرام، وقد ارتفعت أسواره، فأصبح كأنه قلعةٌ شامخة، تطاول عِنان السماء، والأدهى من ذلك أنه قد أتم بناء الخندق حول فناء البيت.

ذُهِل عاصم من قوة التحصينات التي استطاع أن يبنيها بهرام خلال عشرة أيامٍ فقط، منذ أن هجموا عليه أول مرة.

لم ينتظر الأتباع المتحمسون أن يأذن لهم الكاهن بالهجوم، بل اندفعوا مثل السيل الجارف يحاولون ردم الخندق واختراق التحصينات، فأمطرهم جنود بهرام بوابل من أسهم النشاب الطويلة التي حصدتهم حصدًا، فتساقطوا في الخندق كما

يتساقط الفراش في النار، ثم هجم عليهم الجنود بقيادة سيف بن مرة هجومًا عنيفًا، فأزاحوهم عن أماكنهم وقتلوا عددًا منهم.

كانت نتيجة الهجوم الأول مخيبةً للآمال، فأمر عاصم جيشه بالتراجع قليلًا، حتى لا تصيبهم الأسهم، ثم وبخ المهاجمين على اندفاعهم دون انتظار إذنه أو سماع خطته.

ثم قال للجند: إن هؤلاء الفرس ليس لهم سلاحٌ سوى النشاب، فاجمعوا الجلود وما لديكم من دروع وضعوها بينكم وبينهم ثم سيروا صفًّا واحد إلى الخندق.

انتظر عاصم حتى اكتملت الاستعدادات، ثم أمر بالهجوم العام بعد أن زالت الشمس. هجم الأتباع بجدٍّ وحماس، وقد صمموا على الأخذ بثأر من قتل أصحابهم.

توالت المفاجآت على أتباع الكاهن، فكان الرمي يأتيهم تارةً من اليسار، حيث بيوت الجيران التي هجرها أصحابها، عندما لاحت نذر الحرب، وتارةً من التلة المرتفعة التي تقع ذات اليمين.

ومع ذلك فقد استطاعت إحدى الفرق أن تردم جانبًا من الخندق، ودخلت إلى الفناء، فاشتبك معها سيف بن مرة في معركةٍ ضارية، استمرت حتى قاربت الشمس على المغيب، وأسفرت عن اقتحام جزءٍ من الخندق بعد خسائر فادحة.

حل الظلام فانفض الاشتباك، وأمر عاصم بحماية الردم بالأسهم لكيلا يتمكن المدافعون من بنائه مرةً أخرى.

أرسل الكاهن إلى أتباعه في المدينة، وأمرهم بأن يجمعوا كل ما يعينهم على ردم الخندق، بينما تولت النساء دفن الرجال الذين قتلوا في المعركة.

◈◈◈◈

أشرقت الشمس وقد احتجب ضوؤها خلف سحابةٍ كثيفة من الغبار القاتم الذي خيم على الأجواء لكثرة الجموع التي توافدت على الكاهن وأتباعه، وانضمت لجمعهم الكثيف، وأخذت في تضييق الخناق على بهرام وأتباعه، وحاصرتهم حصارًا شديدًا.

نصب الكاهن عريشه في أخريات الجيش، وهو على يقينٍ كامل بتحقق النصر واكتساح الأعداء قبل أن يحل المساء.

قدّم حجر بن أوس على قيادة الجيش، وأبقى عاصم بن أدهم عنده من أجل المشورة وتنظيم الصفوف.

اصطف أتباع الكاهن، واستعدوا للهجوم بقيادة حجر بن أوس، بينما خرج جند بهرام من الدار، وصفوا خلف الخندق يقودهم سيف بن مرة، ويوجههم بهرام من أعلى الأسوار.

وفي لحظةٍ فاصلة برز حجر بن أوس أمام جيشه، وتقدم نحو الردم وحده وسط دهشة الجميع.

حبس الجند أنفاسهم ينظرون إلى هذا الشجاع المتهور، الذي برز من بين الصفوف، وانطلق بثقة نحو حراب الأعداء المشرعة وسهامهم المشدودة.

عبر الردم ودلف نحو جيش بهرام بهدوء، ثم استدار نحو الخلف فجأة، والتفت نحو أتباع الكاهن، وقال لهم:

أشهدوا أنني قد كفرت بهذا الدين الملفق، الذي جاء به هذا الأفّاك الأثيم كنانة بن عوف!!!

واعلموا أنني قد صحبت هذا الكاهن عشر سنين، فألفيته منافقًا كذابًا، يأمركم بالصدقة، ويحثكم عليها، ثم يكنز أموالكم في خزائنه!!

ويلكم تفرقوا، علامَ تقتلون أنفسكم مع هؤلاء الكذابين؟

اضطرب الناس اضطرابًا عظيمًا، وأسقط في أيديهم حتى اختلت صفوفهم، وأقبل بعضهم يسأل بعضًا عن حقيقة ما يجري.

استمر حجر بن أوس في إعلان كفره وردته بدين بلقيس، الذي أحياه كنانة بن عوف، وأخذ يوبخهم ويرميهم بكلماتٍ أمضى من السيوف وأقوى من السهام.

كان عاصم بن أدهم جالسًا مع الكاهن الأعظم في عريشه، الذي نصب له في ساقة الجيش، فلما رأى اضطراب الناس أخذ بيد

الكاهن، وانطلق به نحو مقدمة الجيش، فأقبلا يشقان الصفوف، بينما أكمل حجر بن أوس كلامه: أتريدون أن تعلموا صحة كلامي؟ اذهبوا إلى مغارة الهول، ثم انظروا كيف سرق هذا الكاهن أموالكم وخبأها فيها، ثم أرعبكم بقصة المردة والشياطين، لكي يصرف أنظاركم عن كنوزه وأمواله.

وقع هذا الكلام في أذن عاصم بن أدهم، فكاد أن يتميز من الغيظ، وقال للكاهن بصوت مسموع: اللعين الخائن! هو من وشى بمغارة الهول.

أمسك الكاهن بيده، وكأنه يطلب منه السكوت، لئلا يسمعه الناس، فصمت وقد بلغ به الغضب كل مبلغ، ولكن الكلمة سرت بين الأتباع كما تسري النار في الهشيم، فزادتهم وهنًا واضطرابًا، وألقى بعض الجند أسلحتهم.

تقدم الكاهن وقد أربكته المفاجأة المدوية، واقترب من حجر بن أوس وقال له: ما الذي أصاب عقلك يا بني؟ ارجع لعلنا أن نرقيك، فيذهب ما بك من مس الشياطين!

ثم التفت إلى أتباعه، وقال لهم: لا يهمنّكم أمره، فقد أصابه مس من الشيطان، فهو يهرف بما لا يعرف.

لم يرد عليه حجر بن أوس، بل مضى نحو سيف بن مرة الذي رفعه إلى بهرام في أعلى السور فاعتنقه، وسلم عليه، ثم أشرفا على

أتباع الكاهن، وخاطبهم حجر بن أوس قائلًا: لا لم يصبني مسٌّ من الشيطان، ولكنني قد اطّلعت على كذبكم ونفاقكم، فقررت أن أترك دينكم الملفق.

صرخ بهرام بأتباع الكاهن صرخة قوية، ثم قال لهم: دعوا هذا الدين الذي فرق شملكم، وأخذ أموالكم، وهلموا لتكونوا من رعايا الملك الأعظم قباذ بن فيروز، الذي دانت له ممالك الأرض كلها، فإن أبيتم فاعلموا أنه لا طاقة لكم بحرب ملك الفرس وجيوشه العظيمة.

أراد الكاهن أن يرد عليه كلمته فلم يسمعه أحد من كثرة الجلبة والأصوات المتداخلة.

نظر حجر إلى عاصم بن أدهم، وقال له: يا عاصم أسألك بدينك الذي تؤمن به، ألم نجمع أموال الناس، ونضعها في مغارة الهول؟

لم يتمالك عاصم نفسه من شدة المفاجأة، فقال بغضب وحِدة: أكمل أيها الخائن الغادر.. وسرقتها أنت وصاحبك المجوسي بهرام. ثم التفت إلى الناس، وقال لهم: يا أهل مأرب لقد سرق هذا المجوسي أموال المعبد من مغارة الهول، بعد أن خاننا هذا الغادر اللئيم، فدافعوا عن أموالكم، وخلصوها من أيديهم.

اضطرب أمر الناس، واختل نظامهم، وتمرد بعض القادة، واتجهوا إلى عاصم، يسألونه عن قصة هذه الأموال، التي يزعم أن

بهرام قد سرقها من المعبد. أغلظ بعضهم له القول، وتطاولوا على الكاهن، واتهموه بالكذب والتدليس. فأحاط به خاصة تلاميذه، وحملوه هو وعاصم، حتى أخرجوه من بين الناس، وقد كاد أن يختنق من الزحام.

عاد الكاهن إلى المعبد كئيبًا حزينًا، يكاد يموت من الغم، وهو يرى صرحه الذي قضى عمره في تثبيت أركانه ينهار أمام عينيه في لحظة ملحمية، لا يتوقعها أكثر الناس تشاؤمًا.

تفرق الناس في الأزقة وبين البيوت، وقد التبس عليهم الأمر، وعم فيهم الذعر، وانطلق بعضهم يبايع بهرام على السمع والطاعة!

اجتاحت المدينة كلها موجة عارمة من الرعب والهلع، وانتاب الناس شك عميق في كل شيء، بينما انطلق جمع من المغامرين يبحثون عن مغارة الهول!!

◈◈◈◈

في هذا الجو القاتم جمع عدي كبار مستشاريه وقادة جنده لكي يتداول معهم الرأي في خضم هذه الأحداث المتسارعة التي لم يعد يفهمها أحد.

جلس الرجل الملثم في زاوية المجلس صامتًا لا يتكلم، بينما أخذت العيون ترقبه بين الفينة والأخرى، وقد انزوى منفردًا لا تبدو منه إلا عيناه اللتان تبرقان من وراء مغفر الحديد الذي يغطي وجهه.

ابتدأ القَيْل الجلسة، فقال باستغراب: لقد كنت متأكدًا من وجود أحد جواسيس بهرام في قلب المعبد، ولكني لم أكن أتوقع أن يكون هو حجر بن أوس. لقد كان باردًا ثقيل الظل لا يتكلم إلا نادرًا، وكنت احتقره، واستغرب من الكاهن كيف رفع منزلته من بين جميع التلاميذ.

صحيح يا مولاي لقد استطاع أن يخدعنا جميعًا حتى الكاهن نفسه، ولكنَّ حفظه كان عجيبا، فهو يحفظ النقوش كلها عن ظهر قلب. قالها أحد المستشارين.

هز عدي رأسه ثم قال: أشيروا عليَّ أيها الملأ فيما يجب علينا فعله الآن قبل أن ينفرط عقد الأمور في مأرب.

أستأذن أحد القادة وقال: أرى أن الفرصة سانحة للاستيلاء على المعبد، والخلاص من الكاهن وأتباعه، ثم نتفرغ لبهرام ورجاله.

رد عليه القَيْل: إن الكاهن قد حكم على نفسه بالموت، عندما سقط من أعين الناس في أول معركة يخوضها مع عدوه، لقد طعنه بهرام طعنةً نجلاء، لن يشفى منها أبدًا، حين كشف كذبه وتناقضه أمام الملأ، فإن هاجمناه اليوم فربما تعصب له تلاميذه، وقامت معهم بعض القبائل أنفةً وحمية لأبنائها، فنكون قد نفخنا الروح في مشروعه مرةً أخرى، والحكمة تقتضي أن نعلن الحرب على بهرام هذه الليلة، قبل أن ينضم له أتباع الكاهن أيضًا.

اتفق جميع الحاضرين مع رأي القَيْل، وأيدوه جميعًا.

قام الرجل الملثم، وقال بصوت غليظ: أيها القَيْل، إن الناس قد فرغت أفئدتهم من شعارات الدين، التي كان يرفعها الكاهن وأتباعه، ولا بد لهم من شعار جديد، يملأ هذا الفراغ، وأقترح أن يكون:

مأرب لأهلها.. وجيش الفرس لن يحتلها

رفع القَيْل يده وهزها، ثم قال: أحسنت أيها الفارس الملثم، هذا ما نحتاجه الليلة، فاصدحوا بهذا الشعار في الطرقات، وأعلنوه بين الجند، وأخبروا الناس أن القَيْل عدي قد أعلن الحرب على بهرام، وأتباعه الذين يريدون احتلال مأرب، وإخراج أهلها منها.

قام عدي ورفع صوته قائلًا: مأرب لأهلها. وجيش الفرس لن يحتلها.

لم يكد هذا الاجتماع ينفض حتى سُمع دوي هذا الشعار في جميع طرقات مأرب، وكأن الناس كانوا ينتظرونه بفارغ الصبر.

5

دخل عدي مخدعه بعد مضي نصف الليل، ثم نام نومًا مزعجًا بعد يوم طويل مليءٍ بالأحداث المتلاحقة.

لم يكد يغفو قليلًا حتى دخل عليه حاجبه، يحمل خبرًا

مزعجًا، مفاده أن بهرام وأتباعه قد خرجوا من قلعتهم، ثم انحدروا مع أسفل الوادي على تعبئة كاملة وصفوف متراصة.

وثب عدي من مرقده وثبة النمر الغاضب، ثم صاح بالجند، فاجتمعوا جميعًا في فناء القصر، فأخبرهم بالخبر، وأمرهم بالاستعداد على عجل لتعقب بهرام وجنده. لم تكن سوى لحظاتٍ يسيرة حتى اكتملت الصفوف.

ركب القَيْل في الخيالة، وسلك بهم ضفاف الوادي، وأمر المشاة أن يسيروا في بطن الوادي، بينما أخذت أخبار تحرك العدو تتوارد عليه.

أما بهرام فقد سار بجنده سيرًا حثيثًا حتى جاوز المدينة، ثم نزل بين المزارع الكثيفة أسفل الوادي، وأمر بنصب معسكره بين الأشجار المتراصة، ثم فرق رماته بين أشجار النخيل والرمان وعلى جنبات الطريق التي تغطيها الحشائش العالية.

تريث عدي قليلًا حتى برز وجه الصبح، ثم أمر المشاة بأن يحولوا بين جند بهرام وبين أطراف المدينة، وألا يشتبكوا معهم إلا في أحلك الظروف، ثم أرسل فرقًا عدة، لقطع طريق الصحراء عن بهرام وأتباعه. أما الخيالة فقد كانوا جبهة واحدة تحت قيادته، ينتقل بهم إلى أسفل الوادي تارةً، ويعلو بهم تارةً، حتى يصل إلى أطراف المدينة.

استمرت المناوشات المتقطعة عدة أيام دون أن تحدث معركةٌ كبرى، فقد حرص عدي على سياسة الحصار وقطع الإمدادات.

اجتمع بهرام مع قادة جنده، فاستشارهم في الأمر، فقال له سيف: إن قوتنا في رمينا، وقوتهم في خيلهم، وقد استطاعوا تحييد قوتنا بالكرِّ والفرِّ، الذي لا يحسنه سوى الخيالة، والرأي عندي أن نجبر الخيالة على الاشتباك معنا، ثم نحصدهم بالنشاب.

قال له بهرام: وكيف يكون ذلك؟

قال له سيف: نهجم على المشاة هجومًا كاسحًا، ونشيع بين الجند أننا نريد دخول المدينة، فلن يصبر عدي وهو يرى نخبة مشاته تحصدهم سهامنا.

قال له بهرام: ولكنها مخاطرةٌ كبيرة، وإذا فشلت الخطة وقعنا بين خيلهم ومشاتهم.

أجابه سيف: إن لم نخرج اليوم بإرادتنا، فسيخرجنا الجوع غدًا أو بعد غد، لقد فهمت خطة عدي، فهو لا يريد المغامرة بالاشتباك معنا، كما فعل أتباع الكاهن، بل يريد حصارنا في هذا الوادي، فإما أن يهلكنا الجوع أو يغرقنا السيل.

أجابه بهرام: صدقت، لقد فهم عدي خطتنا عندما خرجنا من المدينة، ونزلنا في هذا المكان، ولا بد من خطةٍ بديلة، فأعدوا للهجوم، واكتموا الأخبار عن عامة الجيش.

لم يكد يطلع الفجر حتى هجم بهرام وسيف على مشاة القَيْل هجومًا عنيفًا، كاد أن يزيحهم من أماكنهم، لولا مساندة أهل المدينة لهم وإمدادهم بالعدة والعتاد.

ومع ذلك فقد أثخن فيهم رماة بهرام، وفعلوا بهم الأفاعيل، كان عدي يمدهم بالمشاة تلو المشاة، ولم يشرك الخيل في المعركة خشية عليها.

كان يومًا عبوسًا استمر فيه القتال المرير طوال النهار حتى حجز ظلام الليل بين الطرفين، وقد كثر القتلى وعمّت الجراح في مشاة القَيْل دون أن يتزحزحوا من أماكنهم.

استقر عدي في معسكره بعد العشاء، ثم استدعى أحد قادته، وقال له: سأرسل معك وفدًا للتفاوض على الصلح مع بهرام، فاذهب من فورك إلى معسكرهم، ثم أخبر بهرام بعزمنا على الصلح، فإن وافق على ذلك فأعلمه أن الموعد بيننا غدًا بعد بزوغ الفجر.

ذهب القائد إلى معسكر بهرام، ثم رجع بعد ساعة يخبر القَيْل بموافقة بهرام على الصلح، شريطة أن يحجز الوادي بين الجيشين، فيكون لبهرام ضفته التي تلي المزارع، ولعدي ضفته التي تلي الجبل، ويلتقي الوفدان في بطن الوادي.

فرح القَيْل بهذا الشرط فرحًا شديدًا، وكأنه قد وافق شيئًا في نفسه لم يخبر به أحدًا.

◈◈◈◈

طلع الفجر نديًا يحجب الضبابُ الخفيف ضوءَه الخافت، الذي بدأ يتسلل من خلال أشجار النخيل المتراصة على ضفتي الوادي.

اختار عدي إحدى الضفاف الضيقة، التي تخلو من الحشائش، ثم تمركز خلفها مباشرة، وكأنه يريد الدنو من العدو أكبر قدر ممكن، حذره أحد القادة من سهام النشاب التي يجيد الفرس استخدامها، ولكنه أبى إلا أن يقيم في هذا المكان.

أشرقت الشمس وقدم بهرام يصحبه عدد كبير من قادة جنده، ولم يكن بينهم سيف بن مرة، بل أبقاه على رأس الجيش تحسبًا لأي طارئ. اقترب حتى وقف إزاء القَيِّل، ثم بدأت المفاوضات بينهما.

عرض عليه عدي أن يرحل هو وجنده باتجاه الصحراء، ثم يركبوا البحر من حضرموت فأبى بهرام، وقال: لا أرحل إلّا إلى صنعاء، أو أقيم في هذه المدينة.

رفض عدي هذا العرض رفضًا قاطعًا، وهو يعلم نية بهرام من هذه الحركة، ثم لج الخلاف بينهما، وانتهى إلى طريق مسدود.

وبعد لحظة صمت دامت برهة من الوقت، استدعى عدي الفارسَ الملثم، فجاء عليه درعٌ مضاعف، وخوذةٌ من حديد، ووقف بجانبه.

أمسك عدي بيده، والتفت إلى بهرام، وقال له: هل تعرف هذا؟

رد عليه بهرام بسخرية: ومن عسى أن يكون؟ أتريد أن تخيفني بالملثمين كما كان يفعل صاحبك الكاهن العجوز، يوم أن كان يخيف الناس بالأشباح؟

كشف الملثم عن وجهه، ثم صاح ببهرام، وقال: والآن هل تعرفني أيها الفارسي الماكر؟

دقق بهرام النظر في وجهه، ثم قال باستنكار: آهـــــا..أنت العبد الأبكم..

أجابه الرجل الملثم: نعم أنا الرجل الذي أمضى في مغارتك زمنًا طويلاً، وعرف أسرارك كلها أيها الفارسي الماكر.

صاح بهرام بالقَيْل، وقال له: ردوا عليَّ عبدي، فقد اشتريته بحر مالي! أم أنكم تحبون خطف العبيد؟

قهقه عدي بصوت عالٍ، ثم قال: رُدّ أنت أولًا على الكاهن تلميذه، الذي خطفت عقله، واشتريت ذمته، وأرد أنا عليك عبدك.

أجابه بهرام: هل لي أن أعرف اسم عبدي ما دام يستطيع النطق؟

رد عليه الملثم بغضب: أنا حر وابن حر، واسمي وضاح بن صخر، ولست عبدًا عند أحد.

مسح بهرام لحيته، ثم قال: وضاح بن صخر.. حسنٌ يا وضاح! نادوا لي على سيف بن مرة.

قدم سيف من بين الأشجار القريبة، فقال له بهرام: يا سيف انظر إلى ذلك الرجل، هل تعرفه جيدًا؟

دقق سيف النظر في وجهه، ثم قال بغيظ: أيها الغادر الخائن لـِمَ قتلت أبي، وقد أكرمك وأحسن إليك.

ثم التفت إلى عدي، وقال له: يا عدي، إن هذا الرجل غادرٌ لا أمان له، فادفع به إليَّ فإن ثأري عنده، فقد قتل أبي غيلةً وغدرًا.

لم يجبه القَيل بل أشار لوضاح أن يرد نيابة عنه، فقال وضاح بحزم وثقة:

يا سيف والله ما قتلت أباك، وليس لي مصلحة في قتله وقد عرض عليَّ أن يزوجني ابنته عندما هجرته أنت وأخوك، واتبعتما هذا الجاسوس الفارسي، الذي أرسله ملك الفرس، لكي يستولي على بلادنا، ويسيطر على دروب تجارتنا، وأما ثأرك فليس عندي، بل عند صاحبك بهرام، فقد سمعته بأذنيّ يقول لذي نواس: سأرسل لك جبارًا ليكون رهينة عندك، فإن رابك من سيف شيئًا فاقتل أخاه.

ارتبك سيف وتغير لونه، ثم قال: دعك من هذا الكلام، والله لا نصطلح أبدًا، إلا على سفك دمك وإزهاق روحك.

رد عليه وضاح: أيها المخدوع! ثأرك والله عند الرجل الذي تقف بجانبه الآن، وهو من أحرق أخاك، وأضاع مزرعة أبيك، ويوشك أن يحرق البلد بأكمله.

أحس بهرام بحرج موقفه، وخشي أن يؤثر هذا الكلام على أتباعه من العرب، فقاطعه قائلًا:

يا عدي هل جلبت لنا هذا العبد، لكي يعطينا درسًا في الأخلاق، إن كنت تريد الصلح، ففاوضنا عليه، ودع عنك توافه الأمور، ثم التفت إلى سيف، وقال له: اذهب وجهز الجيش، وسأمكنك من أخذ ثأرك هذا اليوم.

تراجع القَيْل إلى الوراء قليلًا، وخلا بوضاح، ثم قال له: أحسنت يا وضاح، وقد انتهت مهمتك اليوم بنجاح باهر، فعد إلى سجنك في القصر، فإني لا آمن غدرهم، لا سيما وقد أصبحت هدفًا لبهرام، وثأرًا لسيف.

أجابه وضاح: أنا رهن أشارتك يا سيدي، ولكني أحب أن أبقى بجانبك، فأقتص لنفسي من بهرام، الذي ضربني وآذاني.

وضع عدي مفاتح السجن في يد وضاح، وقال له: ليس لدينا وقت نضيعه فاذهب الآن، فإذا دخلت السجن فاقفله على نفسك من الداخل، كما كان يفعل زيد، ولا تأكل من أي طعامٍ يقدم لك في السجن أبدًا.

انطلق وضاح مع كوكبة من الخيل، وقد ملأ إناءه من طعام المعسكر، بينما عاد القَيْل يصحبه فارسٌ ملثم آخر، وأخذ في مفاوضاتٍ عسيرة مع بهرام وأتباعه.

طالت المفاوضات جدًّا، حتى سئم القوم وملوا دون التوصل إلى نتيجةٍ حاسمة، فعدي يسعى لإخراجهم من موقعهم الحصين، الذي اختاروه بأنفسهم، وهم يريدون الأمان حتى يتوجهوا إلى طريق صنعاء لكي يسيطروا على أنقاب السد ومجاري عيونه.

يشتد الخلاف وترتفع الأصوات، ثم ما تلبث أن تهدأ الأمور بالتدريج، اقترب الليل، وقد مال الفريقان إلى الصلح بعد أن ذاق كل فريق منهم بأس الآخر، وعرف شدة مكره وقوة حيلته.

تبادل الرجلان عهد الأمان على إلا يغدر أحدهما بالآخر في أثناء الليل، ثم عادا إلى معسكرهما، وأقاما فيه ينتظران الصباح.

الفصل السابع

الغربان

1

وضاح وقد خلا بنفسه في السجن وأغلق الباب من الداخل، الوقت لا يزال عصرًا، والشمس لاتزال حيةً، ترسل أشعتها الصفراء المشوبة بحمرة الغروب إلى جدران السجن الداخلية.

جلس في الغرفة الداخلية التي اعتاد أن يجلس فيها عندما دخل السجن أول مرة، هدأت نفسه قليلًا، وأغمض عينيه، ثم بدأ يراجع نفسه.

عشرة أشهرٌ مرت منذ أن دخل مأرب، تتابعت فيها الأحداث الجسيمة وكأنها عشرة أعوام.

دخل السجن فيها مرتين، وتبدلت حاله من طريد يدخل المدينة في صندوق، إلى رجلٍ مبارك يتنافس الناس على رؤيته، ويتزاحمون لنيل بركة يده.

عشرة أشهرٌ كاملة رأى فيها اغتيال زيد، وخيانة حجر بن أوس، ثم انهيار مشروع الكاهن بأكمله في لحظةٍ فاصلة.

عجبًا! لقد ذاب كما يذوب الملح في الماء في غداةٍ واحدة! بعد أن ضحى في سبيله أناس مخلصون، ماتوا لأجله وأوقفوا حياتهم على نصرته وتأييده، حتى بدا للعيان وكأنما هو صرحٌ ممرد، يكل الطرف عن الإحاطة بأطرافه.

لكن.. ألم يُبنَ كل ذلك الصرح على كذبة واحدة عن مغارة الهول، ما زال الكاهن ينفخ فيها حتى غدت أمثال الجبال، ثم أقام عليها تلاميذه المتحمسون بروجًا عالية، وشادوا فوقها حصونًا منيفة، يظنها المرء محكمة البناء راسخة الأساس لأول وهلة.

وما هو إلا أن كُشِف الغطاء عن أساسها، فإذا هي فقاعة قد بنيت في الهواء.

وكان من سوء طالعها أن الذي هدمها هو من ساهم في بنائها، فكان أدرى بمقاتلها، وأبصر بعيوبها.

عشرة أشهرٌ مرت دون أن يزور بيت أسرته في سفح الجبل، لم يرَ قبر أمه، ولم يقف عند ضريح والده، آه ليت الأمور تستتب، وليت الأوضاع تهدأ، عله أن يحظى برؤية مغاني الطفولة ومعاهد الصبا.

استند وضاح على جدار السجن، وأغمض عينيه، فتسلل النوم إلى جفنيه بهدوء، فنام نومًا عميقًا بعد أيامٍ من الصخب المتواصل.

◇◇◇◇

صعد على جدار السجن! ونظر إلى الأفق البعيد، فهاله السواد العظيم الذي أقبل من أعلى الوادي وأسفله، اقترب السواد من مدينة مأرب، حتى أظلم له الأفق، فإذا ألوف مؤلفة من الغربان الكبيرة، التي هجمت على المدينة بكل عنف وشراسة، هجمت على الناس،

وأكلت الدواب وأحرقت الزروع، تقتل الناس وتدفنهم بأرجلها في قاع الأرض، رآها وهي تنهش جسد القَيْل وتأكل جثة بهرام!!.

تركت المدينة خاليةً جرداء، ثم هجمت على القصر فلم تدع فيه شيئًا.

اتجهت إليه في سجنه، ثم خطفته ووضعته على أجنحتها، وحلّقت به في جو السماء، وهو ينظر إلى المعبد ودخان النار ينبعث من رماده الأسود، حملته عاليًا فوضعته أعلى الجبل، ثم طارت بعيدًا وتركته منحنيًا قد وضع رأسه بين كفيه ينظر إلى خراب المدينة تحته.

استيقظ وصاح فزعًا من هذا الحلم المرعب الذي أقض مضجعه وأطار نومه، لم يستطع استعادة تفاصيل الحلم من شدة الرعب، فأخذ يدور في غرفة السجن الداخلية، ويعزي نفسه بأنه أضغاث أحلام سببها شدة التعب وكثرة الإرهاق، الذي مر به طوال الأيام الماضية.

بقي مستيقظًا حتى مضى ثلث الليل الأول، ثم غلبه النعاس فأعد فراشه، ونام نومًا هادئًا لم يكدره شيء.

لكن الحلم المزعج لم يلبث أن تكرر بتفاصيله نفسها المرعبة، فقد هجمت الغربان على المدينة، وتركتها قاعًا صفصفًا بعد أن قتلت أهلها وأحرقت زرعها، ثم طارت بوضاح ورفعته إلى السماء

وعينه على المعبد المحترق، ثم وضعته على قمة الجبل، وهو ينظر إلى المدينة الخراب.

طار النوم من عينيه، وانتابه قلقٌ عظيم، وأحس بالرعب من تكرار هذا الحلم، فلم يستطع النوم بعد ذلك، بل بقي مستيقظًا طوال الليل، وكأنه ينتظر حدثًا ما.

◈◈◈◈

مضى ثلثا الليل، ونام أغلب الجيش، بينما بقي الحرس يدورون حول المعسكر، ويحرسونه من جميع الجهات، يساندهم فرقة كثيفة من الخيالة، الذين لا يبرحون ظهور خيلهم طوال نوبة الحراسة، فقد شدد القَيْل عدي عليهم التعليمات خوفًا من أن يغدر بهم بهرام، ويبيّتهم تحت جنح الظلام.

كان الليل صافيًا تلمع نجومه في كبد السماء، وهادئًا لا يقطع هدوئه سوى هبات الريح الباردة، ووقع أقدام الحرس بين الفينة والأخرى.

فجأة!! ودون سابق إنذار وقع هجومٌ صاعق على المعسكر من أسفل الوادي، صاح الحرس بالجند: غدر بنا بهرام..غدر بنا بهرام..

استيقظ الجند وهبوا إلى أسلحتهم واستقبلوا هجوم العدو الكاسح وقد أدهشتهم المفاجأة، بينما أحاط الخيالة بعدي الذي قفز على ظهر فرسه ليتبين الأمر على حقيقته.

تساقط الجند صرعى، وتخطّفتهم حراب العدو، الذي أقبل يخترق الصفوف، وكأنه سيلٌ جارف، قد انحدر من قمة الجبل إلى أسفل الوادي.

صاح القَيْل بالأبطال يستنهض هممهم، ويستحث حميتهم، ولكن دون جدوى، كان العدو أمثال الجراد، لا يبقي ولا يذر، صاح الحرس: النجاء..النجاء..لا طاقة لنا بهم.

لوى عدي عنان فرسه ليفرَّ جهة المدينة، فوجد مشاة العدو قد أحكموا الطوق حوله، استل سيفه وجالدهم جلادًا عظيمًا، يشيب لهوله الولدان حتى استطاع أن يخترق صفوفهم هو وثلةٌ قليلة من خيالته الشجعان، ولكن العدو ما لبث أن التف عليهم، ونصب لهم كمينًا محكمًا، ثم أبادهم عن بكرة أبيهم.

تفرق الجيش شذر مذر، وتبعهم العدو يقتلون ويمثلون بالجثث ويقطعون الأذان ويبقرون البطون.

لم تكد الشمس تشرق حتى أبيد جميع الجيش تقريبًا سوى بضع عشرات من الجند الذين لجأوا إلى الجبال أو سقطوا في الحفر، واختفوا بين الأشجار والحشائش.

◈◈◈◈

لم يكن جيش بهرام بأحسن حالاً من جيش عدي بن عمرو، فقد أخذه العدو على حين غرة، واندفع عليهم جنود المشاة مثل الإعصار الكاسح الذي لا يبقي ولا يذر.

لم تغنهم أسهم النشاب الطويلة، بل عادت وبالًا عليهم، يحصدون بها أنفسهم حين اضطربت صفوفهم، وفرقتهم حراب العدو التي انهالت عليهم من كل حدب وصوب.

قتل بهرام ودهسه جنود العدو بأرجلهم، بينما طعن سيف بن مرة في ثغرة نحره مع ساعة الهجوم الأولى، ثم سُحق الجيش بأكمله في ساعات معدودة، ولم ينج سوى الشريد الذي أخفاه الظلام في فلج من أفلاج العيون أو حفرة من حفر السواقي.

أشرقت الشمس وقد اجتمعت فرق جيش أرياط[1] على باب المدينة الشرقي بعد أن أبادوا جيش عدي ودمروا جيش بهرام، ثم أشعلوا النيران في المعسكرين بعد أن نهبوهما جميعًا.

امتدت ألسنة النيران واشتعلت في مزارع النخيل وأشجار الرمان المتراصة، وأحرقت عددًا كبيرًا من الجثث المتناثرة على جنبات الوادي. فاحت رائحة الموت واختلطت مع دخان الحرائق المشتعلة في كل مكان فتصاعدت في سماء المدينة القاتم، وبثت الرعب والهلع في أرجاء المدينة المذعورة.

أقام الجند ينتظرون قدوم أرياط الذي أقبل مع مسيل الوادي، تحف به جنود الحبشة، وقد لبسوا جلود النمور، وعلقوا القرون وأنياب السباع على دروعهم وخوذاتهم.

---

(1) قائد حبشي كبير، غزا اليمن سنة 525م، واستولى على كافة مدنها، ثم نصب نفسه ملكًا على اليمن، حتى خرج عليه أبرهة الأشرم فقتله.

تريث أرياط قليلًا حتى اكتمل وصول جميع فرق جيشه الضخم التي تولت مطاردة الفلول، ثم واصل زحفه الدموي على المدينة البائسة التي كانت مشغولة بمعارك الخصوم الثلاثة منذ شهرين كاملين، فأخذها جيش الحبشة على حين غفلةٍ من زعمائها وقادتها، ولولا ذلك لما خفي على أهلها خبر هذا الزحف الهائل.

أما في الجانب الغربي فقد هجمت فرقة من جيش الحبشة على السد، واحتلت القصر ثم انحدرت إلى المدينة دون أدنى مقاومة.

هجم الأحباش على المعبد، وقتلوا من فيه، ثم حاصروا قصر القَيْل وقلعة جنوده التي امتنعت عليهم، وأبت التسليم على الرغم من ذهول الصدمة التي سببها هذا الزحف المفاجئ.

استسلمت المدينة الكبيرة بسرعةٍ هائلة، فاقت تصور الملك نفسه، فتدفق جنود الحبشة في الأحياء والسكك يقتلون الناس في الطرقات، وينهبون البيوت، ويعتدون على الحرمات.

ومع أن أرياط قد شدّد على جنده بالكف عن قتل الناس أو الاعتداء على حرماتهم إلا أن المدينة لم تسلم من بعض الخراب الذي طال أطرافها وبعض معالمها.

لم يلبث ملك الحبشة أن علم بصمود القلعة فذهب إليها بنفسه، ورماها بالمنجنيق فوافق حرسها على التسليم بشرط

الأمـان علـى أرواحهـم، فأعطاهـم ذلـك علـى أن يخرجـوا دفعـة واحـدة، ليس معهم أي شـيء، ومن عثر معه على أدنـى غرض فقد حكم علـى نفسـه بالموت.

2

وضـاح في سجنه وقد بلغ به القلق كل مبلغ، يسمع بين الفينة والأخرى صراخًا أو عويلًا، يقطع عليه هدوء الليل، لم يكن متفائلًا أبدًا، فقد علمته الأيام أن أحلامه السيئة تصدق دائمًا، كما صدق حلمه في الحمامة البيضاء، عندما كان في مزرعة مرة، لكنه لم يتوقع أن يتم الأمر بهذه السرعة المذهلة.

طلع الفجر وبدأت أصوات النوائح ترتفع في كل مكان، كان يظن أنها معركةٌ فاصلة قد جرت بين عدي وجند بهرام قتل فيها عددٌ من الناس، لكن الأمر قد عم المدينة كلها، وامتلئ الجو صراخًا وعويلًا، بل شمل ذلك حتى القصر والقلعة.

خفق قلب وضاح خوفًا من أن ينتصر بهرام، وأن ينهزم القَيْل، الويل له إن حدث هذا! سيكون حتماً كمن ربط نفسه للذبح!

حاول أن يسأل السجان أو أحد من الجند المكلفين بالحراسة، فلم يجد أحدًا، همّ بالهرب، فتذكر أن باب السجن الخارجي مقفل تمامًا، فقرر البقاء في سجنه تحت رحمة الأحداث المتلاحقة.

تصاعدت رائحة الدخان الذي يكتم الأنفاس وعلت معها أصوات الندب والعويل والاستغاثة، ثم ما لبثت إحدى شظايا المنجنيق أن أصابت جدار السجن، فأحدثت زلزالاً مروعًا.

استسلم وضاح لقدره المحتوم، وتمدد على الأرض، وقد هيأ نفسه للموت، وهو يرجو أن تأتي منيته فجأة بأحد السهام النازلة على السجن أو بقذيفةٍ من قذائف المنجنيق.

المهم ألا يقع في أيدي أعدائه، فيسومونه سوء العذاب، ويجعلونه يتجرع الموت مائة مرة قبل أن يذوق طعمه الكريه.

هدأت الأصوات قليلًا داخل السجن، وانقطع رمي السهام والمنجنيق، فقام وضاح ومشى نحو باب السجن وهو عاجز تمامًا عن تفسير ما يجري في هذا اليوم العصيب.

يمر الخدم أمام باب السجن بسرعة البرق، وهم يبكون ويولولون، ولا أحد يلتفت إلى هذا السجين الحائر المذعور.

انقطع الصوت وخيّم هدوء الموت على القلعة مرة أخرى، فَتَح باب السجن الداخلي ثم انطلق بأقصى سرعته نحو سلسلة الباب الخارجي فوجدها محكمة القفل.

أمسك بالقضبان السميكة، وأخذ يهزها بكل قوته، وهو يصرخ صرخاتٍ عالية، يتردد صداها في الحجرات الخالية.

انحنى على ركبتيه، وأنزل رأسه، وكأنه ينتظر ثورة البركان مرة أخرى.

◈◈◈◈

لم يطل انتظاره كثيرًا حتى ثار البركان مرة أخرى، وسالت حممه جنودًا من الأحباش تدفقوا بأعدادٍ هائلة، واقتحموا كل جنبات القصر ومداخله، وهم يصرخون صرخاتٍ مرعبة، ويقفزون إلى السماء بأقدامهم الحافية وحرابهم الطويلة.

رآه أحدهم داخل السجن فصاح برفاقه الآخرين، فتجمعوا حول باب السجن، وأخذوا ينظرون إلى وضاح ويشيرون إليه بأيديهم، وهم يرددون عبارات غريبة.

رفع أحدهم الحربة ليطعنه بها، فصفعه شيخٌ أشيب قد لبس جلد نمر، وتقلد قلادة من أنياب السباع، صاح بهم الشيخ، وأبعدهم عن وضاح، فابتعدوا عن القضبان قليلًا وأخذوا يرقبونه بذهول كما يرقب الأطفال حيوانًا غريبًا قد وضعه الصيادون في قفص وأخذوا يدورون به في أحياء المدينة.

غض بصره وابتلع ريقه، وجرت دماء الحياة في عروقه مرةً أخرى بعد أن تذكر حلمه المزعج ليلة البارحة، عجبًا لقد تحقق مثل فلق الصبح، وما دام أن أوله قد وقع، فلابد أن يتحقق آخره.

نظر إلى جند الحبشة مرة أخرى بعينٍ فاحصة، فخيل إليه أنه يرى غربانًا شرسة قد اجتمعت عليه، وأخذت ترمقه بعيونها الحادة، حتى صرخاتهم الغريبة غدت وكأنها نعيقٌ مزعج يملأ الفضاء.

جلس وضاح على الأرض، وهو يقول لنفسه: لقد فَهِمت الآن كل شيء، هذه الغربان قد هجمت على المدينة فدمرتها وجعلت عاليَها سافلَها، ولم تبق وجيهًا أو زعيمًا إلا قتلته، أما أنا فلا ضير علي ولن يمسني منها أذى، ستحلق بي في جو السماء ثم ترفعني إلى أعلى الجبل.

ماذا يعني هذا؟ ألا يدل علو المكان في المنام على علو المكانة في الواقع؟ ربما علا قدره عند هؤلاء المتوحشين وارتفعت مكانته! كل شيءٍ واردٌ في وقتٍ تتقلب فيه موازين القوى بين عشيةٍ وضحاها.

تحرك الجنود فجأة ونهضوا جميعًا وهم يقفزون إلى السماء ويطلق بعضهم صيحاتٍ غريبة، بينما أخذ بعضهم يزغرد ويرقص.

نظر وضاح من خلال القضبان فرأى جمعًا كبيرًا يتوسطه رجل ضخم قد وضع التاج على رأسه، وفي يده عصا كبيرة تلمع الفضة في أطرافها. أدرك وضاح أنه زعيمهم الأعظم، وربما هو ملك الحبشة نفسه.

اقترب الزعيم منه، ثم قال كلمة أو كلمتين، قفز بعدها الجند وقطعوا السلسلة، ثم أخرجوا وضاحًا من السجن وأوقفوه أمام زعيمهم المخيف.

تقدم له رجلٌ أسود يحسن العربية بلكنة الحبشة ثم قال له: ملك اليمن أرياط يسألك عن اسمك وعن سبب سجنك؟

أجابه وضاح: اسمي وضاح، وقد سجنني القَيْل عدي دون سبب معلوم سوى أنني لم أشترك في حربه مع بهرام!!

ترجم الرجل للملك فأعجبه الكلام، فرد قائلًا: أحسنت إذ لم تشترك في حربهم العبثية تلك، وما فائدة الحرب إن لم تكن نصرةً لمظلوم أو ردعًا لظالم، لقد كانوا يرون ذلك الرجل الخسيس ذا نواس يحرق أهل ديننا بالنار، ويحفر لهم الأخاديد، ولم يتحرك أحد منهما لنصرة المظلومين، فنالا جزاءهما الذي يستحقانه.

أخذ وضاح يهز رأسه أثناء استماعه لكلام المترجم وهو يظهر موافقة الملك فيما يقول.

ربت الملك على كتفه، وقال له: اخرج من السجن، وذق طعم الحرية، فنحن لا نقتل سجينًا ولا شيخًا عاجزًا.

قالها الملك ثم أدار ظهره وغادر المكان وسط هتافات الأحباش وتصفيقهم.

بقي وضاح حائرًا في أمره، لا يدري أين يذهب وإلى أي وجهة يقصد؟ كيف يخرج من دهاليز هذه القلعة التي لم يعد فيها موطئ قدم من كثرة الجنود؟

ظل في مكانه برهة ثم سار نحو الباب بحذرٍ شديد، فتقدم إليه المترجم ومن خلفه عدد من النساء الحبشيات، وقال له: ستكون ضيفًا على الملك هذه الأيام، فامض مع هؤلاء النسوة، وكن مستعدا، فربما استدعاك الملك في أي وقت.

أمسكت به إحدى النساء، ثم مضت به إلى غرفةٍ بعيدة في زاوية القصر.

◈◈◈◈

لبث وضاح في مكانه الموحش أسبوعًا كاملًا لا يكلمه إنسان، ولا ينظر إليه أحد سوى عددٍ قليل من نساء الخدمة اللاتي يجلبن له عصيدة الدخن الممزوجة بلبن البقر كل يوم، ثم يتفرغن للحديث الطويل الذي لا يفهم منه شيئًا.

يتسلى وضاح بالتأمل في هيئاتهم الغريبة وملابسهم الفضفاضة وأحاديثهم العالية التي تشبه الصراخ.

تنتابه غصة الحزن ولوعة الأسى على الحال التي آلت إليها المدينة ثم ما يلبث أن يعزي نفسه بأنه لم يكن يملك فيها شيئًا، ولم يبق من أحبابه الذين يخشى عليهم عوادي الزمن أحدًا بعد مقتل

زيد وموت أمه وأبيه وهجرة أخويه إلى نجران دون أمل في الرجوع مرة أخرى.

بدأ عدد الجنود بالتناقص تدريجيًّا، وغادر أكثرهم القلعة بحلول اليوم الثالث، ولم يبق سوى عددٍ ضئيل من الجند الذين يلبسون الدروع ويتحلون بالذهب.

وفي صباح اليوم الثامن رأى وضاح المترجم قادمًا من بعيد، أحس بشيء من الأنس بقدومه، فهو الوحيد الذي يفهم كلامه ويرد عليه الصوت، ولعله أن يقطع عليه ثرثرة العجائز التي لا تتوقف أبدًا.

اقترب منه الرجل ثم حيّاه، وقال له: الملك يريد أن يراك، فتعال معي.

أمسك المترجم بيد وضاح ومضى يشق به صفوف الجند الذين وقفوا في باحة القصر، تقدم قليلًا ثم رأى الملك قد جلس متربعًا على كرسي القَيْل عدي يلمع الياقوت الأحمر في أطراف تاجه الذهبي، بينما يجلس أغلب قادته على الأرض.

نظر إليه الملك، ثم قال للمترجم: أسأله كيف كانت ضيافتنا؟

رد وضاح: وجدتها حسنةً أيها الملك.

سأله الملك: هل سبق أن ذهبت إلى نجران أو تعرف أحدًا فيها؟

رد عليه وضاح وقد فهم مغزى سؤاله: لا أيها الملك، لم يسبق لي أن رأيتها من قبل، ولا أعرف أحدًا فيها.

قال له الملك: خذ هذا القرن واخرج إلى المدينة، فهو أمانك من جنودي، فإن تعرض لك أحد منهم بسوء فاخرج له هذا القرن.

سلم له أحد الجنود قرنًا مجوفًا، قد كتبت عليه بعض الكتابات، فحمله وضاح على رأسه، وخرج من عند الملك.

◈◈◈◈

خرج وضاح من سجنه ليجد المدينة قد تغير وجهها تمامًا، لم يعد فيها قلعةٌ قائمة أو سورٌ عالٍ، بل عادت كلها أكوامٌ من الحجارة المتكسرة، حتى أسوار المزارع قد طالها التدمير أيضًا.

لقد سيطر الأحباش على كل شيءٍ تقريبا، وطردوا أهل المزارع والأسواق إلا من قَبِل أن يشتغل أجيرًا عندهم على ملء بطنه من عصيدة الدخن.

رأى وضاح بعينيه بعض أرباب المزارع الكبار الذين لم تمس أيديهم العمل يومًا قط، وهم يحملون روث البقر على ظهورهم ويفتونه بأيديهم في السواقي وحراب جنود الحبشة فوق رؤوسهم!

مشى وضاح وقلبه يتقطع أسىً على مدينته التي كانت قبل أيام زينة المدائن وأعمر البلدان.

وصلت به الطريق إلى مكانٍ خرب قد كان يومًا ما رمزًا للقداسة والعظمة في مدينة مأرب، واليوم قد تهدمت أركانه وقلعت أبوابه، ولم يبق فيه سوى بعض الجدران التي لا تزال صامدة في وجه العبث والتدمير.

وقف وضاح بجانب المعبد الذي قضى فيه سبعة أشهر كانت من أجمل أيام حياته وأروعها، تحول فيها إلى قديسٍ مبارك يعظمه الناس ويتبركون برؤيته، ويتحينون الفرص لزيارته.

جلس على بعض الأنقاض والحزن يقطع نياط قلبه، وهو يرثي لهذا المصير البائس الذي أصاب المعبد.

سمع أنينًا خافتًا ينبعث من إحدى الغرف المجاورة، أصغى سمعه قليلًا فانقطع الأنين، فكذّب أذنه وظن أنه واهم، لكن الصوت ما لبث أن تحول إلى كحةٍ مبحوحة وسعالٍ متواصل.

قفز وضاح من مكانه ودخل الغرفة التي انهدم بعض جدرانها، فوقعت عينه على الكاهن الأكبر، مضطجعًا على جنبه الأيسر، حاسر الرأس قد اغبرت لحيته، وتطاير شعر رأسه، وهو يسعل سعالًا متواصلًا.

اقترب منه ثم ناداه بلطف وقد اختلطت مشاعر الرهبة مع الحزن والشفقة على هذا الشيخ العجوز الذي كانت مهابته في أيام عزه تملأ نفوس الوجهاء فضلًا عن عامة الناس، واليوم لا يستطيع حتى نفض الغبار عن خده ولحيته.

كنانـة.. شـيخ كنانـة.. رفع رأسـه ببطء، ونظـر جهة وضـاح، ثم أشار بيده إشارةً ضعيفة إلى فمه اليابس.

قفـز وضـاح إلى نبـع المـاء القريـب، وجلـب منـه مـاءً قليـلًا في كسـر إنـاء، ثـم رفـع رأس الكاهـن، وسـقاه بضـع قطـراتٍ مـن المـاء.

أمسـكه بمنكبيـه، ثـم أسـنده علـى جـدار الغرفـة الغربـي ووقـف يتأمل منظره الحزين، وقد شـارفت الشمس على المغيب.

أخـذ رأس الكاهـن يميـل يمنـةً ويسـرة، ثـم انكـب علـى وجهـه وسـقط مغشـيًا عليـه، فوثـب إليـه وضـاح، وأضجعـه علـى ظهـره.

لم يلبـث الكاهـن طويـلاً حتـى انسـلت روحه، وشـخصـت عينـاه، ومات كما مات مشروعه من قبل.

دفنـه وضـاح في نقـب مـن أنقـاب المعبـد، وأهـال عليـه التـراب، ثـم تركـه ومضـى، وهو يتأمل صفـرة الشـفق.

لا يـدري أيهمـا سـبق أولًا: نفـس الكاهـن أم قـرص الشـمس الـذي تـوارى بحجـاب الليـل.

يـا لهـا مـن عبـرةٍ مؤلمـة رآهـا وضـاح وعاشـها الكاهـن قبل موته، مـا أقسـى أن يتأخـر مـوت المـرء حتـى يـرى بـأم عينيـه موت مشـروعه الذي سـخر حياته كلها من أجله، وما أشـد مرارته وهو يرى جهوده المضنيـة التـي بذلهـا طوال عمره وهـي تذهـب أدراج الرياح.

3

وضاح يدور في أرجاء المدينة البائسة، وهو لا يدري ما يصنع، وقد أنكر كل شيء فيها.

وجوهٌ غريبة حلت مكان تلك الوجوه المألوفة التي كانت تعمر المدينة، أسواقٌ قد تعطلت، وبيوتٌ قد هدمت، ومزارع قد احترقت.

حل جنود الحبشة محل التجار، وأخذوا يعرضون بضاعتهم على الناس في طرق المدينة، ولم تكن هذه البضاعة سوى ما نهبوه من حاجات الناس وأموالهم.

رحل ملك الحبشة عن المدينة، واتجه ناحية نجران بعد أن ترك في مأرب حاميةً قوية تسوم الناس سوء العذاب، وتنكل بمن عصى الجند أو خالف أوامرهم المذلة.

رأى وضاح كيف يجتمع أفراد القبيلة الواحدة بعيدًا عن أنظار الجند، ثم يتسللون لواذًا[1] إلى الصحراء، ليجتمعوا فيها بدوًا رحلاً كما كانوا قبل نهضة مأرب.

لم يكن أهل المزارع بأفضل حالًا من هذه القبائل التي أجبرت على العودة إلى حياة البداوة الأولى، بل كان قصارى همهم أن يرضوا الجند بأي شيء حتى لا يحرقوا ما تبقى لهم من نخيلٍ، أو يهدموا ما بقي لهم من آبار.

(1) أي بخفية وتستر.

أما أهل التجارة فقد كان حالهم مزريًا بعد أن انقطعت بتجارتهم السبل، وعادوا عمالاً يسخرهم جنود الحبشة لخدمتهم والقيام على شؤونهم.

حتى وضاح نفسه لم يسلم من اعتداء الجنود وتطاولهم عليه مع أنه يحمل أمان الملك، استأجر بيتًا من أحد الجنود فأقام فيه، فلما أظلم الليل هجم عليه الجندي وسلب ما معه من نقود ثم أمسكه بأذنه وطرده من البيت.

تذكر وضاح بيت والده في سفح الجبل، فمضى يقصده وهو يأمل أن يجده صالحًا للسكنى بعد كل هذه الأعوام.

خرج من المدينة بحذر وخفية، ثم سلك الطريق الذي كان يسلكه أيام كان راعيًا في غنم أبيه، تصحبه أمه الحنونة سلمى.

يحدوه الشوق ويأسره الحنين كلما اقترب من بيت أسرته في سفح الجبل، ولكن القلق يخالج نفسه ويساور قلبه خشية عليه من الزوال، وهو بيت الطفولة ومعهد الذكريات.

◈◈◈◈

يا الله! ما أجمل صمود هذا البيت في وجه عوادي الزمن التي تقتلع أضخم المعالم، وتمحو أوضح الرسوم فتجعلها أطلالاً لا تكاد العين ترى أثرها.

لم يتغير في البيت الصغير شيء سوى بابه الخشبي، الذي بدا وكأنه قد انتزع انتزاعًا من بين أحجار البيت.

مشى قليلًا حتى دخل الفناء ثم وقف مليًّا يتأمل أرجاء البيت وذكريات الصبا تمور في وجدانه، وتتراءى أمام عينيه.

انحنى على ركبته، حتى كاد أن يهوي على الأرض عندما خطرت في مخيلته صورة والدته، وقد ثنت رجلها عند موقد النار.

لم يتمالك نفسه فأجهش بالبكاء، وانهمرت دموعه الحارة حتى بللت صفحة خده، وتسابقت على الأرض.

نهض مرةً أخرى ثم اقترب من الموقد الذي لم يبق من آثاره سوى حجارةٍ سوداء، قد سفعتها النار زمنًا طويلاً.

استغرق في تأمله حتى خيل إليه أن خبز أمه يتقلب على الجمر، وتملأ رائحته الشهية أرجاء الفناء.

أكمل مسيره ودخل البيت، فلم يجد فيه سوى صندوقٍ عتيق من صناديق أمه، آه ما أقسى الموت حين يفرق بين المرء وأشيائه التي يحوطها ويرعاها بنفسه، ويمنع غيره من المساس بها، حتى إذا مات تُركت نهبًا للزمن، لا يؤبه لها ولا ينظر إليها، وكأنها لم تكن أثيرة محببة يومًا ما.

استدار ينظر في نواحي البيت، فوقعت عينه على حصيرٍ ممزق، قد أكلت الأرضة أطرافه، جلس على الحصير، وأخذ ينظر إلى جذوع الأثل المتعرجة، التي تمسك السقف أن يهوي على الأرض.

ارتاحت نفسه قليلًا، فاضطجع على جنبه الأيمن وهو يحس بسكينةٍ غريبة تخالج أعماق فؤاده، ما أروع هذا الشعور الذي يغمر النفس فجأةً دون أن يجد له المرء تفسيرًا واضحًا.

ألا تزال روح والدته الحانية تحلق في أرجاء البيت الذي عدت عليه عوادي الزمن؟

أم أن نَفَسًا طيبًا من أنفاسها العطرة، قد تسلل إلى صدره المثقل بهموم الأيام، فغدا بلسمًا لكل تلك الجراح والآلام؟

لا يدري، وأنّى له أن يدري؟ كل الذي يدريه أن هذه السكينة قد فارقت روحه منذ أن غادر هذا المكان منذ زمنٍ بعيد.

إنه يجلس في ملكه وملك أبيه، الذي لا يشاركه فيه أحد، وهذا وحده كافٍ لئن ترتاح نفسه وينعم باله.

كم هو ضئيل جدًّا مقارنة بمزرعة مرة أو مغارة بهرام، فضلًا عن قصر عدي بن عمرو وقلعته، ولكنه في كوخ أبيه ملك، وفي أملاكهم عبدٌ أو أجير.

انقلب على شقه الآخر، فآنس شيئًا حادًا تحت ظهره، تحسسه بيده، فإذا هو فأس أبيه الكبيرة، التي يقطع بها الحجارة، أخرجها من الأرض بمشقة بالغة، وإذا هي لا تزال متماسكة، وكأن أحدًا قد دفنها في هذا المكان عمدًا.

لم يتمالك نفسه أن قبّل هذه الفأس، التي علمته معنى العزة والكرامة، وأغنته عن سؤال الناس ومِنَّتهم يوم أن كان طفلاً صغيرًا.

التقط صخرةً من الأرض، وجعل يزيل الصدأ الذي علق بأطراف الفأس، ثم أخذ يقلبها في يده، ويشحذ نصلها الحاد.

وضع الفأس جانبًا، ثم نام نومة خفيفة، استيقظ بعدها فرحًا نشيطًا قد زال كل ما علق بنفسه من همٍ وألم.

◈◈◈◈

حمل الفأس على متنه، وخرج من البيت، فاشتاقت نفسه أن يسلك الدرب الذي كان والده يسير معه، عندما كان يذهب لقطع الحجارة في رأس الجبل.

سار مع الطريق، وهو يرى في كل جانب من جوانبها ذكرى عطرة لوالده الكريم الذي ضحى براحة جسده في سبيل كرامته وكرامة أبنائه.

التفت إلى الوراء، فبدت له مأرب أسفل الجبل، والحرائق لا تزال مشتعلةً في بعض مزارعها، استند على الفأس، وأخذ يتأملها، وهو يتعجب كيف أجبره جنود الأحباش على الصعود إلى الجبل بعد أن سرقوا نقوده وطردوه.

نعم! إنهم يحققون آخر الرؤيا، كما حققوا أولها من قبل.

أكمل المسير فخطر له خاطر غريب، وهو يرى أثر فأس والده في الصخور التي يصادفها، ألا يحتاج الناس في مأرب لحجارة البناء من أجل ترميم ما انهدم من بيوتهم في الحروب المتلاحقة التي نشبت مؤخرا؟

إنه يحسن قطع الحجارة ومعه آلة القطع الحادة التي كان يستخدمها والده الحجار، ثم هو يتقن جميع مهارات هذه المهنة، ويعرف خباياها وأسرارها، فلمَ لا يكسب لقمة عيشه منها، وقد تعطلت كل أسباب الرزق الأخرى؟

قرر أن يجرب حظه في مهنة والده ولو لمدة يسيرة، ريثما تنقضي هذه الأيام العسيرة، التي يمر بها الناس في مأرب.

انطلق بعزم نحو المكان الذي يتذكره جيدًا، وقد قبض على الفأس الثقيلة بكلتا يديه.

اختار صخرةً مناسبة ثم رفع الفأس، وأهوى به على الصخرة، دوى الصوت في الأرجاء فجاوبه صدى الجبل وكأنه قد حن إلى هذا الصوت الذي ألفه منذ زمن بعيد.

◈◈◈◈

الحجَّار الجديد في سوق المدينة المنكوبة يقلب حجارته الحمراء التي شذب أطرافها بصعوبة.

يمر الناس من حوله عجلى، لا يأبهون به، ولا يتوقفون عنده، وما يصنعون بالحجارة التي يملأ ركامها السكك والطرقات؟

يجتمع بعض الفتيان حوله، ويتهامسون بقصة الجن، ثم يتمايل بعضهم على بعض من فرط السخرية والتشفي.

لم يكن وضاح يرد على أي منهم خشية أن ينتشر الخبر فيعلم الأحباش بحقيقة أمره.

لبث طويلاً في مكانه، حتى انتابه الملل، وتسلل اليأس إلى نفسه، فهمّ بالرجوع، وبينما هو كذلك، إذ توقف بجواره رجلٌ ضخم البنية عظيم البطن، وأخذ يخالس النظر إلى الحجارة المرصوصة دون أن يتكلم معه.

بادره وضاح بالتحية، ثم قام يعرض أجمل ما لديه من أشكال الحجارة وألوانها، فقال الرجل باستحياء: إنني في حاجةٍ

لبعض هذه الأحجار لكي أصلح التنور الذي أكسب رزقي منه، ولكنني لا أملك نقودًا في ساعتي هذه، فإن قبلت مقايضتي برغيف خبزٍ ساخن فلا مانع لدي.

وافق وضاح على هذا العرض، وانطلق معه إلى تنوره، ثم تقاضى منه الثمن رغيفًا ساخنًا، أكله قبل أن يصل إلى داره.

كان الثمن زهيدًا، ولكن وضاح كان في غاية الرضا والانشراح، فعاد مباشرة إلى منزله في سفح الجبل، وأغلق بابه بأغصان الطلح، ثم نام نومة هادئة.

وبمرور الأيام استعاد الحجار لياقته، وازداد مهارةً وحذقًا، وعرفه بعض التجار في السوق حتى استطاع أن يكتسب قوت يومه من تقطيع الحجارة.

يعود إلى منزله وقت العشي قانعًا برزقه راضيًا عن نفسه، ثم ينام ملء جفنيه بمجرد حلول الظلام.

عرف وضاح معنى جديدًا للسعادة، يقوم على الاستغراق في شأنه الخاص، وعدم الخوض فيما لا يعنيه من أمور العامة، وعيش الكفاف يومًا بيوم دون الخوف من المستقبل أو التفكير في الماضي.

اعتاد أن يفرح كل يوم، ويشعر بالرضا والغبطة، كلما حصل على رغيف خبز، أو تقاضى مدًّا من تمر، مقابل كدحه وعرق جبينه.

تعلم من الجبل أن يلوذ بالصمت الطويل، ويسمو بنفسه عن التذمر والشكوى، وأن يرضى بما قسم له، فإن جاده الغيث أنبت الكلأ والمرعى، وإن أخطأته السماء احتضن بذوره، وحافظ عليها حتى يأذن الله له بالمطر.

يدهشه جمال الشروق كل نهار، وتأخذه رهبة الغروب كل ليلة، ويستعيد ذكرى والده العطرة مع كل ضربة فأس يفلق بها صخرة صلدة.

يتعجب من الأيام كيف شرحت للفقراء معنى السعادة بمداد البؤس على ورقة الشقاء، بينما شرحت للأغنياء معنى الشقاء بمداد النعيم على ورقة السعادة، ومحصلة الدرس واحدة.

علمته الخلوة أن السعادة تنبع من أعماق الروح، وتكمن في ثنايا الإنجازات الصغيرة التي تزيد من تقدير المرء لذاته.

لم يعد ينتظرها في أحلامه الكبيرة، بل أصبح يفجر ينابيعها مع كل إنجاز يقوم به، قطع الحجر إنجاز، وإنزاله إلى أسفل الوادي إنجاز أكبر، أما بيعه وقبض ثمنه فهو المكافأة الكبرى، التي تستحق احتفالاً خاصًا يقيمه لذاته، تحضره كل مشاعر الغبطة والسرور، وتنشد فيه الروح ترنيمة الشكر والثناء، وتردد فيه النفس قصيدة المدح والرضا، ثم يختتمه القلب بشكر الواهب على حسن التوفيق وكرم العطاء.

حتى عندما قرر أن يصلح منزل أسرته الصغير، لم يؤجل فرحته حتى يفرغ من كل شيء، بل كان يحتفل بالسعادة في كل مرحلة.

3

لم يكن وضاح يحبذ السير في المدينة كثيرًا خوفًا من جند الحبشة نهارًا، ومن اللصوص وقطاع الطرق ليلًا.

لكنّ هذا الرجل قد ألح عليه أن يحمل معه البضاعة إلى منزله في الجانب الشرقي، مقابل أن يشتريها كاملةً بثمن جيد، وافق على مضض، وجعل يسير في طرقات مأرب الضيقة وبين بيوتها المتلاصقة، حتى وصل إلى منزل الرجل، وقد كادت الشمس أن تغيب.

قبض الثمن كاملًا، ثم عاد أدراجه إلى سوق المدينة، وطفق يتأمل الوجوه الشاحبة التي تُكِنُّ وراء جدران الصمت الرهيب سحبًا سوداء من الرعب القاتل، يدوي في كوامنها الرعد!، ويحرق أجوافها لهيب البرق، ولكنها تخفي بركان غضبها في ثرى صمتها، وتلحفه برداء حسرتها، خوفًا من سيف الجلاد وسطوته.

واحسرتاه على المدينة البائسة!! على أهلها الذين آثروا الموت البطيء بنار الذل والغبن على الموت العاجل بيد المحتل الغاصب!!

على قصرها الذي كان روحًا تنشر الحياة الطيبة في نواحي المدينة الحالمة، ثم صار جسدًا ميتًا، تسكنه أرواح الشر التي تتربص بأنفس الناس في كل لحظة.

يا حسرةً على عبق ماضيها، الذي يأبى أن يعود، وعلى النور الذي تراه أمامها، فلا تصل إليه أبدًا.

أكان قدرها أن تُسام سوء العذاب مرتين، بسوط الحنين إلى مجدها التليد تارة، وبخيبة الأمل تارةً أخرى.

وهل كان جديرًا بها أن تعزف ألحان حاضرها على إيقاع ماضيها لتكتشف بعد فوات الأوان أن الحادي كان يحدو بقافلتها في غياهب التاريخ، وفي ظنها أنها تسير في ركاب المستقبل.

◈◈◈◈

انطلق مسرعًا يحاذر أن يحل الظلام، فينتشر جنود الحبشة في سكك المدينة، واللصوص على أطرافها ومداخلها.

خرج منها خائفًا يترقب رَصَد الجند مع كل طريق، حتى أصعد في الجبل، فارتاحت نفسه قليلًا، لولا ما يروعه من عواء الضباع، وزمجرتها القبيحة بين الفينة والأخرى.

اقترب من منزله، وفي قلبه لوعة حزنٍ، لا يدري ما سببها، وفي نفسه شعورٌ غريب لا يدري ما كنهه؟

وضع يده على قلبه الذي يمور في صدره، ويخفق بشدة، وانحنى قليلًا ثم قرر التوقف عن المسير، ريثما يلتقط أنفاسه.

استند على حافة الطريق، وهو يستعيد ذكرى السنين الماضية التي مرت أمام عينيه، وكأنها طيف عابر.

ما أعجب الحياة! كيف توحي للحالمين بأنها حبلٌ ممدود من الأحقاب المتطاولة، التي لا ينتهي مداها، لكي يتخذوا منها ميدانًا فسيحًا لأحلامهم المتشابكة، التي يتصل بعضها ببعض، كما تتصل لحظات الزمان وساعاته، وليست سوى ومضة خاطفةٍ من النور يعيش في ثناياها جيل كامل من البشر، يخيل لهم أن الزمنَ قد توقف تمامًا بداخل هذه الومضة، وهي تمضي بهم سريعًا نحو ظلام الفنَاء.

ما أعجب الحياة! كانت أحلامًا فعادت أوهامًا، وكانت فكرةً فأصبحت عبرة.

لم يرد وضاح أن يسترسل في هذا الخيال الحزين فنهض ليكمل طريقة.

رفع رأسه ونظر جهة منزله فلمح شبحًا يلوح في ظلام الليل وكأنه يدور في فِناء البيت!!

قفز من مكانه ولاذ وراء صخرةٍ كبيرة، وجعل يراقب البيت ويده ممسكةٌ بمقبض خنجره المعكوف. لبث ساكنًا في مخبئه حتى تبين له أن ثمة من يتربص به في داره، رجلٌ يروح ويجيء ويدخل في الدار ثم يخرج منها!

دارت به الأرض ولعبت برأسه الظنون فلم يدر ما يفعل، تريث قليلًا لعل الرجل أن ينصرف من تلقاء نفسه فليس في الدار ما يُخشى عليه!

لكن الرجل لا يزال على حاله واقفًا، وكأنه ينتظر عودته على أحر من الجمر.

استجمع وضاح شجاعته ثم تسلل نحو البيت بهدوء، فلما اقترب من الفناء رمى بحجر كان في يده، فقفز الرجل من مكانه، وأخذ ينادي بصوت خافتٍ مبحوح: وضاح..وضـــــاح..

صمت وضاح قليلًا، وكأنه يحاول التعرف على صاحب الصوت، ثم قال: ومن تكون؟

اقترب الرجل بلهفة، وهو يقول: وضاح أنا الراعي سويد، ألا تذكرني؟

سويد! وما الذي جاء بك في هذا الليل؟ سأله وضاح بقلق.

قال الراعي: أرجوك اخفض صوتك، لا أريد أن يسمع بنا أحد، وسأخبرك بكل شيء.

دنا منه وضاح حتى صافحه قائلًا: أهلًا سويد، لقد أفزعتني يا رجل، والله ما جاء بك من أقصى المدينة في هذا الوقت إلا أمر جلل.

صمت الراعي لحظة، ثم قال باهتمام بالغ: وضاح! ثمة أمر في غاية الخطورة، ولن أبوح لك به حتى تقسم لي بأغلظ الأيمان أن تكتمه ولا تخبر به أحدًا.

أمسك وضاح بمنكبه، ثم قال بغضب: ويحك! والله ما وشيت بأحد قط منذ أن عقلت، فأخبرني ما الذي جاء بك؟

همس الراعي في أذنه قائلًا: اخفض صوتك، وتعال معي الآن إلى مغارة الهول!

دارت الدنيا برأس وضاح، حتى همّ أن يبطش به، فابتعد عنه سويد قليلًا، وهو يقول: أرجوك هدئ من روعك، وتمالك نفسك، فالأمر أخطر مما تتصور.

ثكلتك أمك يا سويد! أتريد أن تأخذني إلى مغارة الهول في هذا الوقت، ثم تريدني أن أرضى وأسكت؟ قالها وضاح، وهو يحد النظر في وجه الراعي.

لا تقل لي: إنك لا تزال خائفًا من جن المغارة؟ قالها سويد بشيء من التهكم.

أجابه وضاح وعلامات الجد بادية على وجهه: ويحك يا سويد! أتظن أن خبرًا واحدًا عن المغارة سيمحو ما استقر في أذهان الناس عنها منذ خمسين عاما؟

هدأت ثائرته قليلًا، ثم قال: لقد كانت الأمهات في مأرب يخوفن أطفالهن من الخروج ليلًا بمغارة الهول.

اقترب منه سويد، وقال له: صحيح! حتى الرعاة لم يقتربوا من المغارة أبدًا، ولذا لم أجد موضعًا أنسب منها لكتمان السر.

أجابه وضاح، وكأنه غير مكترث: لقد مللت من كل شيء، ولم أعد راغبًا في أي مفاجأةٍ جديدة، فابحث لسرك عن رجلٍ غيري.

أمسك الراعي بيد وضاح، وكأنه يريد أن يقبلها، فجذبها بشدة، وأشاح بوجهه بعيدًا.

قال له الراعي متوسلًا: أرجوك يا وضاح، لا وقت لدينا، أخشى أن ينكشف السر، وينفلت زمام الأمر من بين أيدينا، وعندها ستكون أنت بالذات أول من يعض أصابع الندم.

رفع وضاح رأسه إلى السماء، وقال: يا إله السماوات! لا أريد قدرًا جديدًا، رضيت بمهنة والدي ومنزل أسرتي.

ثم التفت إلى سويد، وقال له بحدة: يا هذا! عن أي سر تتحدث؟

تعال معي إلى مغارة الهول، وستراه بعينك، ثم احكم بعد ذلك.

اندفع وضاح نحو بيته، ثم خرج بسرعة حاملًا حربته القصيرة في يده اليمنى، وزنده الذي يوري به النار في يساره، ثم أغلق بابه، وقال على هيئة المغضب: سِر بنا يا سويد إلى مغارة النحس تلك.

ابتسم الراعي، وقال ببهجة غامرة: لن تكون نحسًا بعد اليوم يا وضاح فقَرَّ عينًا، وطِب نفسًا.

إيه يا سويد! لقد دارت بي الدنيا كما تدور الرحى بثفالها[1]، فلم يعد فيها ما يبهج خاطري، أو يزيح الهم عن فؤادي، سوى الخلوة والتأمل.

---

(1) الحجر السفلي من أحجار الرحى.

أخذ الراعي الزند من يد وضاح، ثم أمسك به وانطلقا سويًّا عبر طريق الجبل المنحدرة.

◈◈◈◈

يتلكأ وضاح أحيانًا، وكأنما يساق سوقًا إلى مصير مجهول، يتربص بحياته الهادئة التي اختارها بنفسه على سفوح الجبال الحالمة. بينما يمضي الراعي بحذر وخفة، ويلتفت يمنةً ويسرة كلما آنس حركةً، أو لاح له شيء في سواد الليل الحالك.

اقتربا من المغارة وقد مضى ثلث الليل الأول، فالتفت الراعي إلى وضاح وهمس في أذنه: امكث في مكانك هذا، وسأسبقك أنا إلى المغارة، فإذا ظننتَ أني قد وصلتُ لها فاصعد إليها بكل خفة، وإياك أن يفطن لك أحد.

هز وضاح رأسه ولم يتكلم، فقال له الراعي: اسمعني جيدًا، إن رآك أحدٌ فغيّر طريقك، ثم عد إلى منزلك، ولا تذهب إلى المغارة أبدًا.

مضى الراعي مصعدًا نحو المغارة، بينما بقي وضاح ساكنًا في مكانه، وقد اعتراه شيء من الخوف والتوجس لِما سمع من هذه الأوامر الصارمة.

أهذا كلام راعٍ لا يحسن إلا الحلب والصرّ؟ أم حديث رجل اعتاد على النهي والأمر؟ ومالِ هذا الراعي ولمغارة الهول في ظلام الليل الداجي؟ وجلُّ أحاديث الرعاة عن الغول والسعلاة[1]!

لم يستطع وضاح أن ينتظر طويلاً، بل انطلق بسرعة نحو المغارة، وكأنما هو طائرٌ يطير بجناحَيه من شدة توجسه وفضوله.

وصل إلى مغارة الهول فوجد الراعي عند بابها ينتظر قدومه على أحر من الجمر، أمسك بيده، ثم همس له همسًا خفيًّا: أمسك بطرف ثوبي واتبعني إلى داخل المغارة، ولكن! احذر أن تأخذك المفاجأة فترفع صوتك أو تحدث أدنى جلبة.

مشى وضاح خلف الراعي والفضول يكاد أن يقتله، تجاوز الراعي باب المغارة، وتوغل داخلها وهو يتلمّس جدرانها بيديه، حتى وصل إلى إحدى الزوايا البعيدة، ثم أدخل يده في جيبه، وأخرج الزند، ثم قدح به وأشعل فتيلةً صغيرة أضاءت طرفًا من المغارة، فحدثت المفاجأة العجيبة التي لم تخطر على قلب وضاح ولم ترد بباله أبدًا..

رجل طويل قد تمدد في زاوية المغارة، وأخذ ينهض ببطء وعيناه لا تفارق وجه وضاح! استند الرجل على يده اليسرى ورفع رأسه، بينما بقي بصره شاخصًا في وجه وضاح.

(1) أنثى الغول، وهي كائن شيطاني، تزعم العرب أنها تغري الرجال بجمالها، ثم تفترسهم!

أراد وضاح أن يصرخ بأعلى صوته، فوضع الراعي يده على فيه، وهو يقول: ويحك! اسكت.. اسكت.

أبعد وضاح يد الراعي عن وجهه وتقدم بهدوء نحو الرجل الجالس، وقد فتح عيناه، وبدا ذهول الصدمة على محياه!!

توقف قليلًا، ثم انكب على الرجل، وأخذ يقبل رأسه، ويبكي من الفرح ويقول:

مولاي.. الحمد لله على سلامتك، سيدي بخير.. مولاي حي.. لا أصدق عيناي.

أبعده الراعي برفق، وهو يقول: على رسلك، على رسلك! فلا يزال جريحًا...

@MANSOURALJABRY

M.ALJABRY4210@GMAIL.COM